العدد ٦٥٩ - نوفمبر ٢٠٠٣ - رمضان ١٤٢٤ هـ

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمى
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

الاصدار الأول
يناير ١٩٤٩

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١,٢٥٠ فلس - السعودية ١٢ ريالاً - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريالاً - الإمارات ١٢ درهماً - سلطنة عمان ١,٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٣,٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات ..

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج. م. ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولارا

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

للاشتراك فى الكويت: السيد عبدالعال بسيونى زغلول الصفا ص. ب. ٢١٨٣٣ (13079) ت: ٤٧٤١١٦٤

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات: ص. ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج. م. ع.

تلكس :
Telex 92703 hilal u n

فاكس :
FAX 3625469

عنوان البريد الإلكترونى :
darhilal@idsc. gov . eg

المصـــــــري

بقلم

محمــد أنقــار

الغلاف للفنان
أحمـد شوقـى

العصـــــر

تدفن تطوان موتاها بعد صلاة العصر. وكان أبى رحمه الله قد علل ذلك بأن حرفيي المدينة العتيقة كانوا يسترسلون في العمل والبيع ثم يأوون إلى منازلهم الظليلة للنظافة والغذاء ليتفرغوا بعد العصر لمآربهم اليومية بما فيها دفن الموتى. هكذا ارتبط العصر بالموت. ولحكمة إلهية حرت فى فهمها اختلطت فى أعماقى كوابيس تلك الفترة من النهار بأحاسيس التلاشى والفناء. كان وقت العصر الشفاف بداية لنهاية الكائنات إن لم يكن أكثر خواء من النهاية ذاتها. فالعصر أقوى فتكا ببنيتي الهشة من الغروب وأشد منه مضاء ما دام الغروب يسمح لى بمعاناة القدر المحتوم وقد تجسد فى أفول الشمس وغياب الضوء واندحار النهار، ويتيح لى تشرب الخاتمة التى لا مفر منها وقد رسمت أماراتها القانية فى صفحة السماء الداكنة. أما أثناء العصر فترغمنى آيات الطبيعة على مكابدة النهاية قبل أوان النهاية دونما توطيد مسبق للنفس على استقبال النهاية. آنذاك يتسرب إلى الجوارح الرقيقة شعور قاهر بمأساوية المصير المرعب.

بعد العصر رجعت خائر القوى من تشييع جنازة عبد الكريم الصويرى. المشيعون تناثروا هنا وهناك مخلوقات مغلوبة على أمرها وقد اخترقت «باب المقابر». ودفعتنا خطواتنا كي نلتف بتلقائية حول سلام ابن المرحوم. كنا ثلاثتنا أنا وبنعيسى ورضا نمطر سلام بعبارات المواساة والصبر. واصطحبناه إلى دار الوالد «بحى المحنش» حيث قرأنا الفاتحة وعزينا الأرملة والأولاد وباقى العائلة. وتريثنا أمام باب الفقيد بعض الوقت وتبادلنا فى وجوم جملا متقطعة، ثم صعدنا نحو الكازينو مشيا على الأقدام. وعندما استرخينا على المقاعد المريحة تحد... بنعيسى باندفاعه المعهود:

«– لا عزاء لنا إلا أن ينتظر كل منا دوره.!!»

ونطقت نبرات صوته بحب عفوى مهزوم.

لكنى لم أقدر على إخفاء لوعة التأثر مدة طويلة فخفت أن أنفجر بالبكاء وسط النادى فاستأذنت ووليت قاصدا الدار عبر زنقة «القائد أحمد». وفى الطريق صارعت الخطب وداريت ما أمكنتنى المداراة كى لا أدخل على الأهل وأنا فى هذه الوضعية من الشجن فأعدى الولية وأجعل أحزانها تتأجج وقلت:

« – لأوسع دائرة التيه وأبطئ الوصول لعل حدة الأسى تفتر».

لكن فى زنقة «الحدادين» انتابنى ما يشبه الانهيار فقاومت غصة الحلق واضطررت إلى الحفر فى بقايا مسرات قديمة لعلها تنتشلنى من الوقوع النهائى فى وهدة السديم..

شيخ قاب قوسين أو أدنى من الستين يوارى التراب رفيقا له جاوز الستين بأسبوع واحد يتيم. وفى منعطف «النجارين» خيل إلى أن الجدران الباكية لا تزال تردد أصداء أذان العصر. أى سر ربانى أو دنيوى ربط العصر بالموت حتى ألفت أن أنسج من اختلاطهما معالم غربة رطبة شبيهة بالغربة الرطبة التى تجلل دروب تطوان العتيقة وتبلل حيطانها البيضاء؟. صور الموت البليل لا تفارقنى منذ الصغر أيام الخوف من التيه فى الأزقة الملتوية المسقوفة بالدعائم الخشبية المتآكلة وأنا فى طريقى إلى كتاب «القصبة» خارج حى «المطمر»، أو فى أثناء ترددى على «المدرسة الأهلية»، أو صعودى إلى «المعهد الحر» جنب «باب المقابر». صور ندية لازمنى طعمها الغميق حتى بعد أن أخرجتنى يفاعتى من عتاقة الأزقة إلى رحابة الأحياء العصرية، واضطرتنى مرحلة الشباب إلى متابعة الطلب فى «المعهد الرسمى» ثم فى «مدرسة المعلمين».

وباغتتنى ثانية ملامح عبد الكريم المتأرجحة كمويجات بحر هادئ فحار ذهنى هل يفر من الملامح أم يواجهها. كل باب خشبى بنى، كل حائط باك، كل قوس

منحن يرجعنى إلى وقفاتى التأملية الطويلة عند عتبة منزلنا القديم بدرب «النقيبة» خلف «الجامع الكبير» وأنا فى الرابعة أو الخامسة من عمرى منتظرا عودة أبى من إدارة الأملاك المخزنية قبل أوان العودة بساعات. كنت أسيح عيونى الصغيرة فى بياض الجير الممزوج بزرقة النيلة الباهتة وأشرد مع قطع الحجارة الملساء المكورة وقد غرست فى الأرض بانتظام أخاذ فتنساب مشاعرى السقيمة مع تموجات الدروب ومدات مؤذن العصر حتى تسلمنى الموجات والأصوات إلى سكون عميق يدوم قدر المدة التى يقضيها المصلون فى أداء صلاتهم بـ «الجامع الكبير» لكن مدة الصمت فى الدرب الظليل تطول فى الحقيقة قرونا وقرونا سرمدية. آنذاك تكون الذات الصغيرة قد أعدت نفسها لاستقبال جنازة. وأحدس أن موكب جنازة سمير فتتردد فى أذنى أصداء الموت وتراتيل قراء القرآن وعويل النساء حتى وإن لم تكن ثمة فى الواقع جنازة.

– ٢ –

وانقضت على من جديد صورة عبد الكريم من بزارات «الخرازين» وحوانيتها الظليلة فتراءت الصورة فى غبش متداخل مع الأخفاف الصفراء والحمراء والسيور المجدولة المدلاة والأحزمة المعلقة والجلود القضيمة ذات الصوف المسد والطرابيش القانية وعبد الكريم مسجى فى حفرته الباردة. ذقن حليق وجلباب من الشركة الناعمة المخططة وطربوش وطنى وابتسامة الرضا الدافئة. كأن شفتيه الجافتين لم تتنغما أبدا بأحاديث الحب والوطنية والمجون المباح والسفر الشرقى. كل الدفء يتمرغ الآن فى التراب الأسمر بمهانة. تذكرت قهقهته الحية فى ذلك العصر الرمادى ونحن فى قاعة الدرس «بالمدرسة الأهلية». كنت سادرا فى شرودى الجنائزى حين ضجت القاعة بالنداء المتكرر للمعلم وهو يطالبنى بالتقدم نحو المنصة لاستظهار محفوظة «يا معهدا علمنى».

« – أحمد الساحلى!!».

....

« – أحمد الساحلى!!».

....

« – أحمد الساحلى!!».

....

ولم أسمع النداء وإنما رددت أعماقى أصداءه القادمة من جزيرة مهجورة. ثم فوجئت بالمعلم يغادر كرسيه الخشبى ويهرول مندفعا نحوى كالصاعقة ويصفع خدى الأيمن صفعة حارة مازال لهيبها متقدا إلى اليوم فى ثنايا بشرتى المنكمشة.. وقهقه الزملاء المردة وسايرهم عبد الكريم. ولم تسمح لى سنواتى الفتية أن أتخيله بين المستهزئين. عبد الكريم مخلوق جادت به الأقدار ساعة آن جمعتنا فى حى واحد وفى كتاب واحد وأجلستنا فى طاولة واحدة مشتركة منذ يومنا الأول فى المدرسة الابتدائية . تمثلته هالة من الطهر المنير، وجسدته فى صورة حب طفولى متجدد . لكن الخيبة سمرتنى فى موضعى فأجهشت بالنحيب المتقطع. كانت لحظة خواء رهيب امتزجت فيها سمات العصر الجنائزية بألم الصفعة بشماتة الشياطين بالهيبة الغامضة من تهوش صورة القرين الحميم إلى الأبد.

وفى الاستراحة تسلل الصديق من بين كوكبة التلاميذ الضاحكين ليمثل أمامى مشهد مواساة مرتبك فانكشفت حيرته وتردد من أين سيبدأ وهو يحرص بمهارة على ألا يزيد الجرح إيلاما . وتمكنت منه نوازع الضعف ففضل أن يدارى الموقف بلباقة:

« – ستخبر أباك...؟».

وشجعتنى نبرة الاستسلام على محاولة رد بعض الاعتبار لنفسى المهيضة فانفجرت معاتبا:

«– لا تنافق.!!».

وأصاب العتاب البرئ مرماه فاحمر وجه عبد الكريم. ثم أمعنت فى تعذيبه بالتحديق وهو يدارى حيرته بالالتفات وتحريك الرموش. وطاوعنى الصديق فى خطتى التعذيبية من دون أن يبدى أية مقاومة. وفى مقابل ذلك لم أتنازل لكى أرحمه لأن كبريائى كان قد جرح جرحا غائرا . كنت أطمع في أن أقهره باسم صداقة الحى والكتاب والمدرسة وأحقق من خلاله انتصارا صغيرا أمحو به موقف الذل. صداقة رفعتها بتلقائية إلى حق مثالى يلزم الطرفين بالوفاء المطلق وعدم النكث أبدا. لكن خناجر الهزيمة التى كانت أشد مضاءً من طمعى جعلتنى أجهش وسط الساحة فأتاح البكاء للمردة فرصا جديدة للتندر والتنكيت. وهرعت إلى المرحاض لأختفى من لسع العيون الشامتة.

– ٣ –

إلى أين ستمضى بى الدروب الملتوية يا عبد الكريم؟ هل سيحلو بعدك شاى «عين بوعنان» وجلسة الكازينو وجولة «الفدان» وذكريات الغرام اللذيذة؟ الشيخوخة من دونك رماد العصر وأفوله. ولا عزاء فى أولادك المشتتين فى دنيا الله ولا فى زملاء الكازينو المنغلقين على أنفسهم. لكن ثمة رجاء فى الخالق وفى غرفة الخلوة. إلى ورق الكراريس وضوء الأباجورة. إلى التنقيب عن الكلمات لعلها تسعف على الاحتفاظ بطراوة صورتك نابضة في الوجدان قبل أن يأتى دورى. حدسى ينبئني بأن المكابدة لن تطول. بعد شهرين سأتقاعد . ومن يدرى، فقد ألتحق بالرفيق الأعلى بعد أسبوع واحد من تقاعدى مثلما التحقت به بعد أسبوع واحد من تقاعدك. فارقتنا بعد أيام سبعة من إحالتك القانونية على المعاش فجعلت الألسنة تلهج بالمصادفة العجيبة. المدينة كلها تحدثت باستغراب عن ذلك وكرر

عديد من المؤظفين والمحامين ورواد الكازينو على مسامعي حكاية الأسبوع الواحد إلى أن تمكنت مني وأضحت يقينا راسخا في حياتي. أستغفر الله الذي بيده الحياة والموت. لكن المؤمن لابد أن يعد عدته للرحيل. أما أمارات السقم في البدن المنخور والأصداء الجنائزية وسمات الموت المنبعثة من الحيطان والأحجار والعمد فتبشر كلها بقرب النهاية وتوحي بتشابه مصيرنا . إن الهلع يجعل كل شيء محتملا ، يقرب بين المسافات ويحقق التطابقات . لذلك لن أستغرب إن كرر القدر مصادفة الأسبوع الواحد .

عند مدخل شارع «المطامر» الطويل أفاقتني روائح السمن والخليع والزبدة البلدية واللبن المخوض والجبن المنبعثة من الدكاكين الرطبة المتقدة المصابيح صباح مساء . واختلطت الروائح بتقاسيم عبد الكريم وهي تتحدى مخالب التلاشي. ثم طفا الوجه الوديع صفياً خالصاً عندما انغمست في الظل البارد المعلن عن مقدمة «جامع بن صالح» . لكن السراب الصافي من الشوائب لم يدم سوى ربع ثانية أو أقل من ذلك . سند غال ينهد ؛ وها هو العالم يتعرى بقسوة باردة رغم وفرة السقوف والأقواس والدعائم وتساند الجدران وتداخل أطراف حي «جامع بن صالح» في بعضها بعض . أما رقية فلتحتفظ بمواساتها المجاملة ، وهيهات لكلماتها التطوانية المعسولة أن تمحو اليقين المتسلط .

في وسط الدار واجهتني رائحة طعام نفاذة صادرة من المطبخ . كانت الخادمة هنية تهيىء عشاء سنبعثه إلى عائلة المرحوم جريا على العادة . وقفز نحوي حفيدي محمود فضممته إلى صدري ، لكنه استشعر وجومي فانصرف عني . وتلكأت نعيمة هي الأخرى وكادت أن تسقط في مشيتها المتمايلة . وصعدت في تثاقل إلى غرفة كتبي . وانهرت على الفراش الصغير وفوضى الصور المضطرمة في الذهن والوجدان تفتك بي . صور المجهول السديمي والتحولات المفاجئة وهي تضغط على بصيص الفرح وتدوسه بطغيان قاهر . كان وجه عبدالكريم بدأ يتلاشى بالفعل . لكنه لم يكن تلاشي الانمحاء النهائي . وإنما تشتتت التفاصيل

إلى أطياف متناثرة راحت تظهر وتختفي دونما انتظام . وحاولت بعناد محو الصور السديمية لكنى فشلت فهبطت لأطلب السلو لدى محمود ونعيمة .

— ٤ —

كنا قد انتشينا بغبطة التجديد بعد نجاحنا فى الشهادة الابتدائية . خرجنا من بين جدران المدينة العتيقة إلى متابعة الدراسة الثانوية أولا فى «المعهد الحر» ثم فى «المعهد الرسمى» فى طريق «باريو مالقة» . دنيا جديدة وصداقات جديدة وهواء جديد . وظل عبدالكريم قرينا ناضجا محنكا بالتجارب أكثر منى . لكنه كان يأبى إلا أن يتنازل من أجلى . يحترم شطحاتى الغريبة ولا يكاد يعاندنى إلا على سبيل الممازحة والتغيير . وكثيرا ما تساءلت :

«– هل يعتبرنى عبد الكريم فتى غير عادى فى حاجة إلى معاملة خاصة ؟»

إن الذى أعرفه جيداً أنه أكبر فىّ منذ الصغر حب الاطلاع وإنجاز واجبات الدراسة بانتظام لافت . وربما شفع له ذلك لكى يعاملنى بتقدير . بيد أن التصاقى الوطيد بوالدى ومراعاتى للمجاملات العائلية جعلاه يضعنى فى قرارة نفسه فى رتبة ناقصة لم يكشف لى عنها أبداً .

خلال سنوات «المعهد الرسمى» أقبلنا على المرحلة الجديدة بحب وخوف . الإسبانية والحساب واللغة العربية والعلوم والرياضة البدنية وكتب ومقالات المنفلوطى وطه حسين والرافعى ومى زيادة ، وخليط من الأساتذة المغاربة والإسبان والفرنسيين والمصريين والجزائريين واللبنانيين والسوريين والمسلمين واليهود والنصارى . وتمكن منا الإعراب والشعر بتأثير دوافع غامضة لذيذة شبيهة بنشوة الغزاة الظافرين . وأفلحت فى أن أقنع عبد الكريم بأن الشعر أكثر قداسة من الرياضة أو ربما سايرنى فى ذلك مبتسما حتى لا يغضبنى . فالشعر

سحر مطلق وجمال مبهم وخير عميم . نحفظ نصوصه ونفضلها على مقررات العلوم والتربية والحساب . أما حقيقته فلا ندركها ، وإنما نكتفى بأن نعتبرها هبة غامضة تدغدغ هشاشتنا . «أراك عصى الدمع» . «لا تعذليه» . «قفا نبك» . «عيد بأية حال عدت يا عيد» . وكان لطريقتى الباهرة فى القيام بالواجبات دور فى تشجيع زمرة من زملاء الدراسة على التودد إلى فى حين جعل الكسالى لا يفترون عن تمييع نزوعى المجامل ، وكثيرا ما سخروا منى بعدوانية ماحقة تصدى لها عبد الكريم بعنف الكلام والأيدى .

ذات يوم وأنا فى عنفوان تفتحى العقلى والجسدى أطلعنى أحدهم على رواية «القاهرة الجديدة» فتصفحتها دونما مبالاة مثلما هو شأنى تجاه كتب النثر ومختاراته . قلت للطالب متبجحا .

« – أية كتابة يمكن أن تعلو فوق الشعر فى الجاذبية والسحر ؟» .

كان الفتى صلب العود ، جبلى الملامح ، ذا شعر شديد السواد ، يقرأ بنهم ويحفظ الدروس والمقررات كما لو كان آلة حصاد عصرية . ولعلة ما صنفته منذ ذلك اللقاء ضمن فئة النثريين الذين لا أنسجم معهم . وافترت شفتاه بضحكة الرجل الناضج المطلع على أسرار الحياة قبل الأوان ، ثم رد بثقة .

« – لا تحكم قبل أن تقرأ!!» .

واختليت فى حجرتى بالطابق العلوى بدارنا وعكفت على مطالعة الرواية منذ ساعة الغروب إلى وقت قريب من الفجر . ولما أشرق ضوء الشمس كنت قد تحولت إلى كائن جديد كأنى أولد لأول مرة . فقد جعلنى كتاب «القاهرة الجديدة» أعيد نظرى القصير فى نفسى وعلاقاتى وواقعى الخارجى . أية صراحة وأية تعرية للأوضاع الاجتماعية العفنة . الرشوة والقوادة وبيع الذمم والعهر والتنازل السهل عن المبادىء . فلسفة «طز» والمتاجرة بالثقافة والأخلاق والقيم . وخدشت الجرأة القصصية حساسيتى الناعمة وكشفت لى عن عوالم مغايرة لم آلفها فى محيطى

المحافظ مع الوالدين والإخوة وأصدقاء «المطمر» و«المعهد الرسمي» . وكانت «القاهرة الجديدة» بداية التهام كل ما نشره وسينشره هذا المارد المصرى المسمى نجيب محفوظ . ثم حفظت بعد ذلك أسماء أبطاله ومواقع حوادثه وعناوين رواياته وقصصه وحوارياته وتفاصيل رسوم كتبه وشعرت بامتياز غريب يداعب شعيرات إحساسى الغض . وخاطبت ذات مرة الضنويرى حالما :

« - تصور يا عبد الكريم لو قدر لنا أن نجلس معا في مقهى الفيشاوى ونمتع عيوننا بمناظر المشربيات والملايا والحوارى ونتذوق القهوة السادة بالقرفة ، ثم نقفز لنطارد فتاتين جميلتين فى قصر العينى ! » .

— ٥ —

فى «مدرسة المعلمين» هبت علينا نسائم الصبا ففارت نفوسنا بحب الدنيا ونبض الشباب. بدأت عقولنا وأجسامنا تكتشف أسرار الكون كما لو كنا فراخا تكسر قشرة البيضة وتشرئب نحو بهجة الأشياء لأول مرة . ومع ذلك لم يسعفنى ربيع الحياة على أن أستأصل بصفة تامة شفافية العصر الكئيبة وقد لفت شغاف القلب، وإنما عاينت الضباب الرمادى يتكاثف قبالتى ويمهلنى بعض الوقت لأتحرك تحت نظر عيونه الساهرة يافعا شقيا يمرح فى فناء مسيج محروس . ولم يتخفف التصاقى بالوالدين إلا قيلا ، فظلت نظرة عبد الكريم نحوى مريبة وناقصة . وأتذكر فيما أتذكره خلال مرحلة الطلب «بمدرسة المعلمين» أننى رافقت ذات يوم أمى إلى «مكتبة الناصر» لشراء كتاب مقرر وأنا فى عنفوان الشباب . وكانت أمى قد استبدلت بالحايك الجلباب والقب الفاسى ولثام «حياتى» . مشينا الهوينا تتقدمنى بخطوة أو خطوتين وأنا أتبعها . دخلنا المكتبة فوجدنا الفقيه تطوان محمد داود يتكلم وهو يضع يده اليمنى على مجموعة من أعداد جريدة «الأهرام»

المستقرة فوق مبسط العرض . ثم صمت حين وقفنا حياله. كان الفقيه يرتدى جلبابا أبيض ناصعا يغطى معظم جسده ورأسه . نظارتاه مستديرتان كنظارتى خليل مطران أو المهاتما غاندى ، والبدعية بيضاء هى الأخرى يظهر جزء منها عند الصدر والعنق وقد أقفل بعقد بلدية صغيرة ومتقاربة . أما الشارب والحاجبان فلونهم أسود فى حين دقت اللحية البيضاء فى الوجه الممتلىء حتى استحالت إلى نقط صغيرة كادت ألا تبين . وحيينا الفقيه ورد التحية وافترت شفتاه بالابتسامة الوديعة التى اشتهر بها . ثم توجهت إلى صاحب المكتبة :

«- الموجه الفنى لمدرسى اللغة العربية من تأليف إبراهيم عبد العليم» فحنى الناصر رأسه النحيف فى لطف مؤكدا وجود الكتاب . ثم دخلت أمى معه فى مساومة لبقة تستدرجه ليخفض الثمن . وانتظرت نتائج المساومة كأننى غير معنى بنتائجها . وبغتة دخل عبد الكريم المكتبة وفوجئ بوجودى صحبة الوالدة ، فسلم على الجميع مبتسما وعاينها وهى تساوم ، ثم سلم وانصرف فى حشمة من غير أن ينهى استطلاعه اليومى للكتب والصحف .

ولم أنس ما قرأته فى تلك النظرة الخاطفة ، لكنى لم أدعها تحول بيننا وبين استمرار التجاوب الصادق . وهكذا تبادلنا أسرار الغرام المستحيل ووشوشات الجنس المسروقة . وأطلعت عبد الكريم على رسائل عشق محمومة مستلهمة من صفحات الرافعى وجبران وعبد الحميد بكداش وكتاب الرسائل العصرية موجهة إلى فتيات مجهولات لسن جارات لنا فى «المطمر» ولا زميلات فى «مدرسة المعلمين» . ثم استغللت ساعة انشراح تام فسربت إلى مسامع المرحوم اسم محبوبتى عايدة بطلة الثلاثية . كما شغفت ونحن طلبة بطرق استبطان الذات التى هدتنى إليها حساسيتى المرهفة وتأملات العصر قبل أن أقرا عنها وأعمقها بالمشاحنات اليومية مع إخوتى وصديق العمر . وجعلتنى تجارب الغور أميل بقوة إلى أستاذ التربية وعلم النفس وأسمو به فوق كل من أعرفهم باستثناء عبد الكريم الصويرى بالطبع . كان الأستاذ مصريا أسمر البشرة ممتلىء الجسم ، طويل

القامة ، قليل الابتسام ، متمكنا من حركاته وكلامه ، لكنه إذا ابتسم أشع فى مستمعيه بهجة مثيرة يظل تأثيرها ساريا لقرون ضوئية مديدة . التحق بالمغرب فى مجال البعثة التعليمية المصرية . لقبه الشياطين جون ستيوارت ميل . ومرة حاول أحدهم أن يختبر مدى تماسك أعصاب الأستاذ فاختلق قولا وهميا نسبه إلى أبرز أعلام تطوان البوهيميين الساكن معنا فى درب «النقيبة»:

«– هل صحيح أن التربية يجب أن تسبق التعلم أم أن التعلم يجب أن يسبق التربية كما يدعى ازرع كون؟ ».

وفطن الرجل إلى الخدعة المحبوكة وإن تيقنا بجهله شخصية ازرع كون المعروف فى المدينة كلها. وانتظرنا أن ينزل العقاب الماحق بالمارد الجرئ أو أن يمطر بسيل من اللعنات. لكن الرجل الأسمر تخلص من قطعة الطباشير بحركة هادئة وتراجع القهقرى. ثم جلس على مقعده وأمعن يحدق فى صاحب السؤال المصنوع تحديقا مركزا صامتا وطويلا . كل الاحتمالات دارت فى خلدنا والأستاذ جامد كما لو كان أبا الهول حقيقة. الصمت مطبق شامل والحركة ميتة والأنفاس تكاد تتوقف. وأمضينا ما تبقى من الحصة على هذه الوتيرة المتوترة التى لم تنس.

– ٦ –

نبهنى مؤذن «الجامع الكبير» إلى الغروب فتركت الفراش . كنت قد عانيت آخر غصص العصر الجنائزية حتى أنقذنى منها الغروب. وها هو الليل يبشر باندحار صريح لا نفاق فيه. ووضح لى آنذاك أنى لم أعد ممزقا بين مقامين بقدم فى الدنيا وثانية فى الآخرة. فمن حكم الغروب أنه يسلمك بكل تؤدة إلى الضفة الأخرى حيث ينتظرك عبد الكريم رفقة الأقرباء والأحباب والأجداد الغابرين. لكن لوثة عنادى التى لا أعرف مصدرها انبعثت ثائرة ورجتنى بقوة.

«– من سيقوم بعدك بالمهمة؟. ولمن ستترك كل هذا الثراء الأصيل الذى يمتزج فيه ما هو مصرى بما هو تطوانى؟».

وارتسمت على جدار غرفتى أشباح مصطفى صادق الرافعى والمنفلوطى ونجيب محفوط وزمرتهم من الكتاب بقاماتهم المهيبة وابتساماتهم المتحدية. وتوكدت لى حتمية أن أبقى على بصيص ذكرى عبد الكريم متقدا وسط الخراب النفسى ومستلزمات المجاملات العائلية والاجتماعية.

– ٧ –

ثم توظفنا وانخرطنا عضوين فى النادى واستطبنا الاسترخاء فوق كراسيه الوثيرة. وذات يوم عطلة سألنى عبد الكريم:

«– أى سحر نفثه فيك الفراعنة حتى جعلوا منك واحدا منهم؟».

فأجبت بزهو متعالم:

«– لابد من رد كل الميول إلى مبدأ الفروق الفردية».

واطمأن عبد الكريم فى جلسته حتى بدا حكيما من حكماء الجاهلية وأردف:

«– على كل حال كلنا ضحايا هذا المبدأ الجميل .. لكن يظهر أنك زودتها حبتين كما يقول أهل عشيرتك».

ودغدغ أعماقى اعتزاز باطنى لم أنس فورته منذ تلك الجلسة . فقد وعيت بأنى أختص بشىء لا يمتلكه صديقى بنفس القدر من الاحتضان والدفء . إنه يقرأ ما أقرؤه من صفحات مشرقية ، ونرتاد معا قسم الصحف والمجلات المحاذى «للمعهد الرسمى» لكن من دون أن يصل به الوجد إلى أن يشم الورق ويميز من خلال الرائحة بين طبعة دار الكتب وطبعة دار الهلال وطبعة دار المعارف وطبعة مكتبة

مصر ، أو يفرق بين رسوم اللباد أو جمال قطب أو حسين بيكار أو حلمى التونى أو جسور أو سعد عبد الوهاب أو حسن سليمان أو دياب . كما أن المرحوم لم يتعذب من أجل أن يعيد حميدة إلى الصواب ، أو يحلم بقضاء ليلة واحدة فى أحضان نور والمخاطر تحفنا من كل جانب ، أو أن يعيش ما تبقى من حياته مع عايدة فى جزيرة نائية خالية من البشر ، أو أن ينعم بالصفاء وهدوء الروح فى خلوة مع الشيخ الجنيدى . لقد كان عبد الكريم شرقى الهوى هو الآخر لكن لم يتطلع أبدا إلى كتابة قصة طويلة عن تطوان بإيحاء مصرى .

وعولت ذات مرة على كتابة رواية بتأثير من ذلك الإيحاء . وكان قد لفتنى حفل زفاف غير عادى أقيم فى «المطمر» فعزمت على تصويره . وتناقلت الجارات وشوشات عن فتاة سيزوجها والداها قسرا لرجل ذى ثروة بينما هوى البنت كان معلقا بعشيق آخر . وكادت أن تفوح رائحة الفضيحة فى «المطمر» فتخيلت الفتاة الكئيبة وهى تندب سوء حظها وتتهيأ للاستسلام إلى زوج لا تكاد تعرف عنه شيئا . وعوض أن أبحث عن مقدمات القصة وعقدتها استطردت أنقل عن أحمد الرهونى حديثه عن عادات التطوانيين فى حفلات الزواج :

« .. ثم إن المهر فى هذه البلدة مختلف . فأهل الطبقة العليا يشترطون غالبا الثياب والحلى ، ولا يشترطون دراهم . فيشترطون عددا من شقق الثوب الصفيق. والخفيف القطنى ، والحريرى ، والمسمسم والخامية ، وأمة الخدمة ، وربما زادوا تعمير خرصة الأذن من الآلىء مع تفصيلة أو تفصيلتين أو أكثر من ثياب حرير أو ذهب . (والتفصيلة عبارة عن اثنى عشر ذراعا ، كافية للقفطان والبدعية) ، مع ما يسمونه هدية ، وهو عبارة عن فرخة حرير مذهبة ، وسبنية ذهب، وكنبوش حرير، وشنبير وعبروق، وعدد من الشرابيل على عدد نساء أهالى الزوجة، مع أمور أخرى، وأهل الدرجة الوسطى يقومون ذلك أو بعضه بالدراهم، ويدفعونها نقدا كأهل الطبقة السفلى. وهذه الدراهم تختلف من ألف ريال إلى خمسين وأقل. وأما ولى الزوجة فيقابل هذا المهر بضعفيه أو أضعافه، فيصنع للزوجة مضارب من

ملْف، عشرة أو اثنتى عشرة، معمورة بنحو ١٥/٢٠ رطلا من الصوف فى الواحدة، ويصنع لها أزراً لغطائها، مع تساريح ظهارة، وعددا من المخدّات، مرقومة بالحرير وغيرها، ومضربات كبيرة للفراش. وكان قبلُ سريرا من خشب، والآن عمت الناموسيات..».

وتركت قصّتى ناقصة وعنونتها «بمأساة زبيدة». ولقد كنت حراً غاية الحرية لأترك قصتى ناقصة..

- ٨ -

أصابتنى دروس الأستاذ حلمى بعدوى تلمّس الفروق الفردية بينى وبين عائلتى وزملائى في «مدرسة المعلمين». فأخى الأكبر عبدالصمد شبّ وترعرع قبلى فى ظلال «النقيبة» الندية . لم يفلح فى متابعة دراسته رغم ضغوط الوالد وتهديده فانغرس في دكاكين «الخرازين» صبيا متعلما منشرحا حتى أصبح رب متجر للصناعة التقليدية يديره برضا فائق. وجعلتنى تجربة الاستبطان أكتشف فى عبدالصمد شهية الانفتاح على الدنيا والترفع عن الانشغال بدقائق الأشياء من رصد لتقلبات الجو واهتمام زائد بتأثيرات العصر والغروب وسواهما.

كذلك كان شأن محمد وأختى السعدية اللذين أقبلا على طلب العلم أو تعلم الخياطة بمقدار لم ينسهما الرغبة فى البحث عن فرص الاستمتاع ببريق المجاملات والحرص على الملذات الآنية المباحة. محمد تخرج فى «مدريد» طبيبا بيطريا يرى الأمور على الطريقة الإسبانية السعيدة فكثر ماله وقلّ عياله واختار المقام فى طنجة. وأبدت السعدية تفوقا فى دراستها الثانوية وانتظر الجميع أن يكون لها مستقبل علمى زاهر لولا أنها خطبت قبل أن تحصل على البكالوريا ومانع زوجها فى أن تتابع الدراسة أو تتوظف.

كما تفطنت منذ شبابى الأول إلى الصراع الخفى المحتد بينى وبين أمى الحريصة على طقوس الحياة التطوانية الأصيلة. بل انتبهت وأنا فتى إلى ذلك القدر من التفوق الذى تعلو به أمى على أبى بسبب انصرافه الكثيف إلى أشغاله الإدارية وخرجاته إلى ضواحي المدينة فى مهمات مهنية أو لتفقد أغراسه. كان يعود مساءً منهك الأعصاب، فى حين تظل هى محتفظة باحتياطى هائل من طاقتها ما دامت الخادمة تتكفل بمعظم أشغال البيت المضنية. كانت أمى تغتسل وتتزين وترتدى دفينها وتتمنطق بمضمتها ثم تضع أبى المنحل تحت بريق عينيها الزائغتين، وتحاصره بأخبارها التى لا تفتر، وتمكن الانحلال من أبى وتدهورت صحته سريعا وتوفى وأنا لم أنه بعد دراستى . وحاولت أمى بعناد أن تسيجنى بحبال المجاملات مثلما سيّجت المرحوم. ومع توالى الأعوام نجحت إلى حد بعيد فى قصدها على الرغم من نفورى.

ذات مرة استعرت من الأستاذ حلمى نبرته المتمكنة وجربت لعبة التعالم على عبدالكريم. قلت بصوت فخم:

« - الفروق الفردية أعظم اكتشافات العلم فى التاريخ الإنسانى!»

ووافقنى كريمو بابتسامة مرائية وانحناءات متكررة من رأسه. تركنى أتكلم وحدى وهو يتأمل، حتى إذا ما استشعر أن جعبتى الضيقة تكاد تفرغ من المعلومات الطرية تعمد أن يمارس دور المعارض:

« - لا تنس أن الأصل واحد فى الإنسان مهما ساد الاختلاف بين البشر».

وخيل لى أن عبدالكريم قد انتقل حقيقة إلى الهجوم وأن الموقف يقتضى قدرا من الحدة فقلت:

« - دعك من الأصول وتمعن سلطة الفروق والتمايزات. أنظر إلى اختياراتك واختياراتى، وقارن بين المغاربة والإسبان وحتى بين العرب والغرب لتجد أن الحكمة البعيدة تتجه نحو عدم التعارف وليس إلى لم الشتات..».

ثم مضى عبدالكريم فى تمثيل الموقف المعاند حتى إذا ما أحس بأنه محاصر ضرب ضربته القاصمة:

« – ليست هذه فروقا فردية بل فروق جماعية. ثم كفاك من تكرار أفكار الأستاذ حلمى وهات ما عندك من آراء شخصية..»

وشعرت بالكدر عندما رأيت الصويرى يحرمنى من متعة التعالم والحسم فى أمور الحياة والفكر والجنس الآخر. أما هو فزها هنيهة قصيرة بامتعاضى ثم بادر إلى أن يمحو من شفتيه ابتسامة الشماتة قصدْ التضميد:

« – صدقنى إذا قلت لك إننى لا أتكلم بدورى مع أمى وإخواتى إلا بكلمات جون ستيوارت ميل المصرى».

وصعب على رغم هدوء كلمات الرد أن أتخلص بسرعة من آثار الكدر. تلك طبيعتى. فالندبة فى الجسد اللدن مهما صغرت تحتاج إلى زمن معلوم لكى تلتئم. بيد أن جلال الصداقة لم يكن يفتر عن تحفيزنا على العودة إلى استفزاز بعضنا بعض بموضوعات مستحدثة نستخرجها من الصحافة والكتب، أو نستلهمها من الأخبار الرائجة. نعلق بآراء قومية متحمسة على رحلات قام بها مشارقة أجلاء إلى تطوان كشكيب أرسلان ومحمد سعيد العريان وأحمد الشقيرى وأحمد الباقورى وطه حسين وأمين الريحانى وعبدالخالق حسونة. ونختلف حول ألوان التعبير فى كتاب «السحاب الأحمر» *للرافعى* ونستحضر بإجلال التأبين الذى أقيم له «بنادى الوحدة المغربية» بعد وفاته . نناقش مدى تأثير النمط الإسبانى فى المعيشة الحميمة لسكان مدينتنا البيضاء ومبانيها. ونجعل وجهات نظرينا تتضارب حول الاستعمار والاستعمار الجديد. حتى إذا مللنا الخوض فى الموضوعات الجدية ورغبنا فى شىء من المزاح أعدنا للمرة الألف استعراض أعلام المدينة من البوهيميين والطفيليين وذوى الحرف. ازرع كون . السى مفضل . علال شوبيرا. المحزق.. كبور. القزم مسعود صاحب «احطك احطك بالك النكاس». وأستدعى عبدالكريم إلى التفكير معى:

« – طالما تساءلت عن الكيفية التى يتم الانتقال بها من الوعى إلى الخبل. السى مفضل قدم من البادية قوى البنية، واشتغل بالبناء وحمل الحجارة فى «سمسة» واستقر مع العائلة فى «العيون» ثم أتى من الأفعال ما جعل أمه تسخط عليه.. وفجأة حصلت الجذبة ثم التيه فى دروب البوهيمية».

ويرد عبدالكريم فى ثقة:

«– من الواضح أن الانتقال لم يتم فجأة وإنما بتدرج وعلى مراحل . أنت تعلم أفضل منى أن ذلك حدث حتى مع ازرع كوّن الذى بدأ الصغار ينادونه بيغوطى حينما اشتغل حلاقا مع إسبانى فى باريو مالقة وهناك حصل له مثلما يحصل له فى البلد.. الأطفال المردة يؤذونه ويلمزونه ويقفلون عليه فى عنف مصراعى باب الحانوت.. وتطور لقب بيغوطى إلى ازرع كون.. ثم انضاف إلى قائمة المنادين الكبار أنفسهم بمن فيهم صاحب المنصب الإدارى المحترم والعالم والأفاق فحاصرته الإذاية أينما انتقل.. من النقيبة إلى الباريو.. ومن الباريو إلى النقيبة».

وأتابع فى حسرة:

« – لكن جاذبية ازرع كون ما كان لها أن تؤذى بتلك الصورة الدنيئة. الرجل الفقير المحتاج ذو النظرة المتأففة الأنوف كأنها نظرة النبلاء يتباهى بخيلاء لويس الرابع عشر وهو معدم ثم يأتى صبى مشاكس أو رجل عنيف معقد فيلمزه فى جفوة غير مسئولة..».

« – حقا .. إن جاذبية ازرع كون تحتاج إلى أناقة رفيعة المستوى فى السخرية والمزاح.. إنه نديم من الصنف العالى..».

ثم أكمل ضاحكا:

«– وإلاّ كان مصيرك العظمة يرميها لك الرجل كأنك كلب وهو يقول لك بعينيه الصغيرتين: هذا ما تساوى عندى .!!».

حان موعد الخروج فاضطرب شريط الصور الشجية. كانت رقية وهنية قد سبقتانا بقفة العشاء إلى دار الجنازة «بالمحنش» ثم عادت هنية وحدها لتظل فى صحبة محمود ونعيمة. ركبنا سيارة ابنى كمال أنا وفاطمة وزوجها. وتسللت ابنتى إلى سرادق النساء والتحقت بأمها وقعدنا نحن مع القاعدين . وضم مجلس الرجال إلى جانب أخوى محمد وعبدالصمد وابنه إبراهيم وابنى كمال وزوج ابنتى فاطمة أولاد عبدالكريم وأصهاره وعددا من أقربائه وجماعة من المعلمين والأساتذة والمفتشين والمحامين وموظفي الإدارات جاء بعضهم من مكناس. أما نجيب فقد كان الغائب الأبدى.

ورتُل القرآن وقرئت الأدعية. ثم مدت موائد الطعام ووزعت كؤوس الشاى، وأحرقت البخور وتبودلت الأحاديث بنبرة عالية. بل كانت هناك ابتسامات وثغور مفترة. وبدا لى كأن قوى عاتية تتساند فيما بينها من أجل أن تجتث من ذاكرتى صور عبدالكريم اجتثاثا ستتبعه حتما بمحو أبدى. وتجلت لى القاعة الفسيحة بزرابيها ورخامها وأروقتها وابتساماتها كتلة من التفاهات المؤلمة فتمتمت بأسى:

«- لا ذكرى صادقة من دون خلوة..»

وضغطت على أسنانى كأنى أوطّد الذات بعناد كى أظل محتفظا بمعالم الرسم متلألئة فى الأعماق . كأن لا طاقة للموت على الفصل فيما بيننا.

كان وداع عائلة عبدالكريم قاسيا على القلب خاصة أرملته حليمة التى بكت حتى احمرت مآقيها. قلت وأنا أجهش فى ليلة بهتت أنوارها:

« - لا تنسى أبدا أننا سندك بعد المرحوم..».

وحوالى الحادية عشرة ليلا غادرنا دار عبدالكريم. وحاولت رقية ما أمكنتها المحاولة أن تعيدنى إلى الدنيا. أوقدت المصابيح وانتقت أنسب الكلمات وتفادت المنغصات. لكننى أحسست فى تلك الليلة بأننى عجوز يتيم.

طوينا صفحة الطلب بعد تخرجنا فى «مدرسة المعلمين» فعينت معلما ابتدائيا بمدينة شفشاون بينما عين عبدالكريم بمكناس. واضطررنا إلى الافتراق لأول مرة منذ عهد الكتاب. وحدست أن الغربة ستكون عاملا حاسما فى توجيه مصيرينا وفى جعلنا نختلف اختلافا حقيقيا. وذلك ما حصل . فبينما انغمست بعد التخرج فى أجواء التعليم الابتدائى وواجباته بما فيها الخوف من المدير والمفتش ودفنت طموحى الصغير فى نشوة تلقين البراعم ومطالعة الصحافة المشرقية المصورة وغير المصورة، وتلبية دعوات الولائم والخطوبات والمآتم والعقيقة، والانتقال اليومى بين شفشاون وتطوان، نجح عبدالكريم فى البكالوريا الحرة واستغل قربه من فاس وتابع دراسته فى كليتها وحصل على الإجازة فى الأدب العربى ورقى أستاذا للسلك الثانى بالثانوى وفضل الاستقرار بمكناس التى لم يفارقها بصفة نهائية إلى تطوان إلا قبل تقاعده بثلاث سنوات. وخلال لقاءاتنا أيام العطل كان لا يفتر على تشجيعى حتى أهيىء البكالوريا وألتحق بالكلية طالبا حرا مثلما فعل فكنت أجيبه بما يشبه المزاح:

«- الرياح الشرقية ومقاعد الكازينو الوثيرة تجعل من النقيبة وليس فاس قرة عينى» ثم يردف:

«- إنك لا تجرأ حتى على الانتقال إلى فاس فبالأحرى أن تفكر بإعداد البكالوريا فى المشرق. تتكلم عن القاهرة وبغداد ودمشق ونابلس ودار العلوم وكلية الآداب المصرية كأنها واقعة عند منعطف درب النقيبة. تلك أضغاث أحلام ليس إلا. ويرحم الله من قال: عذّب بدنك وأنت فتى قبل أن تعجز عن تعذيبه وأنت طاعن فى السن».

وبالفعل كنت أتلذذ بالأحلام الدافئة وأتذكر بإعجاب سحرى هؤلاء الشبان

المغاربة الذين سافروا إلى المشرق مشيا على الأقدام أو بالأوتوسطوب خلال الحماية قصد استكمال الدراسة. غير أننى حاولت تعويض آفة التقاعس بالانكباب الميسور على مطالعة المجلات والصحف المشرقية كالكواكب والمصور والأهرام ومنبر الإسلام ومؤلفات الرافعى وطه حسين والعقاد وسيد قطب والمنفلوطى، أشتريها من «مكتبة الناصر» أو من عند بائعى الكتب القديمة، حنانة «بشارع محمد الطريس» أو مورينو «بالملاّح» أبدأ قراءتها فى الكازينو ومقاهى «الفدان» قبل أن ألتهمها فى درب النقيبة» الغميس أو أحملها معى إلى شفشاون الوديعة.

- ١١ -

لم تنقطع بينى وبين كريمو المراسلة ولا اللقاءات. بيد أن الهوة لم تفتر عن الاتساع. وفى أثناء وجودنا بتطوان كنا نتردد على شقة بنعيسى وهو طالب فى الحقوق، أو نستمتع «بمرتين» فى العصارى الصحوة فأتناسى بذلك الشرخ الذى يزداد غورا فى الخفاء. نتجادل ونختلف ونذم الدنيا، وأشكو له برومانسية غير مسئولة هيامى بعايدة بنت عبدالحميد شداد وسهادى من أجلها. أقرأ له رسائلى لها وقد تأججت عشقا وعذابا. ويبتسم الصويرى ولا يسخر وإنما يتقمص هيئة الشاب الوقور القادر على التحكم فى انفعالاته وأقواله. لكننى كنت متيقنا بأن أسفاره وانفتاحه على الجامعة واشتغاله بالثانوى عوالم زادته نضجا وابتعادا عن أحلامى الصبيانية. قال عبدالكريم برزانة متقنة الصنع:

«- لنوفر المال ونغامر برحلة إلى مصر ونبحث عن عايدة فى كل سرايات القاهرة. ذاك أمر غير مستحيل . ولكن هل تعرف عنوانها الجديد؟!».

وفى أجواء السحر الكاذب الذى يفعمنا أجبت بانتشاء:

«- آخر أخبارى عنها أنها غادرت مصر إلى فرنسا.. ولكن كمال عبدالجواد لايزال على قيد الحياة وهو يعرف حتما مقر إقامتها..».

وتساءل عبدالكريم:

«- إذن ما العائق الذى يحول دون اجتماعك بشطرك الثانى؟!».

«- أنت تعلم أن عايدة متزوجة، وربما كانت ذات عيال..».

«- ولو . فسرقة الزوجات أو تبادلهن عن طيب خاطر غدا من العادات المعمول بها فى الأوساط الثرية فى الوقت الحاضر.. خصوصا فى أوربا..».

وأطرقت قليلا ثم بادرت إلى فتح طريق للخروج من الورطة :

- « صحيح أن الوالد يرحمه الله ترك عقارات وعرصات .. ومع ذلك لست ثريا إلى درجة أستطيع ضمان الرفاهية اليومية لعايدة خريجة الميردى دييه وبنت صديق الخديوى .. كباريهات وسهرات وعطور باريس وفساتين كريستيان ديور .. بالتأكيد إننى لن أقدر على مسايرتها .. ».

وتحمس عبدالكريم لمتابعة اللعب بالكلام :

- « هناك وصفات جاهزة تستطيع اليوم أن تزيد فى ثرائك قبل أن يرتد إليك طرفك . هل تريدنى أن أدلك على بعض منها ؟» .

- « أنت تعرف أنى من أصلاء القعدة .. لا أقدر حتى على تحريك البيضة فى الطاس ..».

آنذاك لم يتمكن الصويرى من كبح جماح سخريته فتخلى عن تمثيل دور الرجل الرصين وخاطبنى بما يشبه الحدة :

- « إذن التو فى صوفتك قانعا بأحلامك الطوباوية ولا ترحل فى طلب عايدة إلا بخيالك البليل ..» .

وتعيدنى كلمات كريمو القاسية إلى واقع الرطوبة فأرتبك وتجثو على صدرى

سحب العصر الكثيفة . ثم أتهيأ فى ضيق لتكرار لعبة الجرح والتعديل التى نكررها للمرة الألف .

كانت رقية تعلم أنى منصرف إلى مطاردة ذكريات عبدالكريم بين تلافيف الظلام فلم تقطعها بالحركة أو الكلام ، وإنما قدرت حرمة الكآبة التى كنت سادرا فيها فكتمت أنفاسها وتركتنى أنعم بشجى الاسترجاع .

– ١٢ –

ذات أمسية ناعمة ونحن فى مقهى غطيس «بمرتين» أخبرنى عبدالكريم أنه قد تعرف فى فاس إلى فتاة تدرس بكلية الجقوق وأنهما اتفقا على الزواج . أصلها من أولاد تايمة ناحية أكادير . اسمها حليمة ، ذات جمال سوسى وأبوها صاحب ضيعات برتقال ، تشتغل الآن محامية تحت التدريب . أطلعنى على الخبر مدركا أن القرار سيؤثر فى علاقتنا لا محالة . كانت صداقتنا تتجاذبها موجات المد والجزر منذ عهد الكتاب إلا أنها لم تخل أبدا من صراحة . نناقش أدق تفاصيل واعترافات الحب والمغامرات الجنسية المسروقة ، ونفصح بكل حرية عن مواقفنا من الوالدين والمصير وأحوال النظافة المتدهورة فى المدينة . كنت أمثل رغما عن نفسى دور الصديق الذى يحلو له أن يهيمن على محاوريه بالتعالم وادعاء المعرفة الشمولية واستعراض معلومات المنجد والانتساب إلى أسرة ذات ماض تليد . بينما أعرف أن كريمو يعلم علم اليقين مدى ضعفي وطبيعتى الصامتة وعدم قدرتى على المضى بعيدا فى كل السبل . بيد أنه كان يجد لذة غريبة لا أدرى كنهها فى التواطؤ معى والسكوت فى غالب الأحيان عن مبالغاتى . فى حين كنت أراه مشاكسا لعديد من رواد الكازينو مستهزئا بهم إلى حد الوقاحة ، أو متحدثا مثلهم بحماس عن كرة القدم وسمك الشطون والكمبرى والسالمونيطى ، يناقش بالصراخ ولا يتوانى عن ترداد :

- « هذا زمن اقتناص الفرص وإلا هزك الماء .. ».

لقد كان يكبرني بمئات السنين نضجا وتمكنا .

وباركت خطوته الجريئة التى أثرت بصورة حاسمة في علاقتنا . فقد قلت بعدها فرص اللقيا فى أيام العطل ، خصوصا فى الشهور الأولى من زواجه . وإزاء حالة الفراغ الجديدة ازددت انغماسا فى غرامياتى الخيالية ، واشتد تعلقى بنجمات الأفلام وبطلات الروايات والقصص باحثا فيها عن صورة مجسمة لعايدة بنت آل شداد . فتنت بغادة الكاميليا والممثلة الاسبانية ماريصول ، والفرنسية كاترين دى نوف . قضيت كثيرا من أمسياتى فى «سينما المنصور» القاعة المخصصة لعرض الأفلام العربية، باكيا مع عبدالحليم حافظ وفريد الأطرش ومحمد عبدالوهاب . غير أن المرأة التى نخرت كيانى وأوصلنى حبها إلى حد الهوس كانت بنت شداد التى صغت لها فى مخيلتي ألف صورة وصورة ، ونقشت اسمها فى دفاترى وفى أوراق التحضير المدرسى . حلمت بها صباح مساء ، وشخصتها امرأة حقيقية ناعمة ترافقنى فى حافلة شفشاون البطيئة وفى خلواتى الليلية أبثها احباطى وبؤس تناقضاتى النفسية وقيود المجاملات التى تدمينى ، وأستمتع بشعرها العميق السواد المقصوص «ألا جرسون» المسترسل على الجبين كأسنان المشط ، وبعطورها وحمرة فولارها وأناقة فساتينها السنجابية القصيرة أو الكامونية عوض متع تطوان الميسورة التى يفترض أن ينعم بها شاب مثلى يقترب من الثلاثين .

كان رد فعلى على تمسك كريمو بمكناس التقوقع الكلي على النفس والتعلق العذرى بالمرأة . وذات جمعة بعد كسكس الغداء وصل بى الهيام إلى درجة أنى فاتحت أمى فى موضوع الزواج من عايدة ، فابتهجت العجوز للخبر وسألت :

- « ومن تكون عايدة .... ؟» .

- « فاتنة مصرية حلوة وثرية ... لكن المصيبة أنها متزوجة !» .

وامتقع وجه أمي من جراء خيبة الأمل . فلم تتحمس للمزيد . وتأكدت من أنى مازلت ضحية نوباتى الشاذة . وسمعتها تتمتم فى حسرة :

- « مصرية مرمية فى أقاصى الدنيا .. ومتزوجة .. وأكيد أنها ذات أولاد .. الهبل ..» .

ولكى لا تحاصرنى أمي بدائرة الإحباط من كل الجهات أضافت :

- « ومتى ستأذن لى بأن أقطف لك زهرة من المطمر؟» .

أجبت بادعاء متبجح لم أدر مدى فراغه إلا في شيخوختي :

- « عشقى في عايدة بنت آل شداد المصونة فى العباسية وليس فى سواها من النساء ..» .

وانتفضت أمي واقفة :

- « لن أفاتح أحدا بهذه الحماقات ، وإلا أصبحنا أضحوكة ..» .

- ١٣ -

ضرب زواج عبدالكريم صداقتنا ضربة قاصمة . تسرب الفتور بيننا وأضحى الرجل يتمادى فى التجريح ولا يتوقف عند الحد المعلوم كما عهدته دائما . والحقيقة أننا لم نعد منذ زواجه اثنين متلازمين بل أصبحنا ثلاثة ؛ أنا وهو وزوجته حليمة التى أملت عليه أنماطا جديدة من السلوك والأفكار ووجهته وجهة مغايرة لما كنا نحلم به معا . تبخر الأمل فى السفر إلى المشرق ولم يعد الولع بالأحلام النسائية والرحلات الخيالية لعبته المفضلة . لكن مع كل هذه التحولات لم أتنصل من صداقتنا . وعلى إثر مشادة بينى وبين مدير مدرستى اختليت ذات أمسية فى «عين بوعنان» وتدبرت المستجدات التى طرأت على عواطفى وعلى المدينة والحياة

كلها . استرجعت ذاكرتي بإنكار مشلول حالات من انحدار القيم والتغيرات الخطيرة فى سلوك حتى أقرب المقربين ، وانتهيت إلى صعوبة أن أبدأ من الصفر تجربة البحث عن قرين جديد . فعبدالكريم مهما تبدل سيظل من أكثر الناس فهما لمزاجي واطلاعا على تاريخي النفسى ، ولن يجاوزه فى ذلك أخواى ولا بنعيسى ولا حتى رضا أستاذ الكازينو والقيلولة كما نلقبه . بل إن الأمر وصل بى إلى التشكيك فى التغير الذى قد يكون طرأ على عبدالكريم . وتمتمت :

– « ربما يخيل إلى ذلك .. أو أكون أنا الذى تغيرت من غير أن أفطن .. »

فى تلك الفترة الحائرة قررت أن أبدأ كتابة قصتى الثانية بعد فشل «مأساة زبيدة» فى هذه المحاولة الجديدة قصدت إلى رواية قصة شابين جمعتهما الدراسة ونشأت بينهما صداقة حميمة على الرغم من أن أحدهما يسكن وسط «حومة البلد» بدرب «ابن المفتى» والآخر تعود أصوله إلى قرية قريبة من تطوان تعرف بـ «سمسة» . وتشاء المصادفات أن يتعرف الصديقان الحميمان إلى زميلة لهما فى الدراسة ويتعلقان بها ، ثم يتخاصمان حولها . وكتبت ملخصا للقصة وتركته من دون خاتمة . وعندما بدأت التحرير لم أكتب أكثر من ثلاث صفحات فى حين كنت أحلم بعمل طويل ، ولم أنه القصة كما هى العادة ولا اهتديت إلى إيجاد مخرج لورطتها وإنما ضمنت معظم تلك الصفحات وصفا لدرب «ابن المفتى» الضيق الملتوى وتصوير جوانب من الطبيعة الجميلة لـ «سمسة» وربما لذلك عنونتها «من درب ابن المفتى إلى قرية سمسة» .

ولم تصب الصور بالوهن فى حلكة الليل . نامت رقية وانكمشت وتيقنت بأنى سأأرق وحدى حتى الصباح . نسيت الإنهاك وجرى النهار وأسلمت نفسى لوابل من الوخزات . فى البداية تعجبت كيف أمكننى إهمال مشكلة ابننا نجيب من غير أن أبحث لها عن حل مناسب . ثم تأسفت لمعاناة أخى عبدالصمد مع ابنه إبراهيم وتقاعسى المستمر عن اللعب مع حفيدى محمود ونعيمة . ولم أدر كيف أعلل هذا الإهمال وإنما شردت مرغما وراء دفء الماضى الهارب فى شكل صور صامتة

وكئيبة . وألححت في إقناع النفس بوجود العزاء المؤمل في الولية والدرية .
وهمست مغتبطا :

– « أحمد الله على الخطوة التي مشيتها بعد زواج عبدالكريم وإلا كنت سأشيب أعزب» .

والحق أن الفضل الأكبر في ذلك يعود لأمي .

– ١٤ –

كان هلعي مرضيا من وحشة الوحدة بينما العمر يركض . حافظت على ولعي بعايدة مطويا تحت الجوانح في الوقت الذي استسلمت فيه لخطط أمي وخولتها حرية اختيار العروسة . تهيبت من خوض أية مغامرة مجهولة العواقب صبيانية الدوافع فتزوجت من ابنة خالتي في «حسي السويقة» حيث عائلة أمي . وسكنا في الدار المواجهة لدار الوالدين «بنقيبة الجامع الكبير» الموروثة عن أبي رحمه الله . ولم أغادر ذلك المقر على الرغم من عملي في شفشاون ، أسافر في حافلة الصباح وأعود إلى تطوان مساء . واستمر الذهاب والإياب مدة سنتين . في ذلك المنزل أنجبنا أولادنا الثلاثة : كمال وفاطمة ونجيب ، وفيها قضيت أيامي على وتيرة مسالمة لا تكاد تتغير ؛ من الدار إلى المدرسة إلى الكازينو إلى «الفدان»، والمرور اليومي بالأزقة الظليلة ، وملء الرأس بأخبار الولائم والوفيات والترقيات . ولم يقطع هذه الوتيرة سوى موت أمي ومغامرة المباراة التي خضتها بإلحاح شديد من عبدالكريم للالتحاق بالطور الأول من الثانوي أستاذا للغة العربية . وعلى إثر ذلك انتقلت من شفشاون إلى تطوان ، وبقيت في وضعية المعلم الملحق بالثانوي حتى سني هذه وأنا على وشك التقاعد .

وبدت الليلة الأولى طويلة من دون الرفيق الحميم ، وكررت للمرة الألف أن النفس المنكسرة لابد لها من بعض مظاهر العزاء الدنيوى وإلا تلاشت قبل الأوان. وفاه عبدالكريم من تحت قبره بحكمة قد تنير ما تبقى من أيامى :

- « اقبل عشيرك على علاته ، وتعلم كيف تجعل منه سندا مهما تباينت اختياراتكما وعظمت بينكما الفروق ..» .

ومن سوء الحظ أن المرض لم يمهل كريمو طويلا لنستمتع معا بشيخوختنا على أرائك النادى أو فى مقاهى «مرتين» و «الفدان» . فقد قيض الله أن يحيا أسبوعا واحدا بعد إحالته على المعاش . قدم هو والأسرة من مكناس منذ ثلاث سنوات ، وفتحت زوجته مكتبا للمحاماة فى شارع رئيس بالمدينة . استراح رسميا من الوظيف يوم الخميس الماضى وواريناه التراب فى الخميس الموالى . كان اختفاؤه ضربة غير منتظرة خرست حيالها الأسئلة والأجوبة على حد سواء . فغرت الأفواه متدبرة نبأ الأسبوع الواحد بعد التقاعد . وكان ذلك آية إلهية أوحى إلى صوتها بأن دورى ليس ببعيد . فبعد شهرين سأتقاعد .. العمر بيد الله ، بيد أن قرائن الدنيا تجعل ساعة الوداع محتملة فى كل حين . لن يكون سفرا إلى «قصر الشوق » أو «بين القصرين» أو «السكرية» .. وداعا لحلم الفول المدمس والطعمية والمشربيات والمواويل الصعيدية . ستبقى فى النفس حسرة على الأولاد والولية والحفيدين . أما مدينتى الظليلة المفعمة بالألوان والروائح والرياح الشرقية والضباب والبياض والزرقة والزحام والمهاجرين من البوادى والدكاكين الصغيرة والباعة المتجولين فقد تبقى من دون رواية . وفى «المقابر» أبى خنجر الروماتيزم إلا أن يحفر فى الظهر . وفى «المقابر» التوت المعدة وجعا كأنها تنذر بقرب انتهاء مهمتها الطويلة . وفى «باب المقابر» قالت لى آخر غيمة من غيمات العصر الداكنة:

- « ألق سلاحك أيها المحارب الخامل واستسلم للقدر .. ».

قضيت الليلة أرقا مع الأشباح حتى مطلع الفجر . ثم قمت وتوضأت وصليت

وقرأت القرآن . وامتدت نحوى يد لطيفة كما لو تصبو إلى انتشالى من الهوة . وظلت اليد اللطيفة ممدودة قدر ما استغرقنى الوضوء والصلاة والتلاوة . ثم عدت إلى دفء الفراش . وفى الغد لم أذهب إلى الإعدادية .

فى اليوم الثالث رافقنا عائلة عبدالكريم إلى «المقابر » . كنا قلة . وبدرت منى التفاتة إلى «ضريح سيدى على المنظرى» مجدد بناء المدينة . كأنه يذكرنى مرة أخرى بالرسالة الملقاة على عاتقى . وانشغلت عن النداء بالكلام مع الحضور . وترحمنا على الفقيد . قرأنا البردة فى «الزاوية الحراقية» وأدينا واجب التفريق . ثم تشتتنا ليواجه كل منا مصيره المحتوم . وتركت رقية تنعطف نحو «المارستان» ومشيت وحدى . وفى «زنقة المقدم» زكمت أنفى توابل علوش . وتقدمت خطوات فزكمت أنفى ثانية رائحة الكفتة المشوية على الجمرات فى «مطعم الحسانى» . وتراءت لى صورة الطريق القاهرى العتيق كما رسمته رواية «قصر الشوق» باكتظاظه وزعقه . كم مرة قرأت تلك الصورة ؟ . كم مرة اصطحبت ياسين فى زحامها وهو يطارد زنوبة ؟ . « طريق كالتيه ، لا يكاد يمتد بضعة أمتار طولا حتى ينعطف يمنة أو يسرة، وفى أى موضع منه يطالعك منحنى يطوى وراءه مجهولا ، وضيق ما بين جانبيه يريق عليه تواضعا وألفة فهو كالحيوان الأليف . والجالس فى دكان على يمينه يستطيع أن يصافح الجالس فى دكان على يساره ، سقوف بمظلات الخيش تمتد بين أعالى الحوانيت فتحجب أشعة الشمس المحرقة وتنفث فى الجو الرطيب سمرة حالمة ، وعلى الأرائك والرفوف جوالق مرصوصة بالحناء الخضراء والشطة الحمراء والفلفل الأسود وقوارير الورد والعطر والقراطيس الملونة والموازين الصغيرة ، وتتدلى على الشوارع فى أحجام وألوان شتى كأنها التهاويل ، فى جو مفعم بشذا العطارة والعطر كأنها أنفاس حلم قديم تائه لايذكر متى رآه ، أما الملاءات اللف والبراقع السود والعرائس الذهبية والأعين الكحيلة والأرداف الثقيلة فمنها جميعا أستعيذ بواهب النعم» .

واختلطت الصورة ببقايا الأصداء الجنائزية ، وتصدى لى إغراء عنيد صاح بى فى حدة :

– « خض مغامرتك الأخيرة مع تطوان . حقق إن استطعت حلمك المشرقى القديم واكتب قصة طويلة عن مدينتك العتيقة . بذلك ستفى بذكرى عبدالكريم وستلبى نداء من ماتوا قبله وسيموتون بعده . استثمر الفورة قبل فوات الأوان فأنت لاتعطى إلا فى خضم الفورة . من الميسور أن تنجز المهمة كلها فى أسبوع واحد مادمت ابن المدينة الحافظ لدروبها وهمساتها وألوانها وروائحها . أمامك شهران قبل التقاعد .. ابدأ من الآن .. وإلا سيفضل لك الأسبوع المصيرى الوحيد لتشتغل فيه بحدة تلاحظ وتكتب .. المهم أن الخطوط الكبرى واضحة للغاية .. جمع صور العتاقة فى رواية طويلة .. إن ذلك ممكن .. فكر فى الأمر .. وستكون فرصتك الذهبية لتحدى الموت .. » .

الإعــداد النفســى

- ١٥ -

استمر حلم الرواية يدغدغني، يخبو فترة لكنه لا يغيب. في حين أضحت مسألة التنفيذ إشكالا مؤرقا. وتوالت الأيام في انتظار مشوب بالحذر. شهر ماي انقضى وخاضت بعده الإعدادية معركة الامتحانات. ثم تلاحقت أيام يونيو وأنا لم أتعلم بعد كيف أواجه ما تبقى من ألغاز المصير. وفي أول عهدي بالوظيفة تصورت التقاعد محطة عمرية عابرة، نائية وجوفاء لا تكاد تتميز بأى إحساس أو نكهة، أما اليوم فقد تغير الحال ولم أعد أكابد الأحاسيس وهي تنخر كياني فحسب، وإنما أضحى الكيان نفسه مستقرا أزليا لأسئلة غريبة لم تكن في الحسبان خلال عهد الشباب.

شهر واحد بيني وبين نهاية الخدمة. وثائق التقاعد بعثتها منذ شهور إلى الرباط بإشراف مدير الإعدادية. كان الرجل لطيفا لكن في حذر. منحني خلال الشهرين المتبقيين شبه عطلة انقطعت فيها عن التدريس شرط أن أزور الإعدادية مرة واحدة في كل يوم، أطل ثم أنصرف مخافة أن يستفسر المفتش أو أى مسئول من نيابة التعليم.

ولم تكن الإعدادية كل مصدر همي مثلما لم يثر المال قلقي. المدير لا يخيف ولا تأخر الراتب بعد الإحالة على المعاش. الحالة مستورة ولله الحمد. تكفي عقارات الوالد طيب الله ذكره لأعيش في رخاء مع الولية من دون اعتماد على الأجرة. وإنما ولوج كهف التقاعد هو الذي بعثر في سمائي أشباحا تتراقص أمام ناظري كما تتراقص الأفكار في مخيلة المجنون. تغرس في جلدي أظافرها الشبيهة بحقن طويلة الإبر لتمتص مني رحيق الحياة وترميني كأوراق الخريف اليابسة.

مررت بالإعدادية صباحا، تبادلت حديثا خفيفا مع زمرة من الأساتذة حول نتائج الامتحانات الموحدة. كنا في العشرين من يونيو والمؤسسة ساكنة بعد هول المعركة . ولم أكن قد شاركت في الحراسة كما في سالف عهدي. وخلال الحديث شعرت بالهوة السحيقة تغور بيني وبين الزملاء الذين أسهموا في الامتحانات حراسة وتصحيحا ومداولات.

وضاقت بي الدار بعد الغذاء وفي الكازينو صليت العصر ثم تسمرت أمام التلفاز لمتابعة مباراة كروية وقلت بطمع لذيذ:

«- لأدفن نفسي بين جموع المشاهدين وضجيجهم وأتخلص من الكابوس الجنائزي..» ولكن هيهات ثم تساءلت:

«- من أكون على وجه الدقة؛ الشحاذ عمر الحمزاوي أم المحترم عثمان بيومي؟».

وقال لي الضجيج:

«- بل أنت خليط منهما معجون بطاقة كهربائية.. إنك ماركة غير مسجلة».

وفي خضم الضجيج بحثت عن عبد الكريم. لكن الحاضر الغائب لم يكن إلى يميني ولا إلى يساري . وتمتمت:

«- صورتك منطبعة في شغاف القلب أيها الإلف الوديع. لكن انتظار المجهول صعب للغاية..».

ومن المؤكد أن جمهور القاعة الصغيرة لم يسمع تمتمتي:

«- كول .... كول ....»

دخلنا العشر الأواخر من يونيو، التقاعد سيبدأ رسميا بعد آخر يوم من هذا الشهر؛ مع بداية عطلة الصيف. وكلما اقترب اليوم الأخير زادت حالة الطوارئ الداخلية تأججا. وفكرت بجدية فى مسألة الرواية آملا أن أذيب بها بعضا من سديم المجهول. لابد أن أبدأ من الآن بشحن النفس والاستعداد السيكولوجى. أخطط وأبنى وأهدم، أجول بخيالى فى أزقة المدينة. أستعرض وجوه المعارف والجيران، متى سأكتب؟. أين سأكتب؟. وينتهى بى الحال إلى شرود . لكن سبيل الخيال والشرود مخيف. ثم أنعطف للبحث عن أمل آخر. أطلب صحبة رضا. وأنفر من الجرائد والشطرنج. وأصيخ السمع إلى من لهم طاقة خارقة على الكلام، أصحاب الأصوات الجهورية وهم يتلذذون بأحاديث السمك الطرى والصراع الكروى والأصول العائلية. وذات أمسية وصل إلى أذنى صوت متبجح:

«- اسمح لى أن أقول لك.. فى الزواج لابد من تحرى الأصول..».

ورد عليه صوت معارض:

«- إنما الزواج قسمة ومكتوب....».

ووجدتنى أبحث لنفسى عن موقع بين الأحاديث المغتبطة وأشباح التقاعد. وفى لحظة صغيرة خفت من أن لا يغدو لى موضع فى سجلات أصلاء المدينة، فإذا بحافز تلقائى يحثنى على شحذ الهمة وجعلها تتشبث بما يمكن أن يتشبث به شيخ فى مثل موقفى. ومن حسن الحظ أنى عندما التفت إلى الوراء ألفيتنى منتسبا إلى عائلة عريقة يمنحنى الاستناد إليها قدرا عظيما من العزة بالنفس. وتذكرت تنبيهات رقية واعتبرت كلامها طوق نجاة ترمية لى حتى لا أغرق فى اليم البرانى. كانت الولية ترقب حالى عن كثب فى المدة الأخيرة وتحذرنى من مغبة التفريط فى الأصول:

«– عيب أن يلاحظ الناس تقاعسك عن تقديم التهانى أو العزاء فى الوقت المناسب .. عيب أن تستحيل بين عشية وضحاها إلى وحش.. انس عيوبك وبدل العبسة بوجه الانشراح».

– ١٧ –

فى اليوم الخامس والعشرين لم أمر على الإعدادية خلافا للعادة. كانت أحاديث النادى قد أخذتنى من العاشرة صباحا إلى ما بعد صلاة الظهر. شردت مستمعا أو مشاركا بكلمة وجيزة هنا وأخرى هناك. وفى العصر ذهبت صحبة رضا وبنعيسى إلى تقديم العزاء فى أحد أفراد عائلة الصنهاجى. وانقضى النهار بين الاستماع والاسترخاء والبحلقة . وفى اليوم السادس والعشرين مثلت بين يدى سعادة المدير العام. استقبلنى الرجل فى وجوم وراء مكتبه وأنا واقف كتلميذ صغير فر من المدرسة.

قال من دون أن يبتسم:

«– كان عليك أن تطل ولو لخمس دقائق..!»

لم أخف من التنبيه. وتعجبت كيف هانت على الرجل سنوات العشرة وجعلته يمثل دور المسئول بكل ما فى الكلمة من حزم. كيف أغواه المنصب الإدارى باتخاذ مثل هذا الموقف المتحجر. ولم أصعد الأمر وإنما جنحت إلى المداهنة حتى تمضى الأيام الأخيرة بسلام . قلت محاولا تقمص وجه البشاشة:

«– اطمئن . من الآن فصاعدا ستراني فى كل يوم من الأيام الأربعة المتبقية..»

كان الرجل قد أمضى معظم حياته المهنية يعلم فى البوادى وبعض المدن الصغيرة، ثم رقى إلى مدير إعدادية فى انتظار أن يتقاعد هو الآخر بعد سنوات

معدودة. كائن من العصر الحجرى .. أصلع . ذو لهجة مرتبكة. لا يفسخ ربطة عنقه صيفا وشتاء. والحق أنه لم يثق بى أبدا مثلما لم أثق به طوال مدة اشتغالنا مع بعض. لكنه فى هذا الصباح بعد أن تيقن بعلو مكانته خفف من غلوائه وانتحى بدوره سبيل المهانة:

«- تعلم ياالسى الساحلى أنى لم أطالبك بقضاء ما تبقى من مدة خدمتك بمكتبة المؤسسة. لقد ظللت فى شبه عطلة طوال شهرين...»

«- لكنى كنت مطالبا بإثبات الحضور اليومى كأنى فى الإقامة الجبرية..»

«- حشا الله، بل إن الأمر لم يتجاوز اتخاذ بعض الحيطة. أنت تعرف المفتشين..».

ثم دعانى إلى الجلوس متناسيا جديته المصطنعة. وعدنا إلى سالف تواطئنا حين نلتقى، يحدثنى بجلالة عن الترقيات وتعيينات السنة القادمة والمفتشين ونسب النجاح والإصلاح التربوى، وأحاول جره إلى عموميات أجد فيها راحتى فأحدثه عن المرحوم الذى عزينا فيه بالأمس ، وعن أخبار الكازينو، وعن الازدحام الذى سيعرفه شاطئ «مرتين» فى الصيف . لكنى لا أفتح معه ملف الثقافة قط.

لفظتنى الإعدادية إلى لظى شمس لا ترحم . هاجس الرواية لم يبارحنى خصوصا بعد أن اتسخت أذنى بكلمات الكائن الحجرى. والتفت نحو الأبواب والأشجار والمارة بعينين مستطلعتين. ولم يوح لى كل هؤلاء بإحساس مثير. أو هم نطقوا بمعان متشابكة لم أستطع فك طلاسمها. وتلك مصيبتى الأزلية. واستقرت فى عينى صورة بائع الحلزون منتظرا أمام عربته القذرة فى هذا الوقت القائظ. كان صمته وحركات يديه والتفاتاته فى انتظار بئيس. كل ذلك أكد لى مرة أخرى أن معركتى فى هذه الأيام الفاصلة ليست من أجل جمع المال وإنما العدو الحقيقى أشباح التقاعد وضرورة المثابرة على هزيمتها بكل الطرق المتاحة. حتى فضيحة نجيب وطيش ابن عبد الصمد لم يرعبانى إلى حد الاستسلام، ثمة غبطة الرفاهية

المادية التى أحسد عليها . وثمة دفء الكازينو وألوان التلفاز الزاهية وسند الأولاد والأحفاد والأصهار ... ولكن هناك أيضا الأشباح. أما الرواية فسأفكر فيها بصورة جدية فى أول فرصة تتاح لى.

- ١٨ -

لم يستقر الصراع بين الأشباح وزرقة الصيف على حال . بيد أنه ليس من سجيتى أن أقفل كل نوافذى في وجه الحياة مهما اسودت الأفكار. أما وقد أطل اليوم السابع والعشرون من يونيو فقد غدوت أشعر كأن كائنا خفيا يعمل فى همة لسد كل المنافذ . ولا أشك فى أن معظم المحيطين بى قد استشعروا تحولات مزاجى فى هذه الأيام الحرجة، ولكنهم كانوا يتفادون من المواجهة وتذكيرى بالحقيقة باستثناء بنعيسى قلب الأسد. كان يدرك مكابدتى فى الانتظار فينقض على كالنسر:

«- كيف حال الهدهد؟!».

فأبتسم وأحير جوابا . ثم يردف:

«- تخيل من الأشباح ما شئت .. واستمع إلى الأصوات الداخلية قدر ما استطعت .. فأنت إما أنك تخاف التقاعد أو تتذكر عبدالكريم يرحمه الله. وعلى كل حال كن مطمئنا بأنك لن تموت وحدك.. ومن يدرى فقد أزور الآخرة قبلك رغم أنك تكبرنى سنا، لكن ما يؤسفنى حقا أننا سنموت أنا وأنت من غير أن نظفر بالخلود...»

وضعتنى كلمات بنعيسى فى صميم الخوف السديمى . أنا كائن بشرى لاينجز. أحلم بالثقافة منذ عهد آدم ولا أنجز. أسجل الخواطر فى المناسبات بعد العودة من ليلة زفاف أو تشييع جنازة أو فى بعض أماسى الأعياد . أقرأ كما

يقول بنعيسى «قراءة الاستجمام» . أجد نفسى فى مطالعة الصحف وأعمال نجيب محفوظ ولو بصورة متقطعة . بيد أن الخوف السديمى يبدأ عندما أربط بين الاستمتاع الأصيل بتراث المارد وبين أشباح التقاعد . إنى أتعجب كيف استطاع هذا الأديب أن يجد الوقت الكافى لتسويد كل تلك الأوراق. بل إن عجبى تفاقم بعد أن اطلعت على تفاصيل نجيب محفوظ الشخصية وعرفت قوة صلاته بالوظيفة والناس . أكبرت فيه زواجه المتأخر. لكن مخى الرطب المنكمش فى ظلال الطربوش لم يتمكن من إدراك كل أسرار هذا اللغز البشرى المحير. إنى هدهد حقا . ومع ذلك يجب أن يظل حلم الرواية متقدا . بل يمكن اعتبار كل هذه الأحاسيس المضطرمة استعدادا سيكولوجيا لإنجاز ذلك الحلم.

الثامن والعشرون . أنىّ لى أن أستعد نفسيا ورقية تجلس قبالتى بكل نصاعتها وهدوئها. ترفض الانحشار فى المطبخ لإملاء التعاليم وتقرر استثمار جلسة السكينة. لكنى لم أكن ساكنا . أما هى فراحت تتكلم وهى تقرأ ما يدور فى خلدى من تهويمات صبيانية . رقية تقرأ أفكارى دوما حسب الصورة التى تريد. تجلس على شرفة رأسى كجلسة الساحر الهندى ثم تتسرب إلى مخى لتفتش عما فيه من موضوعات مهترئة تميعها وتدوسها كحشرة ولا تنتقى منها إلا مايحمر الوجه مع الجارات والقريبات.

رشفت ماء النعنع من دون متعة وذهنى يتطلع إلى التيه :

«– لأدعها تعوم فى بحرها الصاخب . بذلك ستنصرف عنى وتتركنى أنصرف إلى المهمة المقدسة ...»

وسطع أمام ناظرى تاريخ الثلاثين يرهب وأنا لم أقتنص بعد الفرصة المواتية للاستحواذ على ما يخامرنى من صور عرجاء . الرواية قالب مناسب لاستيعاب شتات تلك الصور . هى حلم يغازلنى منذ «مدرسة المعلمين»، فهل تراه يتحقق فى مرحلة الشيخوخة حيث الحرية المتوهمة؟. الاستعداد النفسى يوحى إلى بأن الانطلاق فى جمع المادة ثم الكتابة يمكن أن يتم مع بداية التقاعد إن شاء الله . فما المانع إذن من التنفيذ؟.

رفعت عينى إلى رقية وهى تنتقى كلماتها كما ينتقى بائع الذهب الجواهر . نظرت دونما مبالاة إلى التجاعيد الرقيقة وقد بدأت تكتسح خفية وجهها المسبوك. كانت امرأة تنجح إلى حد بعيد فى تمويه الخطوط الصغيرة بمسحوق ناعم تمسح به وجهها بعيدا عن ناظرى، ولكى لا أثير معركة دامعة نقلت بصري سرا نحو ملابسها . سبنية الرأس والكسوة الحريرية تسربل الجسد المقدود والشبشب المستورد من سبتة . كل قطعة من قطع الملابس والأثاث منتقاة من قبل رقية بذوق رفيع كلفنى مالا وفيرا ووقتا عزيزا . الولية تأبى إلا أن تشركنى فى العناية بالتفاصيل وتلح فى أن أصطحبها فى عمليات المساومة والاختيار والشراء والوقوف الأبدى أمام دكاكين «باب النوادر» بل وحتى السفر إلى سبتة والجزيرة الخضراء وجبل طارق.

وغاظتنى فى هذا اليوم شدة الأناقة والترتيب الصارم للمتارب، والزربية القانية والمرآة الكبيرة والكؤوس المذهبة وأوانى القشانى المنضدة داخل الفيترينا تنضيدا أثريا محكما لكنه مؤلم . تخيلت الأثاث جمادات مجرمة سرقت إلى الأبد وقتى الثمين . وبرأت نفسى من علة العجز الأدبى وأرجعتها إلى رقية التى تلزمنى بما لايلزم وتذكرنى صباح مساء بالأصول و«الصواب» . فى المأتم يجب أن أعزي فى اليوم الأول للوفاة وأمشى فى موكب الجنازة وأحضر التفريق فى اليوم الثالث أو الخامس فى المقابر و«الزاوية الحراقية» وأكون موجودا فى الذكرى الأربعينية. وفى حال زواج قريب جار نتجند للحدث منذ قراءة الفاتحة إلى نهاية ليلة الدخلة. وكانت رقية تمارس معى سحرها الجذاب فتأكل مخى فى يسر بكلماتها المعسولة الهادئة:

«– حشومة علينا ألا نهنىء ولد الشرفا فى عقيقة ابنه...».

فأرد عليها وأنا منهزم منذ البداية :

«– لم ننس يوما أداء الواجب تجاه كل أفراح ولد الشرفا وأتراحه .. فهل ستفنى الدنيا لو لم نقم بذلك مرة واحدة؟».

هكذا جعلتني أسوف لشهور بل لأعوام الكتابة عن بائعي الملابس والأدوات البالية في «الغرسة الكبيرة» و«العيون».

والتقطت أذني من نهر الكلام اسم جارة لنا «بالنقيبة» فانتفضت واقفا أطلب الخلاص. وتركت الموضوعات يتيمة في فم رقية . ومع ذلك سألتني بأعصاب باردة:

« - إلى الكازينو آسي أحمد؟».

أجبت آليا :

« - إلى الكازينو أللارقية».

كانت بي رغبة عارمة في ملء عيني بتفاصيل الدنيا. «عليكم بتصوير فقراء باب المقابر».

«اذهبوا إلى حلقات السحرة والمشعوذين في الفدان وسجلوا كل ما تسمعون». «لا تنسوا اليتامى والأرامل في الوسعة». تلك نصائح أستاذنا المغربي في «مدرسة المعلمين» جعلني صداها أتلكأ في مشيتي وأتوقف عند دكاكين الألبان والمواد الغذائية ومتاجر الملابس وحوانيت الذهب كأنني أتوخى تنفيذ النصيحة بأكبر قدر ممكن من الدقة. أتفرس في الوجوه بدهشة طفل فأجدها طافحة بالأسرار والمطامح وهموم الدنيا الدنية فتغمرني بطوفان سماتها الهائل كما غمر البحر فرعون وجنده.

مررت بالإعدادية كما أمر سعادة المدير العام. وفي الكازينو استلقيت على الكنبة طائرا هدهدا كما يصفني بنعيسي . وأعترف أن منظر لاعبي الشطرنج أغراني بقوة . وعند أول نداء اتخذت مقعدي أمام اللاعبين وعلى شفتي ابتسامة لايعرف طبيعتها إلا الله . وتهت بين نقلات البيادق كأنني سأعثر فيما بينها على التفاصيل الغائبة أو لعلني أود الهروب من موجها القاهر.

فى اليوم التاسع والعشرين تخايل من جديد شبح الأسبوع الواحد وبث فى الكيان هلع الفتنة. ويبدو أنى لم أتعظ بأن الموت لم يمهل عبدالكريم سوى أيام سبعة بعد تقاعده . إنى مازلت عبدا لرذيلة التأجيل التى وسمت كل حياتى . فهل سيكفى عمليا أسبوع يتيم لأداء المهمة التى ألزمت بها النفس سرا؟.

عندما اطمأننت إلى صعود رقية إلى سطح الدار اتجهت نحو مرآة غرفة الضيوف العريضة. التفت يمينا ويسارا وكورت قبضة يمناى وخاطبت فى تشنج وجهى المرعوب:

«- لم يبق وقت للتسويف يا بن النقيبة .. لم يبق من العمر قدر ما فات . كن عدوا لدودا للتأجيل . أصخ السمع إلى بعض ما يميزك عن إخوتك وأقرانك وزملائك من لاعبى الشطرنج. صف حسابك مع رطوبة دروب تطوان وازدحام ساحاتها وتقلبات رياحها كما صفى محمد الصباغ حسابه معها بشاعريته الرشيقة...».

كذلك بدأ الاستعداد النفسى. وبعد الغذاء عزمت على معاندة الولية لعلنى أقدر على استخلاص بعض الوقت أخصصه لحلمى السامى . وأقبلت هنية بصينية الشاى، وأخبرتنى رقية بدعوة عبدالصمد إلى الغذاء معه يوم الجمعة القادم ، ثم أردفت فى تشفى خفى :

«- سمعت فاطمة من إحدى جارات عبد الصمد أنها ضبطت إبراهيم مخمورا قرب كورنيش الشلال . كان الفتى يضحك فى جنون وهو متكىء على سور الكورنيش صحبة رفاق له . وربما كان عبدالصمد على علم بذلك مادامت الجارة قد التقطت فى المدة الأخيرة لغط شجار بين الأب وابنه صادر من الجدار المشترك. عبدالصمد وزوجته لا يبوحان بمثل هذه الأمور كعادتهما ، لكنها أشياء لاتخفى على أحد...».

كان عبدالصمد يرغب فى أن يرسل إبراهيم إلى إسبانيا لدراسة الطب وألح الأب فى رغبته لكن الفتى مانع وفضل البقاء فى تطوان لسبب لايعرفه إلا هو وترددت أقاويل وافتراءات. في حين كان إبراهيم وسيظل فتى غامضا . ولعنت نفسي لأنى لم ألعن الجارة وفاطمة اللتين كانتا تودان فى العمق خدش سمعة أخي. كظمت الغيظ مخافة أن أثير زوبعة، إلا أن رقية لم تفلح فى اجتذابى إلى حديث الغيبة لأنى كنت منصرفا إلى التفكير فى هاجس الأسبوع المصيرى وأخذه مأخذ الجد . وعندما حدست المرأة احتمال غضبى هيأت لي ظروف الاسترخاء فى قيلولة لذيذة حتى العصر . وأفقت بثقل فى معدتي وبدا لى كأن العزم الذى وطدته بعد الغذاء أخذ يفتر. وطار ذهنى خارج الدار طالبا النجدة . ولم يكن ثمة أفضل من بنعيسى . وقد سبق أن بحت له فى نوع من الصبيانية برغبتى فى الكتابة فلم يتحمس لذلك كثيرا . كنت أعمل دوما بحديث رسول الله «استعينوا على آموركم بالكتمان» . ومع ذلك قررت إشراكه فى هذه التجربة الشخصية وهو البدوى ابن البدوى الذى انفتح على قضايا الثقافة من دون عقد ولاتحفظات . كانت جرأته سبيلا يمكن الإفادة منه رغم أشواكه وحفره.

— ٢٠ —

فى صباح اليوم الأخير من يونيو غادرت الفراش قبيل الفجر . صليت وقرأت القرآن فى غرفتى العليا وعشت على أحر من الجمر انصرام الدقائق . لم أفطر رغم إلحاح رقية. وقصدت الإعدادية يتنازعنى شعور حائر بين التلكؤ والخفة. خفة كتلك التى دغدغتنى فى أول يوم من أيام عملى حينما هللت على مدير المدرسة الابتدائية بشفشاون باشاً كالقمر، بشعرى المسرح اللامع، وربطة عنقى المتقنة، وبدلتى الرومية وقد كوتها أمى . كنا فى بداية أكتوبر وبرودة المدينة الشاعرية تستثير فى النفس متعة الأمر الجديد، إلا أن نزق اللحظة التاريخية جعلنى

أستشعر كأننا فى عنفوان فصل الربيع. خفة لن أنساها مهما حييت ، لم تكن مصحوبة بالتلكؤ كما هى فى هذا الصباح.

فى الإدارة وقعت بيد متشنجة محضر الخروج بل محضر المغادرة الأبدية . واقتضت المجاملة من المدير والسكريتارية والأساتذة والمعيدين ألا يسلموا على السلام الأخير بدعوى أننى سأعود حتما إلى الإعدادية لتفقد بعض مصالحى . ولم أنس السلام على عايشة المنظفة وعلى الحوزى عون التنفيذ ومعد كؤوس الشاى فى أوقات الاستراحة.

وتماسكت وأنا أتبادل كلمات متقطعة مع زملاء الخدمة . ومضت الابتسامات المصطنعة فى اتجاهات شتى . وقلت فى حشرجة:

«– سنلتقى لامحالة فى شارع محمد الخامس أو فى النادى . تطوان مدينة ضيقة..» .

وارتجل الإخوان كلاما متحمسا ومرتبكا متفادين من الإشارة إلي وضعى الفريد فى هذا اليوم المشهود بعد أربعين سنة من الخدمة . وتناثرت فوق ارتجالاتهم كلماتى المنكسرة كالأنين. كلمات تصارعت مع ابتسامة معذبة كابدت لأرسمها على شفتى:

«– وكيف لى أن أنسى شاي الحوزي؟.. لابد أن آتي لشربه بين الحين والحين..».

وخاطبنى المدير بمواساة مفضوحة:

«– أنا على يقين بأن صلاتنا ستستمر . كأن شيئا لم يحدث . كأن الزمن هو هو . التقاعد ورقة إدارية ليس إلا...».

وقلت :

«– على كل حال الدار دارى ، وأنىّ للمرء أن ينسى أحبابه..».

ثم كررت التحية من جديد وأوليت البناية ظهرى وفى نفسي شيء غير يسير من الحسرة . فقد وددت لو كان ثمة حفل وداع وخطب وقدر من مظاهر البهجة مثلما يحصل فى بعض المؤسسات التعليمية أو حتى فى المسلسلات وأفلام السينما . لكن جفاف اللحظة كان قاسيا وعاقاً.

- ٢١ -

فى ساعة الغذاء وجدت رقية تنتظرنى وقد سطع فى وجهها ضوء الصيف . وبدت لى المرأة أشد نصاعة ونظافة من أى وقت مضى وأكثر اتساقا فى ملابسها وحركاتها على الرغم من آثار السنين الزاحفة إلى محياها وأطرافها . كانت المائدة مهيأة وأصداء أغنية «يابنت بلادى» لعبد الصادق شقارة تصدر من البرطل فتؤنس الأرجاء فى نعومة أنثوية. وتناولت بأناة السلاطة والسمك المشوى. واستفسرتنى رقية عن الإعدادية والمدير والأوراق ولحظة الوداع . التقطت المرأة بعض أجوبتى المتقطعة واستخلصت بعضها الآخر من خلال النظر فى عينى . ثم جرتنى مجددا إلى موعد الجمعة القادم وانتقت من أخبار فاطمة وكمال والحفيدين مالا يمكن أن ينغص . غضت الطرف عن نجيب. وحدثتنى عن تبييض دارنا «بمرتين» وشرعت تملى على قائمة الأوانى والأدوات الضرورية خلال شهور الصيف.

لم آكل بشهية رغم تعدد أطباق المائدة . تلك خطة مدروسة من قبل رقية فى هذا اليوم الأغر . إنها لاتقصر فى إضفاء البهجة على كل شيء فيما أنا مشغول بالبحث البليد عن كنه المصير وحقيقة المدينة العتيقة وحبذت فى قرارة نفسي تصرف رقية واعتبرته رصيدا إيجابيا يحسب لى . إنه الآن ملك يدى . ثم لابأس فى أن أطمع بعد ذلك فى المزيد خارج جدران الدار.

خرجت مباشرة بعد الغذاء على غير عادتى وعيون رقية لاتنقطع عن شحنى بالحماس والأنوثة المفعمة نضجا.

فى الكازينو لم أجد أثرا للأستاذ رضا ولا لبنعيسى عكس ما توقعت. وحتى القاعة الكبيرة نفسها كانت شبه فارغة يسودها جو ثخين من السبات فى تلك اللحظة من النهار القائظ. كنت لا أعرف على وجه التحديد كيف سأقضى ساعاتى القادمة. لكن المهم هو الفرار من شبح الوحشة التى قد تباغتنى فى أية لحظة . واستلقيت على مقعد طويل فى إغفاءة. أحدق فى الفراغ وأغوص فى كتلة الزمن الكبيس . ثم بدأ الإحساس الجنائزى ينث فى عروقى إيحاءات الإحباط ويقفل فى وجهى فجوات البهجة المطلوبة. بل إن هذا الإحساس راح يستثير ألم المعدة ويوحى إلى بعدم القدرة على تحريك القدمين.

وفكرت فى العودة إلى «النقيبة» لأختلى فى غرفتى لولا توجسى من أن رقية قد تستغرب منى العودة المبكرة فتخبو جذوتها المتقدة. وشجعنى المكان المستكين على خلع الحذائين وتجميع القدمين فوق الكنبة العريضة والانكماش فيها. كانت طاولة الشطرنج فارغة قبالتى مثل ميناء بحرى مهجور فى عز الشتاء. وأراد النوم الثقيل أن يراودنى فعاندته كى لا أبطل الوضوء. ومكثت محشوراً فى جلبابى مشرع العينين نائماً صاحياً كأرنب حذر. ونبهنى الأذان فجربت تحريك القدمين وكان بهما خدر من فرط الانكماش. ثم قمت أترنح وصليت العصر مع قلة من أعضاء النادى.

وقفز إلى الخاطر اسم بنعيسى فتهاديت إلى مكتبه. وجدت الرجل رائق المزاج فحفزنى ذلك على ممارسة نوع من الانتهازية. اهتبلت الفرصة وأنا أحلم بالتحرر من شرنقة الذات المدفونة فى «المطمر». وقلت:

- أنوع الرجوع إلى مشروع الرواية الأزلي. وأتصور أن الفراغ الهائل الذى ينتظرنى يغرينى بذلك..».

أجاب بنعيسى بجرأته الجبلية المتدفقة كشلالات نياغرا:

«- ها هو التطوانى ابن أمه يخطط للمستقبل مثلما يخطط تلميذ ناجح فى نهاية موسمه المدرسى. أليس من الأليق أن تتريث لترى كيف ستتكيف مع أيام التقاعد المقبلة ثم تقرر بعد ذلك..؟».

قلت دونما تفكير كبير:

«- لابد للحديد أن يدق فى سخونته إنى أستشعر حماسا صادقا فى هذه الفترة لكتابة قصة طويلة..».

وتملى بنعيسى هنيهة دخان سيجارته المتصاعد ثم أردف:

«- الرواية لا تترجم دسامة الفكر مثل المقال والكتاب العلمى.. خذ العبرة من حكماء القانون الذين لم يفكروا فى الروايات والخيال البعيد عن الحقيقة».

وشبكت يدى وفركتهما وأجبت فى نكران كلى للذات:

«- لا أدعى أنى فى مستوى هؤلاء، وإنما أقصى غاياتى أن أكتب رواية عن مدينتنا».

«- اسمع يا ولد البلد إن رأسك لا يحوى سوى صور وخواطر مشتتة ضيقة الآفاق ضيق دروب المطمر، فكيف عساك أن تجمع وترقع وتصوغ وتركب..؟».

«- أنا لا أعرف بالضبط ما أريد التعبير عنه ولا كيف، لكنى أواجه فى هذا النهار بالذات تحديا مصيريا غامضا إما أن أنتصر عليه أو يقهرنى..».

ورد بنعيسى آليا:

«- الكل يعرف أنك تنتمى إلى جيل من رجال التعليم القدامى ذوى التكوين الجيد، ولولا انكماشك على ذاتك كالقنفذ لكان من المؤكد أن يكون لك منصب أكبر

من مجرد أستاذ للإعدادي.. أنا لا أقصد هذا الجانب المعني.. إنما دروب تطوان في حاجة إلى مخ جبار ليحسن التسلل إلى المستور ويعرى الأسرار المعقدة. آه لو كان العمر قد طال بالمرحوم التهامي الوزاني..».

قلت هازئاً:

«- ونحن.. ألسنا قد المقام؟».

واتخذ بنعيسى سمت الوقار وقال وهو يحك في نزق شاربه الكثّ:

«- أقصد أن المهمة ليست سهلة، فأن تستنجد الخيال وتكتب رواية يعنى أن تكون لديك تجارب عريضة في الحياة، وتكون قد تمرست بالحلو والمر وتدنست بالموبقات وانفتحت على الناس وعاشرت أخيارهم وأشرارهم. إن دودة القز لن تعطيك حريرا إن لم تهيىء لها شروط الإنتاج وتوفر لها أوراق التوت. أما أنت -واعذرني على صراحتي- فلست سوى هدهد مسالم منطو على نفسه كان ولايزال وسيظل سجين درب النقيبة».

وحك بنعيسى عقب سيجارته في المنفضة وانصرف عني يتأمل رفوف الملفات والأضابير والكتب كما لو كان يريد أن يستخلص منها فلسفات غائرة ليس لى بها إلمام. ثم طلبته السكرتيرة لمقابلة زبون في مكتب عمله فتركني في وضعية ارتباك، والتقطت كتابا من الرف ورحت أتصفحه بخيبة مطلقة. ووسوس لى صوت تلك الخيبة بأن المحامي ربما كان على صواب. فهو يصارع كتب الفكر والقانون. وعندما يفتي يصدر في ذلك عن خلاصات يستمدها من الفلاسفة والقانونيين ومن القضايا التي يدافع عنها في المحاكم ربما يكون قد سبر سراديب تطوان أكثر مما سبرتها على الرغم من أنه لم ينشأ ويترعرع بين جنباتها العتيقة. أما ابن «المطمر» فليست له سوى ملاحظات عابرة عن عادات المدينة وأزقتها وتقاليد سكانها وعلاقات اجتماعية كسيحة، مع قراءات في المفلوطي والرافعي ونجيب محفوظ والرهوني ومحمد داود. إنني لا أعرف من أين سأبدأ ولا أدرك بوضوح

طبيعة المهمة التي يفترض أن تتشكل. ثم إن الأسرة وجيران الحارة وأصدقاء الكازينو لا يمكن أن يبالوا أو يحركوا ساكنا حيال هذا الشغل الشاغل المتأرجح في دواخلي كتأرجح الجنين الوهمي في بطن العجوز. إنني أتحدث إليهم ويتحدثون إلي ونمارس مع بعض حياتنا اليومية وما أفلحت قط في جعلهم يستشعرون رغبتي المائعة. وأكاد أجزم وأنا في آخر يوم من أيام عملي أني قد أموت من دون أن يدركوا أني كنت مصابا إصابة صادقة بحب الكتابة عن مدينتي. وعندما أضم هذا الاحتمال إلي تشكيك بنعيسي الفتاك يترسخ حقيقة طعم الخيبة المر.

سمعت السكرتيرة تفتح الباب وتحدث رضا. ثم رأيته يدخل مهللا إلى المكتبة الملحقة بإدارة بنعيسي. وأعدت الكتاب إلى موضعه ورددت التحية. فكرت في إقحام الأستاذ في الحوار لعله يساندني ضدا على المحامي لولا أني أعرف مسبقا أن رضا لا يحبذ كثيراً الحديث عن الكتب والكتابة. إنه رجل منفتح على حب الحياة مغتبط بخيرات الواقع، قلما تسمع منه ما يثير شؤمك. إلا أنك في المقابل نادراً ما تجده مستعدا للخوض فيما ليس له صلة بالمقررات. ناديناه أنا وبنعيسي باسم أستاذ الكازينو والقيلولة لأنه يقضي في النادي من الوقت أكثر مما يقضيه مع زوجته وأولاده. وفي أول عهده بالوظيفة جرب الإقبال على شراء الكتب والمجالات والأسطوانات.. إلا أنه بعد موسم دراسي واحد تأمل وتدبر تحولات الزمن والرغبة العامة في الإثراء السريع فأعمل فراسته التنبؤية واستنتج أن هذا النهم الثقافي ليس في صالح ميزانيته الشهرية فانقطع عن ذلك انقطاعاً تاماً. تصالح مع الواقع وتحاشى من جميع أنواع الانفعال. أدمن النوم وغفوة القيلولة حتى انتفخ. ومال نحو التقشف وحب العطايا المجانية بما فيها الأدوية التي قد تفضل عن الزملاء والأقرباء.. أما بنعيسي فكان لا يخفي سياحاته الطائشة في عوالم الأوراق والكتب القانونية والفقهية والفكر المشرقي الدسم. إلا أنك نداراً ما تراه يفتح لك باب عمليا لتنفذ منه إلى ممارسة ما تحلم به أو يسعفك بما تحل به

مشكلة. وبقدر ما كانت تدهشني فروسياته الفكرية بقدر ما كنت أنقبض من إلحاحه الدائم على قصوري الثقافي وعدم قدرتي على إدراك خبايا الأمور وعللها المنطقية.

ورجع بنعيسى لينقض على أستاذ الكازينو بصوته الجهوري. ضرب في شتى الاتجاهات وأثار في أوقات متقاربة موضوعات الرشوة وأمريكا والفلسفة. بينما كنت أبحث عن أرضية صلبة أعاود الوقوف عليها حتى لا يجرفني التيار. وفتح رضا صدره للصواريخ مبتسما ولم يجب. وفي لحظة خمدت فيها نار المفرقعات سرحت مع النفس:

«– ما الذي انفرد به نجيب محفوظ حتى ألم في رواياته بتفاصيل القاهرة وأزقتها وملايين بشرها وأصناف عاداتها وآلاف مشاكلها وأحلامها؟. لابد أن يكون ثمة سر يجمعني بالأديب المصري أكثر مما يجمعني بالمحامي ذي الأصول البدوية. الرطوبة التي تسري في دمي وفي دروب مدينتي، والإحساس بجنائزية العصر، والريح الشرقية، والتقزز من بيع الذمم، وتضارب الأهواء والأصوات والقيم على نحو بشع، تلك سمات لا تستطيع ذات بنعيسى أن تتريث إزاءها حتى تتدبرها. ثم إنني أتفوق عليه بقراءة المنفلوطي الحالم والرافعي الوقور ونجيب محفوظ الساحر، أما هو فلا يعطي لهذا الصنف من الكتابات أي اعتبار».

وطلبت من الله أن يعينني فيما تبقى لي من أيام حتى أستخلص منها قيمة قصصية متماسكة أتحداه بها. واستحضرت ذكرى عبدالكريم إذ هي معين التحدي. ومع الذكرى تسلط هاجس الأسبوع المصيري.

الغروب. ودعنا بنعيسى ومضينا نحو الكازينو. تركنا الرجل مستعدا لاستقبال

ألف زائر جديد، متحمسا للدخول معهم في مشاكسات دونما كلل بعد أن تخلص مني ورمى بي طائراً مهدهداً. ودخلت النادي مهيض الجناح في حين تسلل رضا مبتهجا كمن يلج بستانا مزهرا. وبمجرد ما أن استرخى فوق كنبة حتى أخذ يسترق النظرات إلي جريدة مفتوحة بين يدي رجل. تلك عادته الأزلية. ففضلا عن أنه لا يشترى أية جريدة، تراه يتقاعس حتى عن البحث عنها في أركان النادي. لكني انشغلت عنه بتدبر الجرح والمصير. والحق أني لم أكن حزينا قدر ما عذبني الخوف والإهانة. الخوف من تفاقم المرض وحيلولته دون جني الثمرة. أما الإهانة فقد جاءت من لدن بنعيسى. وبدت لي قاعة النادي على سعتها بقعة ضيقة صامتة عبرها عبدالكريم بجلبابه وطربوشه. التفت نحوي في تؤدة ومد يديه الطويلتين يستدعيني إلى لقاء منتظر. ثم سمعت صوتا حقيقياً يناديني إلى طاولة الشطرنج فلم أستجب. ولم أكن في تلك اللحظة حزينا، وهذا هو الطريف في الأمر. أما كلمات بنعيسى فقد جرحت كرامتي في الصميم.

بعد صلاة المغرب تملصت من رضا وتركته يسرق العناوين والجمل. غادرت الكازينو رابط الجأش كقائد عسكري يخرج إلى تفقد الساحة التي ستحتد فيها المعركة وشيكا. الجرح والمصير ومسئولية المدينة تقتضي تخطيط استراتيجية الانقضاض. وفي «الفدان» ارتقيت درجات قليلة وجلست فوق كرسي يشرف على الساحة. لابد من التخطيط للعتاقة من مكان مفعم بسكينة العتاقة. وليس ثمة أفضل من مقاهي «الفدان» . وشردت مع شقشقة العصافير وهي تستعد للمبيت في أعالي نخيل الساحة.

تطوان مدينة العيون والزوايا والمساجد والأبواب السبعة. لكل باب حكايات وطرائف متداولة ومدونة في كتب التاريخ المحلي، لكن الخبايا المستعصية على التصوير كانت تغريني بقدر أكبر. لن أفكر قط في بناء هيكل الرواية المنتظرة وفق الأبواب السبعة وإن شاقتني دوما هذه الفكرة لما بينها وبين أيام الأسبوع السبعة من تكامل. ثم إني توجست من أن يحيل هذا الحلم إلى سيرة «سبعة أبواب»

لعبدالكريم غلاب. من ناحية أخرى لن أكتفي باللوحات التجريدية الجميلة مثل صنيع الصباغ حينما جعل «تطوان تحكى» إنما القصد مشروع روائى ضخم يسيطر قصصيا على سحر المدينة العتيقة كله..

وقر قرارى على التقسيم الرباعى للمدينة العتيقة حسبما حفظته عن أحمد الرهونى ومحمد داود ثم زكاه التهامى الوزانى «حومة البلد» و«الطرانكات» و«السويقة» و«العيون». سأهتم بأكثر المواضع اكتظاظاً ولغطا. بيد أنى لن أغض الطرف بتاتا عن الساحات الصغيرة الوديعة والمقاهى الشعبية. كل تلك المرافق تعرف تجمعات بشرية وتتيح وفرة فى التفاصيل وثراء فى الأحداث. سأجعلها تنطق بذاتها مثلما أنطق نجيب محفوظ حوارى القاهرة بقليل من المعلومات التاريخية وكثير من التفاصيل الذكية..

ونزلت الدركات المفضية إلى «الفدان» فى نشوة الظافر. واخترقت قوس «الطرافين» فغمرنى شعور القائد المغوار وقد امتطى صهوة فرسه واستل سيفه، ودخل المدينة منتصرا فأصبحت له مباحة.

حومــــة البلــــد

- ٢٤ -

وداعا للمدير والحارس العام.. وداعا لدفتر النصوص والاختبارات النصف شهرية وأسئلة الربط ولائحة الحضور والغياب.. وداعا للمراقبة المستمرة ودروس الدعم والتقوية.. وداعا للامتحانات والحراسة والتصحيحات وملء النقط.. وداعا لرعب المفتشين الذين ركبوا في وسواساً متسلطا عمره أربعون سنة. حتى زوجتي وأولادي وجيراني غدوا يرتعشون من المفتش لأني آرتعش منه.. وداعا للاستيقاظ باكرا والساعة المنبهة التي أوشكت أن تصيبني بداء القلب.. ومع ذلك استيقظت في يومي الأول مع بداية تباشير الصباح. الحماس متقد والتطلع عظيم. تفرست في وجه رقية الرخو تفرس البعل المتمكن من أموره المتحكم في شؤون آسرته. كان التصميم تاما والهدف واضحاً. واستنجدت مرة أخرى المرآة وحملقت في وجهي كأنني أراه لأول مرة في حياتي. تقاسيم شيخ شاحب لكنه قادر على التقاط سمات تطوان المتناثرة وسجنها في قمقم زجاجي صغير مثلما سجن نجيب محفوظ القاهرة كلها في قمقمه المسحور.

بغض النظر عن الأمراض وفروض المجاملات لم تكن لدي مشاكل حقيقية قد تعوقني عن تنفيذ حلمي. ذاك ما يبدو في الظاهر على الأقل، وإن كانت ثمة في الأعماق نقطة بوشعيب السوداء وأخرى لها صلة بإبراهيم. أما الذبول الطارئ على محمود فلا يدعو إلى القلق.

بوشعيب هو الذي عرف بين أفراد عائلتنا بموظف «الباريو». فحينما جاء يبحث عن كراء إحدى دورنا بتلك الحارة قدم لنا نفسه بوصفه موظفا. ولما ألححنا

فى معرفة نوع الوظيف قال إنه يعمل فى إدارة الاشغال العمومية. ثم قمت بتحرياتى وتأكدت بالفعل من أنه يعمل فى تلك الإدارة عون تنفيذ مؤقت. ثم تكاثرت أخباره. فقد قيل لنا إنه اشتغل فترة سابقة من حياته حلاتقيا فى القرى وبعض المدن الصغيرة، وإنه قد اشتهر بتملصه من الأداء فكثرت تنقلاته الهاربة ودعاواه فى مختلف المحاكم المغربية. لكن تلك الأخبار وصلت متأخرة، فقد كنا قد أمضينا معه العقد وقضى سنوات ساكنا الدار. إلى أن عرفنا فى المدة الأخيرة أنه قد فصل من منصبه المؤقت وأصبح يشرف على كشك هاتفى فى حى «الطويلع». أما الطامة الكبرى فقد حصلت حينما وقع ابننا الغرير نجيب فى شباك إحدى بنات بوشعيب. يوم البداية، والله تعالى وحده يعلم إن كانت ستغدو بداية النهاية. المثل السائر يقول: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».. تلك أمور ألوكها وحدى. ولكن هل أخون رقية عندما لا أعترف لها؟. بالطبع لا، لأنها بكل بساطة لن تتمكن من أن تفهمنى ولن تقدر أهمية الأيام السبعة بالنسبة إلى. ولكى لا أثير شكوكها قررت البرهنة لها عمليا على أن سلوكى الخارجى لن يتغير مع بداية التقاعد، وأن المجاملات وعادات المرور بالنادى والمسجد، و«شارع محمد الخامس»، و«الفدان» لدن تتبدل.

بعد الفطور بدأت إعداد عدة الخروج، توضأت ونشفت ذراعى ووجهى بفوطة، وبفوطة أخرى نشفت رجلى وأمعنت فى تجفيف أصابعهما ووضعت بينها مرهما اتقاء الفطريات قلمت الأظافر. حلقت ذقنى ورطبت خدى بالكريم. استبدلت بمنامتى سروال وقميص الخروج. لبست الجوربين الشفافين. ارتديت جلباب الصيف بمساعدة رقية وانتزعت ما علق به من خيوط صغيرة. مسحت الحذاء ومسحت الطربوش ومسحت النظارتين الذهبيتين، وأحطت معصمى بساعتى اليدوية. مشطت شعرى وراعيت إن كانت ثمة بقايا قشرة. ودسست فى الجيب الأيمن لسروالى المنديل المكوى بعناية، وفى جيبى الأيسر محفظة صغيرة للنقود، وفى جيب القميص دفترا صغيراً وقلم رصاص.

استغرق إعداد العدة وقتاً ثقيلاً إلي حد الشعور بالندم على طيران الزمن. وغادرت الدار متعمدا المشى البطئ، مشى العمل والتأمل. تسللت من «المطمر» إلى «المطامر» كالسلحفاة الحكيمة. وجلست هنيهة فوق المصطبة اللصيقة بزاوية «سيدى أبى العباس السبتي» في ساحة «الوسعة» الوديعة. لابد من مهلة لاسترجاع بعض تفاصيل الخطة. ولابد من التبرك بأجواء الهدوء الجليلة. وتمثلت صورة المرحوم السى مفضل يقاسمني المصطبة منكس الرأس ويده اليمنى مختفية داخل جلبابه الرمادى. كأنه لم ينم ليلته. لكن هل كان أحد يهتم بنوم السى مفضل؟ أين سيستلقي، وماذا يأكل، وأين يتغوط، ومتى يحلو له أن يصفع أحدا، وأنى يتوقف ليلعب الورق؟. ليس من المجدى إثارة مثل هذه الأسئلة حول بوهيمى طليق كانت له كل الدنيا، تسربله في اطمئنان القذارة من قمة رأسه الأشعث إلى أخمص قدمه العارى. رجل البركة والرائحة الكريهة. رجل الجذبة والهبل. ترى لو كان حيا هل كنت سأستشيره فى الخطوة التى سأقدم عليها مثلما استشاره كثير من العوام؟ ولم أسمع جوابا مباشراً وإنما أخذت بسؤال معاكس:

«- هل يمكن لغمغمة المجذوب أن تعفينى من عذاب البحث والتدوين؟. نجيب محفوظ أدمن جلوس المقاهى وتجول فى الحوارى الشعبية وتمرس بالوظيفة الإدارية ولم يعتمد على الموهبة وحدها أو كلام المعتوهين وإنما اكتوى بنار التجربة إلى حد الاحتراق. فلماذا يخامرنى إذن طيف الطريق الميسور؟.. آكيد أننى متأدب انتهازى وغير صادق..».

صباح يوليو لم تشتد حرارته بعد. وأنستنى اللحظات العليلة القرحة والروماتيزم وضغط الدم. كأننى طفل غرير يدفع به إلى اكتشاف الدنيا. ثم انصرفت عن «الوسعة» والسى مفضل لأخوض المعمعة. ستكون البداية، طبقا لقرار أمس بأشهر ساحات «حومة البلد»، «السوق الفوقى» ثم «الغرسة الكبيرة».

خلال أيام الطلب «بالمعهد الرسمى» ثم «بمدرسة المعلمين» تعودت اجتياز نفس الطريق لا أكاد أحيد عنه، «المطمر» و«المطامر» و«الوسعة» و«جامع القصبة» و«سوق الحوت القديم» و«الطرافين» و«الفدان» ثم «شارع محمد الخامس» الذى سمى فى عهد الحماية الإسبانية بـ «محج الخنر اليسيمو». أما فى أثناء العصارى الحزينة فقد كانت أفضل المكوث أطول وقت ممكن حبيس العتاقة على ذاتها، ولا أتحمس لمغادرة «النقيبة» كما لو كنت سمكة ترى فى الخروج من الماء موتا لها. لكن ضرورة التعليم أرغمتنى على الاستسلام لضجيج البيع والشراء والزحام فى «الساقية الفوقية» و«الطرافين» سواء تسللت عبر «فندق النجار» أو عبر «الغرسة الكبيرة».

كذلك أرانى اليوم أطلب الزحام وأنا مسرح فى عطلة لا يعلم مداها إلا الله. لكنى لم أكن كأحمد عاكف وقد أقبل على «خان الخليلى» آملا التغيير والتجديد واكتشاف حارة جديدة، أنا أعرف ميادين عملى جيداً إذ بها نبتتى ويفاعتى وكهولتى. لذلك انجذبت نحو الضجيج مثلما ينجذب العاشق الولهان نحو عطر الحبيبة، فيممت نحو «السوق الفوقى» ما دامت ساحة «الغرسة الكبيرة» لن تعرف اكتظاظا فى أول النهار.

«السوق الفوقى» ساحة تنفتح طولا وعرضاً على الطرق المؤدية إلى «باب المقابر» و«النيارين» و«زنقة المقدم» والدروب الصاعدة إلى «جبل درسة». عالم مزدحم كثيف قائم بذاته فيه المسجد والزاوية والحمام والفندق والكتاب. ومازالت ذاكرتى العجوز تحتفظ بصور منه منذ عهد الفتوة، مغروسة فى المخيلة بصيغ مخالفة كليا لصور «الجامع الكبير» و«الفران المسلس» و«سبع لواوى» و«درب ابن المفتى».

«السوق الفوقى» مشرع على السماء، قريب من الجبل وإن لم يبد فى الظاهر أنه قريب، مختلط الرواد، محاصر بالجدران والدكاكين حصاراً حميماً دافئاً يشعرك كأنك فى عقر دارك الأمين. ولكن هل كان «السوق الفوقى» ملاذاً آمنا يوم «عيطة السبت» الدموية قبل حوالى ثلاثة قرون؟ بالقطع لا، لكن تطوان لا تريد أن تسترجع آلام تلك الذكرى.

وتلاشت نسائم الصباح وحل محلها القيظ. كمن هادئاً محشورا فى جلبابى وقورا بطربوشى الأحمر أتهيأ للقيام بمهمات جليلة. مشيت وسط الساحة والزحام لم يشتد بعد. ورجعت بى الذاكرة القهقرى مستعيداً صورة اختلاط الإسبان بجبالة والجنود المغاربة وتجار التقسيط والمتسولين والحيوانات خاصة الحمير وقد حملت بالرمل أو الفحم أو التين أو التين الشوكى أو المشمش أو الرمان أو البرتقال أو الخضر أيام الحماية الإسبانية على المغرب. الشواشى والطواقى والجلابيب الصوفية والألثمة والحياك والمناديل المخططة وتلاحق الأجسام. كنت صغيراً، ومع ذلك حدست في غموض أن من أوجه غرابة هذا الاختلاط اتسامه فى آن واحد بالتنافر والانسجام. فالإسبان جنوداً ومدنيين ينتشرون هنا وهناك ببدلاتهم العسكرية ذات اللون الزيتى أو بملابسهم المدنية الأنيقة، يعبرون الساحة فى أناة أو يتوقف أحدهم عند باب دكان ليساوم فيضفى مشهدهم الرومى على المكان مسحة غير عادية. كنت أرى بعضهم يخرج من دار تقليدية مختفية فى درب يفضى إلى «السوق الفوقى» فأدرك آنذاك آنهم يقطنون بين المغاربة فيحار عقلى الصغير بالسؤال:

«- أولا يشعر هؤلاء الأجانب بغربة العيش بين غير أهاليهم؟».

ثم أسلم بأن هؤلاء كانوا يعانون حتما حرقة الغربة وبرودتها، لكنى منذ الفتوة إلى يومى هذا لم أفلح فى معرفة طبيعة تلك الغربة وتلمس سماتها. وفى شيخوختى اكتفيت بالقول إنها غربة رومية عاشها الإسبانى بحكم الاستعمار أو المغامرة أو الضرورة الإنسانية، غاص فى غياهبها المهولة وظل مع ذلك محتفظا بالقدرة على الفعل والأخذ بزمام الأمور والإحساس بتفوقه على المغاربة.

تحسست الدفتر الصغير تحت الجلباب وتأكدت من وجود القلم وشحذت الذاكرة . فتحت العينين على سعتهما فصدمتنى كتلة من الضجيج والاختلاط يصعب النفاذ إلى عمقها. أعدت النظر الذهنى ثم أعدت ثانية بقصد استخلاص العصارة الدالة على تلك الكتلة فأصبت بالإحباط. لكن قصارى ما استطاعته الذاكرة أنها رجعت مرغمة إلى ذلك العصر الخريفى البارد لما خرجت صحبة أمى لاقتناء توابل عيد الأضحى من «زنقة المقدم». كانت أمى تنتعل خفين أحمرين وقد لفت معظم جسدها القصير فى حائك أبيض محربل وغطت معظم وجهها بلثام أبيض هو الآخر مطرز الطرفين لايكاد يظهر منها سوى عينيها الصامتتين الناطقتن. كنت فى حوالى الرابعة أو الخامسة من عمرى تتلاعب بمخيلتى الهشة كمشة مبعثرة من الصور السقيمة الباردة تتصدرها صورة فقيه الكتاب بوجهه المتجهم وعصاه الرمانية الطويلة وكلماته الرهيبة عن الحشر والصراط الرقيق كحد السيف. وانتهت أمى من مهمتها واستعطفتها أن تشترى لى قطعة حمراء من حلوى جبالة. ومن أجل الوصول إلى هذه الغاية أفضى بنا زحام «زنقة المقدم» إلى زحام «السوق الفوقى». وصادف أن اخترق موكب جنائزى كثافة الساحة الضيقة متجها نحو «باب المقابر» فازداد الاكتظاظ حتى صعب المشى. وانتابنى إحساس مرتبك بالاختناق فتمسكت بأمى والتصقت بتلابيب حائكها، ثم أجهشت بالبكاء فى خضم المد البشرى العارم، وبجهد جهيد تمكنت أمى من اختراق الساحة عرضاً لنلوذ بموقع آمن بين «زاوية سيدى على بركة» و«مسجد السوق الفوقى». وبينما كنا نسترد الأنفاس لفت انتباهنا كهل أسمر نحيف، يجلس على يميننا بجلباب صوفى رمادى وعمامة داكنة ولحية خفيفة، وعين تشع الغواية. يطرد الذباب ويصيح بثقة:

«– ها الحلويات.. ها الحلويات.. ها العسلية...».

لكن سحابة البشر والضجيج الكثيف لم تشجعنا على الاقتراب من البائع. ولم تتوقف أهوال الحشر عند هذا الحد وإنما انقلب بكائى إلى شلال من الهلع المائع

لحظة أن رأيت كوكبة من الجنود الإسبان ينزلون من درب «الطالعة» الحجرى المنحدر ببدلاتهم العسكرية المائلة نحو الخضرة القاتمة وقبعاتهم المثلثة ومعاطفهم الغليظة المتمنطقة بأحزمة جلدية سميكة وأحذيتهم الثقيلة الشديدة السواد وأزرارهم النحاسية اللامعة. كانوا شتيتا أجنبيا غير منتظم يهبطون فى جلبة الدرب كأن غولا يطاردهم من الخلف فيصدر عن احتكاك صفائح أحذيتهم بحجارة المنحدر المغروسة وقع رهيب كما لو كان صوت مفرقعات. وانتشرت فى مخيلتى الصغيرة أصداء ما كان قد قاله الفقيه عن النصارى وجنود الطيرسيو الإسبانى وفناء الدنيا ويوم القيامة. وسلبنى هول المشهد كل قدرة على تنظيم الصور العليلة والتنقيب فى ثناياها عن أضواء منيرة. ورسخ لدى أن هذا اليوم يوم القيامة كما وصفه فقيه الكتاب خاصة بعد أن لاحظت غلظ معاطف الجنود المهرولين وتكدسها. واستقر فى يقينى أن كل جندى قد تدثر بخمسة أو ستة معاطف سميكة وربطها فوق بعضها ربطا محكما بالحزام الجلدى الأسود استعدادا للمرور على الصراط وتلبية نداء يوم الحشر. فمن علامات فناء الدنيا الزحام والصراخ وتدثر جنود النصارى بكل ما يملكون من ملابس وجريهم المرعوب نحو المصير المجهول.

استشعرت أمى هلعى الماحق يضغط على ويدفعنى للاستنجاد فرفعتنى نحو صدرها وطمأنتنى بكلمات لم تفلح فى النفاذ عميقا إلى شغاف القلب مثلما نفذ منظر الجنود المدثرين:

«- لاتخف أوليدى.. إنهم النصارى فى طريقهم نحو القشلة».

وتمكنت أمى من شراء الحلوى الحمراء. لكن صخب الهرولة الأجنبية ظل يتردد فى أعماقى حيا إلى يومى هذا. وربما ارتبط فيما بعد بالوصف الذي أورده التهامى الوزانى ليوم احتلال إسبانيا لتطوان وقد وقف الجنرال بريم على فرس أبيض «بالسوق الفوقى» وسط هرج الفرسان ومرجهم.

منذ ذلك الحين بقي الصخب الأجنبي فوق ضجيج الساحة يسايره من دون أن يذوب في خضمه.

لذت بجدار مسجد السوق ووقفت قريباً من بابه وقفة من ينتظر أذان الظهر، في المكان نفسه الذي احتميت به مع أمي يوم الحشر. كانت الحرارة قد اشتدت فمسحت عرق الجبين وعدت من جديد إلى مهمة الالتقاط.

في واجهة الساحة الضيقة اصطفت خزانات بيع الخبز الأبيض المدور. الخزانات صناديق خشبية مصفحة بقصدير بليت معالمه، كل منها مسقوف بما يشبه المظلة المربعة يحتمي بها البائع وخبزه من وهج الشمس أو ماء المطر. الرائحة الحلوة للخبز ضاعت حول المناطق المحاذية للخزانات. رائحة لا يمكن أن تنفصل لدي عن فضاء هذه الساحة. قبالة الخبازين جلس باعة الحناء والتوابل والحلوى الجبلية والعسلية يفترشون الأرض أو يجلسون على مقاعد خشبية قصيرة جداً. بعضهم يقدم بضاعته في صينية يعرضها فوق كرسي حديدي مشبك دونما خوف من أن يسقط البضاعة طوفان البشر المتلاطم.

تقدمت خطوات جهة «حمام السوق الفوقي». على اليسار زقاق ضيق شبه مظلم يفضي إلى «فندق السوق» تربط به الحمير ودواب الباعة الجبليين، وإلى زمن غير بعيد كانوا ينامون فيه حينما يباغتهم الليل وهم بعد بين أسوار المدينة. ثم ازددت تقدما والزحام يدفعني حتى توقفت أمام الباب الأزرق للحمام. هذا حد «حومة البلد» وتكلم التاريخ القديم والحديث: كيف استطاع سطل خشبي في الحمام أن يفضي إلى فتنة عظيمة في كل المدينة حينما تنازعه ريفي وتطواني في عهد الباشا أحمد، وكيف طارد في زمن لاحق رجل بسطل السي مفضل وهم يضربه وهما عاريان لسبب غير أخلاقي سكت أبي عن رواية تفاصيله.

ولم أتجاوز الحد وإنما تعمدت البقاء في الساحة لدراسة الوجوه فلاحظت أن معظمها متجهم تنم نظراتها على الحذر من الغبن في البيع والشراء بينما لا يخلو المشهد كله من ضجيج تعلوه كلمات المساومة ويخترقه أحيانا تعليق ماجن. ثمة

تاجر ينحشر في دكانه الصغير. الطربوش أحمر والوزرة كاكية اللون. أما الوجه الشارد فلا يكاد ينبيء عن تعاطف مع أحد. يبيع الخبز والشاى والسكر والزيت والطحين والكسكس والحمصة والشعرية والأرز والسميذ والدشيشة والملح والقفاف والشواشي وسجادات الدوم. ماذا عن زوجته؟. هل له أولاد؟ بم يفكر الآن وهو يتابع تلاحق النساء والرجال والأطفال أمام ناظريه؟.. هل يضنيه هذا البحر المتلاطم أم يساعده على التيه فى أحلام يقظة لذيذة؟ ما طبيعة علاقته بزبنائه؟ هل يرق لحال الفقراء منهم ويحترم إخراج الزكاة ويغادر دكانه للصلاة فى المسجد القريب الذي لا يبعد عنه بأكثر من خطوات، أم تراه يقسو ولا يفكر إلا فى تكديس الدراهم واقتناء الأراضى وبناء العمارات؟. هل يمتهن حرفة التجارة رغما عنه أم حبا فيها أم ورثها عن أبيه؟.. من أين النفاذ إلى سريرة نفسه؟ التاجر الصامت القصير القامة المزموم الشفتين نموذج جيد للشخصية القصصية المحلية. يبدو كأنه لا يبيع شيئاً، ومع ذلك فهو صامد فى جحره المنيع. لست أدرى منذ متى اندس فى ذلك الجحر، وفى جميع الأحوال ليست ملامحه غريبة عنى.. ربما كان متزوجا بأربع، ينتظر المساء ليختلى بإحدى زوجاته. قد تكون نوبته فى هذه الليلة الحالمة مع الزوجة التى يميل إليها أكثر من الباقيات، أو قد يكون العكس، وربما كان ذلك مصدر وجومه. ربما كان شيخاً منفصم الذات على الرغم من تماسكه الظاهرى. ولكن.. هل هناك إمكانية لتصوير التاجر القصير بعيداً عن صورة السيد أحمد عبدالجواد؟.

فى أيام اليفاعة تجمعت لدى معلومات غزيرة ودقيقة عن أصحاب دكاكين «حومة البلد» دونما استثناء. تناقلنا كل ذلك فى جلسات لذيذة ونحن فتية. ثم طار الدهر فى غفلة عنا واكتشفنا أن الباقى من الوجوه القديمة قلة. وها هو مخى يدور اليوم فى دوامة فارغة يستجدى معلومات عن التاجر القصير. لقد تغيرت الدنيا حقا ولم يعد الرأس يحتمل الغوص فى الفراغ. وأمرت النفس رأفة بها:

«– انقل بصرك نحو الشاب النحيف بائع الخرق والملابس البالية المكومة فوق الأرض..».

وقبل أن أحتفى بالموضوع الجديد وقفت بين دكانين ضيقين وأوليت الناس ظهرى. أخرجت الدفتر وسجلت فيه بقلم الرصاص:

«حكاية التاجر القصير مع السوق الفوقى ومع زوجاته الأربع».

ثم رفعت عينى عن الدفتر. التفت فوجدت التاجر يرصدنى بنظراته المستفسرة فوجلت من أن يظن بى الظنون ويحسبنى مراقب ضرائب متسترا أو لصا متنكرا يخطط لسرقة ليلية، أو مجرد فاسق له صلات مشبوهة بإحدى زوجاته.

وابتعدت عن مرمى بصره.

- ٢٦ -

انحشرت فى ركن قريب من تاجر الأحذية المطاطية وتابعت عن كثب حركات الشاب النحيف. ذقن غير حليق، وطاقية بالية باهتة اللون، وسروال من الجينز الأزرق المتسخ. قد يكون خريج معهد عال أو مجرد تلميذ مطرود من القسم التاسع الإعدادى، نموذج مناسب لبطالة الشباب أو البطالة المقنعة. وعلى الرغم من ذلك كشفت حركاته عن ميل فطرى نحو الفكاهة. كان قد بدأ يتناول فطوره المتأخر، خبز أسمر بالجبن أو الزبدة وكأس حليب. وقريبا منه جلس على كرسى خشبى صبى أصلع فى حوالى الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره. أمامه طاولة صغيرة يبيع فيها قطع حلوى مصنوعة فى المنزل صنعة غير متقنة. كان الشاب الفكه يومئ إلى الصبى بحركات متكررة من يديه كأنه يهم بصفع صلعته أو إذايته كما لو كان عليه سلطة قاهرة. وفجأة انتفض إثر نزوة طيش واقترب من الصبى وأمره بأن ينهض وينظر إلى السماء بحيث تظل جبهته منبسطة أفقيا. وامتثل الصبى بعينين زائغتين. ثم أخذ الشاب الكأس المملوءة حليبا ووضعها بأناة فوق جبهة الصبى وأمره بألا يتحرك. وبدا المشهد مثيرا لضحك وشفقة الواقفين والمارة.

تابعت لعبة الحليب متابعة متمهلة لم أملك حيالها إلا الابتسام. لكن أثارني وضع الصبي الأصلع وهو في عذابه الاضطراري. فقد استسلم للعبة وجلاً وواجه قهقهة الآخرين بانقباض متألم كاد يفضي به إلى البكاء. وكان كلما حاول تناول كأس الحليب بإحدى يديه صده الشاب الفكه مهدداً بلعنات ماجنة. وبعد طول صبر انقلب الانقباض المتألم إلى بكاء حقيقي. ولم يتنازل الشاب للإشفاق على الصبي حتى تأكد من أنه قد استنفد كل مخزونه البشري من التحمل. حينذاك تناول الشاب الكأس ببطء ورشف منها رشفة لذيذة وهو ينظر إلى المارة ويعرب عن استعداده لمشاكستهم مثل فتوة عصري. أما الصبي المنكسر فقد سوى رأسه واستغل فرصة انفراج الموقف وابتعد قليلا عن طاولة حلواه ليتنفس الصعداء.

ورجعت إلى نفسي وتساءلت عن جدوى ما شاهدت. قارنت جرأة الفتى بجرأة فتوات «الحرافيش» فوضح لي بون مبهم في السمات. أما الضحية فقد بدا لي نسيج وحده. وقلت:

«– لو أن أم الصبي علمت بلحظة العذاب التي قاساها ابنها..».

لكني استشعرت قدراً من الخيبة لما أدركت أني مثل أم الصبي لا قبل لنا على الحد من سورات العذاب التي نواجهها أنى ذهبنا. إن مشاهد العذاب لاحصر لها في العالم بأسره، والصبيان المعذبون موجودون في كل حدب وصوب. بيد أن الأمر الغائب بالنسبة إلي هو الصنعة التي قد تمكنني من وضع لعبة الحليب في مكانها المناسب من ساحة «السوق الفوقي» بذلك سأتمكن من رد الاعتبار للصبي والساحة العتيقة، المسألة إذن مسألة ربط وتصوير متسق قادر على الجذب قدرة «كليلة ودمنة» و«الليالي» وقصص نجيب.

وتفاقم حجم الخيبة في صدري ووقت الظهر يقترب. فتح باب المسجد وتسرب بعض المؤمنين إلي الميضأة الخلفية وشرع آخرون في التنفيل. ونسمرت في موضعي بالجلباب المكوي والطربوش القاتم الحمرة. حائر حيرة أوديب المطالب بحل لغز أبي الهول. وحز في نفسي أن أحتفظ «للسوق الفوقي» بصورة حيوية

دافئة ثم لا أفلح بعد ذلك فى استخلاص رحيقها وصوغه فى سبيكة جذابة تفيد فى كتابة رواية المدينة. ثم أوقفت بصرامة تيار الاحتمالات:

«- الآن وقت الالتقاط ليس إلاّ. أما الإبداع فلابد من إرجائه إلى لحظات الاسترخاء البدنى والصفاء الذهنى فى الغرفة المبجلة..»

وأخرجت الدفتر الصغير وسجلت:

«- البحث عن الصنعة القصصية لتقديم لعبة الحليب فى السوق الفوقى».

- ٢٧ -

قلت لنفسى ما قاله الرحالة ابن فطومة لنفسه:

«- إن خير ما تفعل يا رحالة أن ترى وتسمع وتسجل وتتحاشى التجارب».

لكن صوتا آخر لعله للمحامى بنعيسى هتف بى مويخا:

«- إنك تراقب الأحداث من بعيد ولا تكاد تكتوى بنيرانها. تلوذ بالجدران وتعاين الأمور كأنما بمنظار مقرب وتحذر اتساخ جلبابك بينما تقتضى المعرفة المشاركة الفعلية..».

وفى لج الحيرة أشفقت على نفسى وقلت معترفا:

«- أنىّ لي بالقدرة على المشاركة وأنا كالريشة في الخفة والزهرة الذابلة فى العلة».

ومع ذلك جدد الهاتف إلحاحه:

«- لا مانع من المساهمة ولو بالقدر الزهيد من المغامرة. اختلط بالخلق وعرض ذاتك للأهواء والهزات وانتظر عما ستسفر عنه المغامرة».

فسرت النداء حسب هواى. تقدمت خطوات وسط الساحة وموجة الزحام فى حدتها العالية، وتوقفت هناك هنيهة تتلعب بى أمواج البشر منتظرا حصول واقعة أو مفاجأة جديرة بالتسجيل. كنت فى وضعيتى تلك كالمروحة المغروسة فى أعالى البنايات الشاهقة تدور بها الرياح أينما اتجهت. ولم يحدث شئ وإنما ضغطت الموجات البشرية على جسدى فقلبتنى إلى هذه الناحية أو تلك كما لو كنت مربوطا من خاصرتى بحبال سميكة وطويلة يجذبنى كل منها نحو اتجاه معاكس. حبل يسوقنى بلطف جهة «النقيبة» حيث دار الوالدين ومنزل الأسرة ودفء الأخوة وأصدقاء الطفولة والكتاب. وحبل ثان يجرنى نحو «باب المقابر» حيث برودة الموت والفشل الأبدى. وحبل ثالث يرفعنى نحو الأعلى ناحية الطريق التى تصاعد إلى «جبل درسة» حيث يعشعش المجهول وغموض المغامرة وغربة الأجنبى. وحبل رابع يجذبنى نحو «النيارين» حيث تتطلع عتاقة الدروب إلى الانعتاق وتشرف على بوابة الانفتاح البدوى، وخيل إلى أن الحبال جميعاً تتجاذب فى وقت واحد جسدى المندلق كأنها تنزع إلى أن تنتشل أعضاءه أشلاء متناثرة وترمى بها فى كل أصقاع المدينة القديمة حتى يستحيل عليها فى المستقبل السحيق أن تستمتع بنعمة التشكل فى جسد واحد.

وأذن للظهر فتمزقت حبال المغامرة الحذرة ودخلت الجامع. ولم تغب عن الذهن أهوال الحشر والهرولة فطلبت الراحة فى استرجاع أحاسيس محمد داود حينما كان طالبا يستيقظ قبيل الفجر صحبة أبيه، ويخترقان «زنقة المقدم » فى ضوء فانوس تقليدى ليصليا الصبح وراء أستاذه الفقيه سيدى أحمد الزواقى فى هذا المسجد بالذات : «كنت أشعر بشعور غريب حينما أقف خلفه للصلاة، وقد خلا السوق المجاور للمسجد من الناس، فعم السكون وانتشر الهدوء وامتلا جو المسجد رهبة وجلالا، فيصطف المصلون من الطبقتين المتوسطة والفقيرة، ويقف الفقيه جنب المحراب هنيهة، ريثما يتم استواء الصف ، ثم يتوجه القبلة بأدب وخضوع ويقف خاشعا بين يدى رب العالمين، ثم يكبر للصلاة ، ويقرأ القرآن بصوته المتهد

الرهيب، وإن ذات المؤمن لتتكهرب حينما يقرأ الفقيه قول الله العظيم : «بسم الله الرحمن الرحيم»، إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك ، كلا بل تكذبون بالدين وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون ، إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم يصلونها يوم الدين وما هم عنها بغائبين وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله»، وهى سورة يصلى بها الفقيه كثيرا فى الصبح .

ثم كادت عينى تدمع حينما تذكرت جنازة المرحوم الزواقى فى يوم مطير. يرحمه الله .

وصليت وتعمدت الخروج من الباب الخلفى المفضى إلى «الطالعة» . وفى العتبة تصافحت مع بائع الحرير وتجاذبت معه أطراف حديث قصير حول الاكتظاظ وحرارة الشرقى، ثم أنهيت الحديث بابتسامة عابرة لأتفرغ إلى مهمة الالتقاط .

— ٢٨ —

يممت نحو الدار عبر «زنقة المقدم» الوارفة بالظل بفضل حيطانها المتقاربة وبعض سقوفها المغطاة. بقايا كتاب سيدى أحمد الفتوح فوق قوس المدخل حيث درس الشيخ التهامى الوزاني وصحبه منذ سنوات غابرة «درب سلامة» حانوت علوش للتوابل والعطور. «درب القرفى » وقد كان سابقا «درب داود» ملبنة ومخبزة السوسى «درب شرفاء وزان» مطعم الحسانى: دكاكين الحلاقين وبائعى أشرطة الغناء والملابس الرخيصة والصناعة التقليدية. «الزاوية التجانية» . «الزاوية الكتانية» فى «درب أجى نقولك». «مسجد لوقش» . السباط المتصل بصومعة

المسجد حيث درس محمد داود لأول مرة فى كتاب الغمارى. كل تلك المرافق الظليلة هتفت بى مشجعة:

«إنك على وشك أن تضع يدك على ما تبحث عنه. زد فى سعة عينيك. زد فى جمع التفاصيل والألوان والأصوات . ربما خرجت إليك ضالتك فجأة من شق فى جدار صامت أو من تحت عتبة باب غميق لم يصل إليه ضوء الشمس منذ قرون. مسئولية المدينة القديمة ملقاة على عاتقك، وبوصلتك الهادية إلى ذلك الشعور العليل بوقت العصر. فهل سيكفيك هذا السند المعنوى فى أداء المهمة الجليلة..؟».

وانسقت وراء الإغراء الوارف إلى أن وجدتنى انغمس فى بحر آخر من ندى «النقيبة» . وفتحت هنية الباب البنى الثقيل وارتخيت على أول مترية صادفتنى . ثم انبعثت رقية من ركن من الأركان كالمارد المكلف بالحراسة الأبدية للدار واخترقت متلكئة الساحة الفسيحة. امرأة أنيقة كعادتها تأبى أن تستسلم للشيخوخة . وتساءلت بروح انتهازية : لم لا أضعها هى الأخرى داخل ردار عينى ؟ حراز الرأس والدفينة ذات الألوان الباردة والحزام الصقلى المجدول والشربيل ذو الكعب العالى. واكتشفت المرأة فى محياى أمارات الإنهاك فبادرت إلى نث عطر السكينة بين أرجاء الزليج . قالت بصوت بهيج :

« – سنهبط مرتين فى السبت القادم إن شاء الله» .

ولم أفاجأ بالقرار الأحادى الذى اتخذته رقية بعدما ألفت منها ذلك. فمن عادتها أن تتشاور مع فاطمة وترتب الأمور مع كمال ونجيب أو حتى مع هنية لتخبرنى فى نهاية المطاف بالقرار الذى يلزمنى تنفيذه. ولم تنس رقية الذكية أننى فى اليوم الأول من مرحلة العمر الأخيرة فأتت من بعيد لتحاصر بسياج مخملى كل نسمة كآبة يمكن أن تهب علينا . وبادرت من جديد :

«– حتى نجيب أقنعته بالذهاب معنا ... »

كنت أعرف أن الفتى الغارق فى بحر العشق حتى أذنيه قد كذب عليها أو أنها لم تحدثه فى الموضوع أصلا .

ونزعت الطربوش ووضعته بعناية فوق المترية. مسحت عرق الجبين ومسدت شعرى الأبيض. ثم رحت انظر فى قرار رقية المعاند لما هو ثابت فى يقينى . آه على أيام زمان حينما كان آباؤنا ينتظرون حتى تخف حرارة الصيف ويقترب فصل الخريف ويقصدون آنذاك «مرتين» للاستمتاع بهدوئه ولطف جوه بدل صخبه وحرارته المحرقة. لكن هل شخت حقا ونسيت تيهى كالطاووس على الشاطىء الذهبى أيام الفتوة؟ أما الولية فمازالت تتسلق صعدا سلم البهجة والنور بينما أهبط الدركات نحو الحضيض. إنى أدرك أنى عاجز عن إقناعها بأن السبت يوم مشهود مندرج فى الأسبوع المصيرى، وأنى لا يمكن أن أتخذ أى قرار إلا بعد يوم الأحد. من أين لها أن تدرى أن عبد الكريم لا يفتأ يكلمنى بصوت يخرج من بين شفتيه اليابستين كالفحيح المجوف، صوت يحيل كل متعة ممكنة إلى سديم جنائزى ؟ ونهضت رقية فى تثاقل للإشراف على إعداد المائدة، وحينما رفعت يدى لخلع الجلباب وخزتنى المعدة وخزة حادة طلبت على إثرها كأس ماء أذبت فيه قرص النورموكاصطريل. وتمهلنا حتى خف الوخز. ثم راحت رقية تلتقط بأناقة لقيمات من طجين السمك بالبطاطس والفلفل بينما اكتفيت بأكلة الحمية. تحدثت عن الحركة القائمة بين الجيران والأقارب استعدادا للأعراس . واستطردت إلى ماجد فى مضمار الملابس والتسريحات والعطور والذهب. وعرجت إلى بدعة تدخين بعض المدعوات فى حفلات الزفاف دون أن تعلق عليها. ولمحت إلى الرحلة المرتقبة لكمال وزوجته والصغيرة نعيمة لقضاء عطلة غشت فى «طوريموليونس». ونقلت عن بعضهم أن تكاليف التصييف هناك أقل من تكاليف التصييف فى «مرتين»، لكنها شككت فى الأمر، ثم توقفت عند موعد الجمعة فى بيت عبد الصمد. وبين رشفات ماء النعنع تجرأت على القول :

«– قد يتعذر على الهبوط إلى «مرتين» يوم السبت » ..

لكنها لم تسمع كلامي وتابعت :

«– مساء السبت سيكون معنا فاطمة ومحمود، وقد اتفقنا مع كمال على أن يحملنا بسيارته في الساعة الخامسة.. حتى نعيمة وأمها ونجيب سيذهبون..» .

وإزاء إصرار الولية اضطررت إلى تذكيرها بما لا تود سماعه :

«– لا تنسى أن حالة محمود يمكن أن تتعقد..» .

كانت فاطمة قد أخبرتنا في الصباح بارتفاع درجة حرارة الصغير. وأربك التذكير رقية فصمتت هنيهة ثم نادت على هنية لتنظف المائدة. وفيما أنا أرشف الماء المنعنع وأتهيأ للاسترخاء إذا بها تنثني لحسم الحوار بلطف بارد :

«– لن نستطيع التأجيل يوما واحدا. أنت تعرف مواعيد كمال المضبوطة. ثم إننا مدعوون إلى زفاف بنت التهامي «بمرتين » مساء السبت نفسه .. أما وعكة محمود فعابرة بإذن الله ».

وأسقط في يدي . وعندما اكتشفت أني محاصر من جميع الجهات لم يبق لي إلا الضغط على الجرح الدامي :

«– ونجيب.. هل سيذهب حقا؟».

انزعجت رقية ورفعت عينيها نحوي بوقاحة . كانت تعرف أن الفتى قد خرج لنا من الجنب، وأنه قد أربك كل برامجها وحتى برامجي. فشل في الحصول على البكالوريا على الرغم من أني لم أقصر في توفير كل شروط النجاح من أساتذة خصوصيين وإلحاق بالمراكز الثقافية الأجنبية . لكن نجيب كان يشرد وراء أحلام ضبابية ما كان لي لأن أفهمها . والحق أن لأمه اليد الطولى في تقاعسه عن متابعة الدراسة وانفتاحه على كل أنماط الصحبة. فقد كان آخر العنقود فدللته وهيأت له من أسباب الراحة فوق ما يحتاج . وربما لذلك أبدى منذ صباه ميولا واضحة نحو مطاردة بنات المدارس والإعداديات والتودد إليهن بالهدايا والخروج معهن في نزهات ورحلات.

وقالت رقية بانفعال واضح:

«- سبق أن قلت لك إنى قد أقنعته بالذهاب معنا.. فلماذا تشكك فى كلامى؟!! ..

لكنى كنت مدركا أن لا شيء من ذلك صحيح . ومع ذلك قلت فى انهزام لذيذ :

« - اذهبوا وحدكم وسألتحق بكم صباح الإثنين إن شاء الله .. » .

ونمت قيلولة طويلة عز على بعدها مغادرة المترية الوثيرة . وأغرانى الأسترخاء وجعلنى أحلم بقضاء ما تبقى من نهارى الأول مستلقيا أو متنقلا بمنامتى الفضفاضة بين الجدران الوارفة الظلال فأتقى بذلك حرارة الشوارع وتعب الضجيج . بيد أنى ضربت عن كل ذلك صفحا فى سبيل المهمة الشريفة .

عندما فتحت عينى وجدت رقية تكوى كومة من مناديل المائدة وتطويها بعضها فوق بعض بعناية وديعة فى شكل صفوف مربعة متصاعدة . وتوارى هنيهة إلحاح المهمة وفسح المجال لإحساس مغاير. كانت فترة ما قبل التقاعد وما صاحبها من انتظار ومتاعب إعداد اللوازم قد أنستنى النظر إلى رقية بوصفها مخلوقا ينتمى إلى الجنس الآخر. وعاشرتها طوال تلك المدة كما لو كانت كائنا بشريا يحسن الترتيب ويملك القدرة على الحسم والثرثرة، ويا ما رددت فى تلك الأيام ما كان قد قاله شحاذ نجيب محفوظ من أن «نشوة الحب لا تدوم ونشوة الجنس أقصر من أن يكون لها أثر ». أما الآن وقد عاينتها تنضد قطع الثوب فى هدوء وصمت مفعمين بالسكينة والاهتمام فقد تحركت فى نوازع الغريزة ، وألفيتنى اقرأ فى نظافتها وعينيها المسدلتين وأناملها الرقيقة نداءات جذب ورغبة ، وكلمتنى الظلال العليلة بلغة أدرك مفرداتها جيدا. لكن قلت لو أنى انسقت وراء النداء المغرى فسأتخلى حتما عن المهمة المقدسة . واستويت جالسا وانتبهت رقية إلى يقظتى من دون أن تكف عن الكى المتباطىء . وخمنت فى مكر :

« – ربما كانت قد أعدت نفسها لتجعلنى أعاينها وهى فى مثل تلك الهيئة الناعمة غب يقظتنى .. » .

وقررت أن أضع حدا لشيطان الوسوسة فتمتمت :

« – إن كيدهن عظيم » .

ولم تبال رقية بتمتمتي وإنما استأنفت حديثها عمن يحتمل أن نلتقيهم من الجيران والأقارب فى «مرتين» وعن ضيوف قد نرد لهم هناك زيارتهم لنا فى العام الماضى، وعن أعراس فى تطوان ستضطرنا إلى اجتزاء أيام من عطلتنا الصيفية. وخلال كل ذلك تفادت من الخوض في متاعب نجيب .

بعد العصر تطور ثقل المعدة إلى ألم واضح. وشكوت ذلك إلى رقية فى ضعف وأنا أتهيأ للخروج. وقلت فى ضجر غير مسئول :

« – ها هى العلة المزمنة تود أن تسفر عن وجهها الحقيقى فى هذه الأيام العصيبة كأنها تطالب بحقها للمساهمة فى ترتيب خطوات النهاية ... ».

وعادت رقية بقرص مهدىء ثان تركته يفور في الماء ثم ساعدتنى على ارتداء ملابسى قطعة قطعة .

تركت «النقيبة» وراء ظهرى ميمما شطر «الغرسة الكبيرة» اقتداء بالخريطة المرسومة فى الذهن . وتوقفت فى ساحة «تربيعة الكوزة». قد تكون أصغر ساحة فى الدنيا، لكن سحرها يتكلم باللغة الكونية. لغة ألف ليلة وليلة وندى الأندلس. المقهى المنفتح ودكاكين الخياطين أضحت يتيمة بعد أن اجتثت شجرة الجوز التى كانت تؤنسه. ولم تستطع الأعشاب القليلة التى تزين وسط الساحة أن تتخلص

هى الأخرى من كمدات اليتيم . وأجلت بصرى بين استغراب رواد المقهى ووداعة الأبواب والحيطان كأننى أستعين بسكينة الساحة الصغيرة على صخب الساحة الكبيرة التى تنتظرنى .

دخلت إلى «الغرسة الكبيرة» من جهة «الصياغين». وتوقفت لأسترد الأنفاس عند المدخل المفضى إلى «الخرازين». كنت ولا أزال أتخيل «الغرسة الكبيرة» مسرحا أوبراليا صغيرا تضطرم ارضه تمثيلا وحركة وقد أحاطت بالساحة أسوار قصيرة تشرف عليها نوافذ خشبية مهترئة وشبابيك حديدية صدئة وحيطان هرمة كالأطلال . ثم هناك عبق التاريخ المستكين المترائي فى «برج القصبة»، ومئذنة «مسجد لوقش» ومدرسته التقليدية المقفلة الآن فى حزن كئيب . ويتحدث التاريخ أيضا عن بهجة مغتصبة اضطرت إليها الساحة فى يوم من أيام ١٣٤٢ هـ حينما أقام أهل البلد مأدبة بين أرجائها احتفاء برئيس وزراء إسبانيا ميكيل بريمو دى ريفيرا . ويحكي الرهوني أن لا أحد من الرجال والنساء قد تخلف عن تلك المأدبة. فرشوا سوق «الغرسة الكبيرة» بأحسن الفروش وزينوا حيطانه بالحيطيات الرفيعة، وأحضروا أنواع الموسيقى الموجودة فى البلد من عربية وغيرها، ووقف فى وسطهم المحتسب محمد المودن تحت قبة عريش الأعناب المحفوفة بأوراقها الخضراء وأنوار الكهرباء فهزته الأريحية وخطب فى الحاضرين ..

واختفت اليوم من الساحة عروش العنب والياسمين فى حين صمدت الدكاكين والمقهى الأرضى ومقهى آخر معلق فوق السطح تفضى إليه درجات صغيرة كأنها صاعدة نحو السماء وتنفتح نوافذه الطويلة المطلية بالأخضر الباهت على فضاء الساحة. ومازالت ترن فى أذنى أصداء أغان جبلية رتيبة كانت تنبعث من نوافذ المقهى وبابه الطويل المقوس. لكن الساحة الآن تتكلم لغة أخرى. لغة الملابس المستعملة المستوردة من أوربا . وقريبا من درجات المقهى ثمة مدخل قوس يؤدى إلى فجوة درب مغلق هادىء وبارد يستعمل اليوم لتكديس الأثاث والملابس البالية. لكن هذه الفجوة كانت منذ عقود غير بعيدة تسمى بـ «القاعة» يباع فيها بالجملة

السمن والعسل والزبدة والخضر والفواكه وما تحتاج إليه المدينة من مئونة . وكان لهذه القاعة الغابرة دلال مشهور لم يبق من دون التفاتة واصفة من أديب تطوان محمد الخضر الريسوني ، ففى كل صباح كان يتأتى لك « أن تسمع صوتا حادا فيه بحة، وقد أخذ صاحبه ينادي بأثمان كل نوع من الخضر . كنت أقف أحيانا بضع لحظات لأتأمل الرجل . كان وجهه محتقنا يكاد الدم يتدفق منه. كما أن رأسه الأصلع كان داخلا في بقية جسمه، بحيث أن عنقه لا يكاد يبدو له أى أثر ، ولأشذ ما كان يبهجني أن أراه متفائلا مشرق الأسارير، وبالرغم من الازدحام الشديد والصياح المرتفع، وبالرغم من كونه يلبس ثلاث جلابات من الصوف الخشن ، فهو لا يغتاظ ولا يقلق .. كان في كثير من المرات يبتسم مزهوا لهذا أو ذاك ، وكيف لا يفعل ذلك وهو يدير أكبر أسواق الخضر بالجملة بتطوان » ..؟

فى أيام الصباح كان يحلو لنا أن نصعد الدرجات القليلة المختفية فى الركن الأيمن «للغرسة الكبيرة» تفضى بنا الى السطح فنطل منه على الساحة البهيجة المزدانة أطرافها بأعراس الكرم الخضراء مدعومة بقوائم خشبية وقد جلس تحتها البائعون مساء يفترشون حصرا ويشربون الشاى ويتسامرون من دون جلبة. كما كنا نعاين من خلال المرتفع الأسطح القريبة والبعيدة فتبدو لنا الدنيا غابة من الأسوار والعمد والنوافذ والقبب تقهر صبانا الغض. وها هى درجات سطح «الغرسة الكبيرة» تقبع الآن خاملة وراء شباك حديدى تستدعينى فى صمت تاريخى إلى الصعود فأعتذر ولا أستجيب. فقد افتقدت إلى الأبد فورة الصبا وغدوت أخاف من أن تزل بى حجرة من أحجار السطح المهترئة فاسقط على الأرض جثة تكفنها أكوام الملابس البالية التى تملأ الساحة. وحز فى نفسى ألا أتمكن اليوم من الإطلال على «الغرسة الكبيرة» من عل مثلما أطل أحمد عاكف على «خان الخليلى» العتيق.

وأفقت من عبق الماضي وتذكرت عبء المسئولية. اتجهت إلى الناحية القريبة من المقهى وتابعت بيع صينية نحاسية وأدواتها عن طريق الدلالة. الصينية دائرية

صفراء، ومزركشة، عليها أمارات البلى وإن احتفظت فى الوقت ذاته بقيمة مادية غريبة الصفات. وتهيأ لى كأن تلك الصفات لا تقل فى غرابتها وغمقها عن سماتى الداخلية التى ترغمنى فى لحظات ما بعد العصر على الاستسلام إلى الشرود البليل فى هذا الموضع حيث تتكاثف الحوانيت الضيقة والأثاث البالى والجديد ويكثر اللغط ويتكدس الجالسون فى المقهى الصغير يشربون شاى الزيزوة ويتابعون فى كسل ما يجرى فى الساحة الصاخبة كما لو كانوا يتابعون أطوار مسرحية يشاهدونها منذ عهد آدم. وفتحت المنخرين لأزداد استنشاقا لرائحة البلى الغميق المنبعثة من الملابس المطوية أو المنشورة ، والزرابى الملفوفة أو المبسوطة ، والوسائد المتراكمة ، والجلابيب المعلقة، والصوف المجموع فى أكياس، وأكوام الثياب التى تسد ثغرات الدكاكين أو يتوسدها بعض الباعة . كما فتحت عينى لعلنى أتمكن من مسح معظم ما طرح على الأرض من مسامير وأشرطة الفيديو ومجلات إسبانية مصورة وأدوات منزلية وأسرة وكراسى ونظارات وأسطوانات وقطع غيار السيارات وأجهزة الراديو وسجالات وطناجر نحاسية يجللها السماخ . وقلت فى حسرة :

« – آه لو رجعت نباهة الشباب وقوته لكنت قد أحصيت كل أداة وكل صنف مما ينتشر فى أركان الساحة ... »

ووقفت كالصنم فى فراغ ضيق من الرصيف، وقبضت يدى وراء ظهرى متناسيا ألم المعدة. ومر دلال بقشابته يلهث ويعرق. كان يشتغل بعينيه وحنجرته والصينية الكبيرة فوق رأسه والأدوات فى يده. وهرول صائحا ناظرا فى كل مكان.

«– أعطوا مائة درهم.. اعطوا مائة درهم .. » .

وسألت نفسى :

«– أية علاقة يحتمل وجودها بين لون البلى وكتابة رواية عن المدينة العتيقة؟

البالى المستورد عبر سبتة ليست له صلة بالعتاقة ، ومع ذلك هو يباع بين جدرانها مما يفترض وجود علاقة من نوع ما بينهما ، علاقة لا أظن أن عقلى المتعب يستطيع الاهتداء إلى تحديد طبيعتها » .

كانت نظرات أصحاب الدكاكين وبائعي خردة الأرض قد انتبهت إلى حضورى، وخفت أن ينهرنى أحدهم أو يأمرنى بالابتعاد عن حانوته ، فقصدت كرسيا عند باب المقهى الصغير وجلست جلسة رسمية شرعية لا مجال فيها للخوف. كأننى أشترى الأمان بدراهم كأس الشاى. ولم أنقطع عن اصطناع الدهشة في معاينة هذا الفيض من الأدوات. وعاد بى الذهن ثانية إلى سؤال الرواية والعتاقة والبلى فتاه فكرى فى دوامة معقدة شائكة كما لو أنى أضطر إلى معايشة ضيف ثقيل أحلم بانصرافه . وحوصرت:

«– من الأفضل لك أن تبالى بقرحة معدتك أو تنصرف إلى كنبات الكازينو بدل أن تعذب نفسك بسؤال ليس لديك جوابه ... » .

لكنى أردفت:

«– وهل أتخلى عن توطيد العزم الذى سأجابه به إهانة بنعيسى؟ هل أستسلم منذ يومى الأول ؟ » ..

وتسمرت في الكرسى أطلب المزيد . تابعت دلالة جلباب صوفى ثم دلالة زربية. استمعت إلى أحاديث وتبادلت جملا مع القهوجى . كنت أعرف منذ الطفولة القهوجيين الذين تناوبوا على هذا المقهى مثلما أعرف تاريخ أصحاب كل الدكاكين المحيطة «بالغرسة الكبيرة» . لكن الزمن الآن ليس زمنى ولا سحنات اليوم تتكلم نفس لغتى.

كان ضجيج الساحة وتداخل ألوانها يسكر ويغرى بالجواب لكنه لا يسعف به. وشربت من غير أن أرتوى وتلك هى مصيبة العتاقة ، تكشف عن بعض محاسنها وتمارس الإغراء ثم تصد. لكن صوت الحاج محمد السمار الرخيم صدح يؤذن للمغرب من «جامع لوقش» بذلك شرع الغروب ينسخ رهافة العصر فى رقة ناعمة.

التعب اللذيذ بعد يوم من العمل المضنى هرولت نحو غرفتى كالمنتصر فى معركة غير متكافئة . شغلت آلة التسجيل فصدح كوكب الشرق :

«أنا فى انتظارك خليت *** نارى فى ضلوعى وحطيت

إيدى على خدى وعديت *** بالثانيـة غيابـك ولا جيت

يا ريتنى عمرى ما حبيت »

جلست إلى المكتب الصغير. سويت الأباجورة، واستبدلت بنظارتى الخروج عيينتى القراءة . على يمينى استقرت كومة من الأوراق المستعملة المكتوبة من وجه واحد، أوراق التحاضير المدرسية وحصص الصلاة والمذكرات الإدارية وفيتشات سينما أبينيدا وسينما المنصور. فى البداية لابد من الكتابة فى الأوراق المستعملة لأن الأوراق الناصعة البياض ترعبنى ويعز على إتلافها بالتسويد . ومددت يدى إلى قلم باهت المداد لأشرع فى عملية التدوين. ولابد أيضا من التقشف فى المداد مادامت تجارب السنين الماضية جعلتنى أرتاب فى إمكانية تحقيق نتائج أدبية ملموسة . وغرقت فى لحظة صفاء فإذا بصبور «السوق الفوقى» و«الغراسة الكبيرة» تزاحم فى المخيلة ، وتناولت ورقة تحضير مدرستى فانساقت عينى تقرأ وجهها المكتوب .

وقطعت فجأة القراءة وغيبت الوجه المكتوب لأصبح فى مواجهة الصفحة البيضاء . لعبت بالقلم بين أناملى كأنى أغازل المجهول. وتناويت مدات أم كلثوم وآهاتها الرخيمة تكرر وتلح ، تكرر وتلح كصوت فتاة طعنها خنجر الغدر. وفى ثانية متناهية الصغر غدوت سيد الموقف. تأجج الذهن كخلية نحل وأشرفت على التنفيذ . لكن الولادة فى حد ذاتها عملية عسيرة وطال أمد القلم بين أصابعى . ربع ساعة ؟ نصف ساعة ؟ .. ساعة ونيف ؟ وقالت السيدة:

« أتقلب على جمر النار *** واتشرد وى الأفكار

وتسرب إلى المعدة قدر من التوتر خفت أن ترتفع حدته فتنشط القرحة للمرة الثالثة . ونهضت واقفا . تمشيت في الغرفة العابقة بالغناء على أمل أن ألم شعاث الصور . وانصرفت إلى طلب بعض الراحة الذهنية . تأملت خزانة الكتب وإطار الوالد وصورتي الحفيدين محمود ونعيمة ، وجذبتني ابتسامة نعيمة وسايرت عذوبتها الغضة. وبحثت عن سر ذلك بين وجوه كمال وزوجته وأمه . وأجزمت بأن جمال الصغيرة لا صلة له قطعا بملامح وجهي المنقبض . وقارنت بين نضاره محمود كما تشع في الصورة والذبول الذى حدثتنا عنه فاطمة في الصباح . ثم ذكرتني صورة الوالد رحمه الله بموعد الجمعة عند أخي وضرورة الاستعداد لذلك كما العادة. واستطبت الخوض في تفاصيل الموعد إلى أن أوقفت عنوة موجة الانسياق . وعدت إلى الكرسي لأجد معضلة نجيب تتلاعب فوق سطح الصفحة البيضاء. لكني قلت إن هناك رقية القادرة . وبحركة عنيدة أخرجت الدفتر الصغير وفتحته في عنوان «السوق الفوقي» .

« – حكاية التاجر القصير في السوق الفوقي ومع زوجاته الاربع » .

واستجمعت كل قوتي التخييلية حتى تمثلت الرجل أمامي بطربوشه ووزرته وصمته ، وغوتني ألحان زكريا احمد المتصابية فاختلطت صورة التاجر المطربش بصورة تاجر آخر معمم عرف في تطوان بصمته المطبق حتى قيل عنه إنه متزوج بجنية . وانتعشت بهذا الربط الموفق حتى تخايلت لي معالم قصة طويلة وطريفة عن تاجر صامت غريب الأطوار يعاشر جنية فاتنة عوض معاشرة إنسية. لكن سرعان ما تراجعت عن المضي في هذا السبيل عندما تذكرت أن معركتي القصصية ليست مع الناس في حد ذاتهم وإنما من حيث هـم منافذ للتسلل عبرهم إلى تصوير عتاقة تطوان واستخلاص رحيق مآثرها وعاداتها الأصيلة . واستحضرت من جديد التاجر الصامت القصير القامة وتمثلته متزوجا بأربع يسكن كل واحدة في درب من الدروب القديمة الجديرة بالتصوير . وفي خلوة تلك

الدروب تنشط كلماته الليلية ويعوض بها صمت النهار. وانتعشت ثانية ، ثم تناولت القلم وشرعت أرتب الجمل..

« إذا رمت بك الأقدار ذات يوم إلى دروب تطوان وأزقتها ، وآتيحت لك فرص التفرس في ملامح ساكنيها فلا تتوقف عند الملامح الخارجية والسمات الظاهرة . فإذا عاينت وجوها صامتة فاعلم أن كنوزا من الحكايات الناطقة. وإذا تأملت التقاسيم مليا فاعلم أن اخاديدها قد حفرت فيها معالم الشوارع الوديعة والساحات الصاخبة، والأحجار المغروسة والعتاقة الغميقة وإذا كنت لم تفز بعد بمثل تلك الفرص السعيدة دعني أنوب عنك في القيام بهذه المهمة فأروى لك قصة التاجر الصامت القصير وما وقع له من نوادر في السوق وما حدث له من طرائف مع زوجاته . تلك القصة التي جمعت تفاصيلها بحكم الجوار وحسن الإنصات لشيوخ «الوسعة» و «الفدان» العاطلين، الذين هم على لعب الضامة من المدمنين . بيد أني لن أحدثك عن زوجات التاجر المصونات . وأمزجتهن وجمالهن المتفاوت الدرجات حديثا مباشرا صريحا، وإنما سأعرج بك علي مقرات سكناهن في «باب العقلة» و «السويقة» و «السوق الفوقى » و «الزنقة الضويقة». وهى منازل اختارها التاجر بعناية وقصد بها أن تفى بالغاية ، لتكون بعون الله ملاذا للأولاد ، وللزوجات حرزا من عيون الحساد ...» .

وبتلقائية صبيانية استويت واقفا مفعما بالغبطة فرحا بهذه البداية الموفقة . وخاطبت فرا غ الغرفة :

«– إذا استمرت الأمور على هذه الوتيرة فلابد أن أتمكن من السيطرة على أكبر قدر ممكن من معالم المدينة العتيقة فأغدو بذلك سيد الدنيا ، ثم ليأت الموت بعد ذلك .. » .

وانفتحت أمامي ابواب الاختيارات. فكرت فى أن أشرك رقية فى هذه النشوة، أو فى الخروج للسريان فى أزقة «المطمر» ، او حتى فى الصعود إلى سطح الدار لمعاينة نجوم هذه الليلة المباركة لولا أن الكرسى ناداني من جديد وحثني على المتابعة :

« كـان التـاجـر الصـامت يسـمى قـدور وهو بما لديه من مـال ونسـاء قـانع، استطاع بفضل تقتيره وحسن تدبيره آن يجمع ثروة طائلة تعد بالملايين وعقارات هائلة وعشرات البساتين ، ولم يودع الرجل أمواله فى أى مصرف مخافة من أن تعرف. وقيل إنه يخبىء كل ثروته فى بيت عائشة الأثيرة، زوجته الرابعة ، القاطنة فى «السوق الفوقى» قريبا من الدكان ليلبى متى شاء نداء القلب الولهان . وعائشة لم تتجاوز الخامسة والعشرين ، بينما تعدى قدور على الستين . لكن ليس هذا مـهمـا، إنما المهم ان المصونة تتدلل فى شارع «الطالعة» حيث يملك قـدور دارا بطابقين خصصها كلها للزوجة المحظية ، تقديرا لدرجتها السنية ورتبتها العالية . ويجب أن تعرف أيها القارىء اللبيب أن «الطالعة» تلتصق «بأسوق الفوقى» مثلما يلتصق الشريان بالقلب والضلع بالجنب . وكما يقال : من قصد البحر استقل السـواقى. لذلك لن أحـدثك عن بيت «الطالعـة» إلا بعـد ان أصف لك «السـوق الفوقى»، هذا المرجل الصاخب والبركان الغاضب .. » .

– دقت الساعة الحائطية تعلن التاسعة ليلا موعد متابعة الأخبار الأخيرة من إذاعة لندن . كنت فى خضم النشوة فاحتدم فى الأعماق صراع خفى بين فرحة الاستعداد لوصف «السوق الفوقى» ومتعة الاستماع الى نشرة الأخبار. وتصورت أننى سأحرم من نصيب دنيوى دون سائر خلق الله إذا لم أتابع الأخبـار . وفى النهاية انتصرت العادة اليومية فأسكت أم كلثوم وفتحت المذياع . واستلقيت علي السرير انصت بإمعان . الكوارث والأزمات والدم الفلسطينى يجرى بحياد تام. وفي التـاسـعـة والربع أقـفلت المذياع وعـدت إلى المكتب لأعـالج الوصف. لكنى أحسست كأن الخيط بدأ يفلت من بين أصابعى . كان لموضوعات الأخبار سلطة فندمت لأنى كنت مرة أخرى عبدا للعادة ثم تساءلت بارتياب :

« – كيف يمكننى الربط بين وصف «السوق» والصفحات القصصية التى سبق أن كتبتها عن تطوان فى مرحلتى «مدرسة المعلمين» ، وزواج عبد الكريم؟ ثم هل المطلوب أن أصف أم أروى وقائع المكان أم أجمع بينهما ؟ » وسلمت بأن الجمع

هو الأليق لولا أنى قدرت صعوبة ذلك واعترفت بفقر إمكانياتى للقيام بتلك المهمة . وتذكرت كلمات بنعيسى المحبطة وتلمست فيها قوة صخرية من اليقين ..

أفلحت الريبة في التسلل إلى كيانى فسرح الخاطر يفحص سؤالا إثر سؤال. وسمعت أذان العشاء فقمت بتلقائية كأنى أود الفرار من براثن كابوس ضاغط . توضأت ، وفى أثناء تجفيف الأطراف مررت برقية من غير أن أكلمها لولا أنها تعمدت مرة أخرى توكيد تحكمها في أمورى :

« – سنتعشى مباشرة بعد الصلاة » .

واستفز القرار ما تبقى لدى من رجولة فعدلت عن الصلاة فى البرطل. لبست الجلباب على عجل وبادرت إلى «الجامع الكبير» ولم أردف صلاة العشاء بالشفع والوتر وإنما أسرعت إلى «الفران المسلس» وصورة محمود تلاحقنى . كان الصغير ذابلا حقا. حملته أمه إلى الطبيب فى المساء فشخص له التهاب اللوزتين. كان الهلع يتمكن من فاطمة كلما ارتفعت الحرارة ثم تعود إليها السكينة حينما تنخفض، فى حين ظل زوجها رابط الجأش مدركا لعدم خطورة الداء .

ولم يكن الولد فى وضع يشجعه على التشبث بي ، فراعيت ظروف غيبوبته ولم أوقظه . ثم عطفت نحو «النقيبة» .

وجدت طبق الشعرية بالحليب ينتظرنى . كانت رقية قد حدست القصد من خروجى المفاجىء فبادرت بالسؤال عن حال محمود فأجبتها دونما تهويل :

«– الحرارة والتهاب اللوزتين .. لكنه سيرتاح بعد أن أعطت له فاطمة دواء الطبيب .. » .

وعاتبتنى رقية فى تأثر :

« – لم ذهبت وحدك ؟ .. بى شوق عارم لرؤيته .. »

ثم مضت أبعد من ذلك وقالت فى تردد :

«– سأذهب لعيادته رفقة هنية .. الوقت ليس متأخرا بعد ..» .

لكن سلطة التقاليد دفعتني الى صدها بحزم عن الخروج ليلا :

«– قلت لك إن الولد بخير.. ألا تعرفين معنى ارتفاع درجة الحرارة ؟... يدلى هذه الساعة .. في الصباح إن شاء الله نزوره معا ..» .

استسلمت المرآة في انقباض . وبحركة وديعة وصامتة سلمتني مندبلا مخططا وضعته فوق ركبتي . وكان على المائدة إضافة إلى الشعرية طبق صغير بتفاحتين متوسطتي الحجم . وتمنيت لو أن الفصل ربيعي لنتعشى رغم الحمية فولا مطبوخا بالفلفل المسحوق والثوم والكمون. أما رقية فقد ألقمت فمها المقدود ملاعق الشعرية بأناة كأنها تؤدي خدمة مفروضة . ثم مسحت شفتيها بالمنديل ونظرت إلى بعينين مكحلتين عالمتين أذبل أغوارهما هم محمود . وتمثلت السبيل الذي ينتظرني خلال ساعاتي المقبلة فاستعددت للانصراف . لكن الولية كانت اسرع مني فهبت إلى تشغيل التلفاز المنصوب وسط الدار حتى لايتمكن منا الكدر . وترافصت على الشاشة صور جذابة باهرة الألوان تعرضها القناة الإسبانية الخامسة. واستسلمت هنيهة للاغراء أملا أن أجمع أطرافي بعد حين.. ونهضت فجأة دونما سابق تمهيد متجها نحو غرفتي ..

وحاولت في جلستي أمام المكتب العودة من جديد إلى «قصة التاجر الصامت» واستعنت بأم كلثوم . وألححت في التركيز الذهني إلى آن انتابني ألم خفيف في صدغي وفكرت في ترك «قصة التاجر» جانبا لأستأنف النظر في «حكاية صبي الحليب » أو في مراحل الدلالة التي تتبعها في «الغرسة الكبيرة» وازداد تغلغلا في تفصيل أماكنها وتعميق النظر في سمات البلى. وباشرت المحاولة الجديدة فاحتد ألم الصدغ حتى توجست من أن ينتقل من الرأس إلى المعدة . وخمنت :

«– لعله تعب الشيخوخة الذي لم أتعوده بعد » .

هكذا فتح الضعف الجسدي طريق الهزيمة أمامي حتى غدوت صيدا سهلا

لأى هاجس : انتظار مكالمة هاتفية .التفكير مرغما فى الحالة الصحية لمحمود، أو نجيب العاشق ، والعار المحدق بعائلتنا من جهة إبراهيم. وأحسست بالذنب مادمت أجلس فى سكون الليل جلسة هادئة وحفيدى تنهشه الحمى وتفنيه الغيبوبة وحفر الوخز الجرح فمشيت خطوات ملتمسا العزاء فى حصيلة اليوم الأول. ثم حرت بين أن أغتبط بمشاهداتى الدافئة والتسجيلات التى دونتها وبين هزيمتى أمام الصفحة البيضاء. وتساءلت :

«- هل ستتمكن خلال الأيام الستة الباقية من أن تبث المكان فى دمك وتجعله مثل الكريات البيضاء والحمراء ؟ » .

وأجابنى وخز المعدة فودعت أم كلثوم وهبطت الدركات باحثا عن موضعى جنب رقية القادرة ...

الطرانكات

رأيتني صحبة صديق لي غير محدّد الهوية، نمضي بعزم نحو وجهة نعرف طريقها جيدا، قصدنا مطبعة مبهمة ذات واجهة زجاجية عريضة ففوجئنا ببابها مقفلا على الرغم من أننا فى عز النهار والوقت وقت عمل، بل إننا عاينًا من خلال زجاج الباب والنوافذ العمال وهم يغدون ويروحون فى الداخل وإن لم نقدر على تمييز تفاصيل ما يقومون به، وضغطت على الجرس وانتظرنا زمنا حلميا، ثم ضغطت من جديد وقد أضحى الخوف يدب فى أوصالى من أن لا يفتحوا لنا الباب فأعود خائبا من دون تحقيق أملي، وبادلت صديقى كلاما بقصد التخفيف من حدة التوتر، معاودا بين الفترة والأخرى الضغط على الجرس، وبعد أن خمنا بأن الجرس قد يكون معطلا شرعنا ننقر زجاج الباب نقرا خفيفا تحول فيما بعد إلى ضرب ناعم بالأكف، ويظهر أننا قضينا معظم النهار فى هذه الوضعية لأن الظلام بدأ ينزل وخفنا من أن يمضى الوقت وينصرف عمال المطبعة إلى حال سبيلهم، لكن خوفنا تبدد لما رأينا من وراء الزجاج شابا يتجه نحونا مرتديا ملابس العمل الرمادية، وفتح الباب فتحة ضيقة تمكنت من خلالها أن أرى شبشب رجله وسمات الحياد التام على شفتيه، كان ينتظر منا كلاما فتوجست خيفة من أن أنطق بألفاظ قد تغضبه أو تعكر صفوه، قلت فى ارتعاش:

ـ جئنا من أجل الرواية الأخيرة لنجيب محفوظ.

كانت تلك الكلمات كافية لتجعل الشاب يخرج عن حياده البارد وترتسم على قسماته أمارات التحكم ونفاذ الأمر.

ـ ملازم الكتاب لاتزال مفصولة بعضها عن بعض!.

وشع فى أعماقى نور الأمل وقلت فى رجاء:

ـ نحن مستعدان للانتظار.

ولم يجب العامل وإنما تهيأ للانصراف، ولكنه قبل أن يقفل الباب التفت نحوى كأنه يكتشفنى ثانية:

ـ ألست الذى جئتنا قبل أسبوع ولخصنا لك الرواية فى صفحة واحدة؟.

قلت بامتنان كريم:

ـ أجل، أنا هو....

وعاد الشاب إلى حياده الأبدى ثم أقفل الباب فى وجهينا ورجعنا إلى الانتظار لكن بأمل كبير ورغبة جامحة فى أن نكون أول قراء رواية نجيب محفوظ الجديدة.

وبعد دهر من الترقب خرج إلينا الشاب وفتح الباب على مصراعيه حتى تمكنت من رؤية بهو طويل تملأ جوانبه آلات طابعة ضخمة وتصدر منه روائح كيماوية وهدير شبيه بأصوات قطار، أما فى عمق المعمل فقد تجمعت كوكبة من العمال بدوا كأنهم يتحدثون إلى بعضهم فى أمر بالغ الأهمية، ورجحت أنهم يتشاورون بشأن رواية نجيب محفوظ الجديدة بدليل أنهم التفتوا كلهم إلى ناحيتى فى وقت واحد وتهامسوا بكلام لم أسمع تفاصيله، ويظهر أن الشاب العامل قد انتبه إلى أننى قد استمتعت أكثر من اللازم بالنظر إلى ما فى المطبعة من آلات، واستنشقت من الروائح العزيزة فوق مايجب علىّ أن أستنشق، واستجمعت أكبر قدر ممكن من المعلومات عن المكان الغالى الذى حظى بشرف طبع كتاب المؤلف المصرى، لذلك بادر إلى رد الباب فى وجهينا وخرج إلينا وقد أمسك بأحد المصراعين ومدّ إلى نسخة من الرواية بوقار ومهابة كما لو كان يقدم سمكة طرية مباركة لاتزال مبللة بماء البحر المقدس، وعندما أمسكت بالكتاب وشممت رائحته المصرية شعرت بقلبى يخفق كمن عاد إلى حيه بعد طول غياب أو كمن عثر على قريب له ظل يبحث عنه قرونا، كانت رواية من القطع المتوسط كما هو الحال فى جل أعمال نجيب، صفحاتها قليلة وأطرافها مقصوصة، على وجهها نفس الصورة

المرسومة على غلاف رواية «قصر الشوق»، وشرع الشاب المطبعي يشرح لنا في كثير من التعالم العلاقة بين هذا الرسم ورسم الرواية الأصلية محاولا أن يعلل بطريقة ساذجة وغير مقنعة سبب إعادة طبع رواية جديدة بغلاف سبق أن ظهرت به رواية أخرى للمؤلف نفسه، وتركت الشاب يتكلم ولم أقاطعه، فقد كنت على علم بالسر الحقيقي لهذه الإعادة، مزودا بتفاصيل المعلومات التي يجهلها الشاب، تلك المعلومات التي جعلت نجيب محفوظ الحكيم يختار غلافا قديما لروايته الجديدة، حتى صديقي لم يكن على علم بالحقيقة التي أعرفها وحدي، وناجيت النفس في زهو:

ـ من الواضح أني في مستوى الأحداث.. فلأتابع الطريق بكل ثقة.

وتراجعت القهقرى من غير أن ألتفت.. تركت المطبعي يكلم صديقي وشرعت أتراجع رويدا رويدا إلى أن أفقت مرتعشا، واستويت جالسا فوق السرير ورقية تنظر إليّ في أمان:

ـ خير إن شاء الله!!..

بكرنا بزيارة محمود، كان الولد قد بدأ يفتح عينيه بفعل المضادات الحيوية والأقراص المانعة للحمى، وعندما سقط عليلا بالتهاب اللوزتين طلبت فاطمة رخصة قصيرة من الإدارة، وجدناها جنب سرير الولد، كانت حالته في تحسن وإن لم يستعد كل حيويته، تعب في الجفون وشهية فاترة، أما شيطنته فقد أضحت كأساطير الأولين، وبمجرد ما أن دخلنا غرفته حتى انقضت عليه رقية تقبله وتضمه إلى صدرها وهي تبكي مرددة أدعية مؤثرة حفظتها عن أمها وجدتها، صاغتها في عبارات مموسقة قادرة على تفتيت الصخر، ولم يتجرأ أحد منا أن يوقفها عند حدها وإنما تركناها تمارس دور الجدة بكل تلقائية، وفكرت لو أن بنعيسى كان حاضرا لفلسف المشهد على طريقته وارتجل قائلا:

ـ هي عاطفة الأمومة المكرورة التي تطمئن الإنسان غريزيا بأن استمرار نسله

مضمون، أو هي صورة من صور استشراف الخلود والتطلع إلى بلوغه..

وأوغلت رقية في أقوالها وحركاتها الوديعة إلى أن تمكنت من انتزاع بسمة من الولد، بل إنه شرع يلثغ بكلمات دلال تعوّد النطق بها خلال أوقات العافية، وعندما جاء دوري اتجهت نحوه فاتحا ذراعي، وسلمته عددا من «ماجد» مادمت لم أجد مجلة طفولية تناسب عمره، ثم أعطيته الشوكولاتة والدانون، وبادرت إلى تقبيل وجنتيه الدافئتين وإن منعني هزاله من أن أجلسه في حضني كما العادة، لكن لساني انطلق بمداعبات يجود بمثلها الموقف كلما اجتمعت بالصغير، والحقيقة أن صفحة الصفاء كانت مخدوشة في بيت فاطمة، وشرعت أتقمص بملامح شخصيات المجلة المصورة قصد إضحاكه «موزة الحبوبة» و«المساعد فهمان»، و«كسلان جدا»، كما أغريته بنزهات صحبة نعيمة إلى «رياض العشاق» وجولة في «حديقة الشلال» بمجرد ما أن يشفى، وسرح الولد حالما يستمع ببراءة إلى كلماتي ويتابع بنظراته الذابلة بعض الصور وقد ارتسمت على شفتيه اليابستين بسمة استسلام، وأقبلت فاطمة وناولته الشراب، كنت لا أزال أتذكر وشايتها اللئيمة بإبراهيم، وتعجبت كيف أمكن لبنت خارجة من صلبي أن تتشفى في عائلة عمها. إني على علم بأن رقية وفاطمة يلوكان في أحاديثهما السرية كلاما لا أريد سماعه عن عبدالصمد وزوجته وأولاده، ذاك نزق يغضبني دائما وقد يجعلني أثور ذات يوم، ماذا قلت؟، ذات يوم؟.. وانصرفت عن السؤال الصعب إلى قراءة ورقة الدواء فأثارت الحروف المطبوعة على الورقة الإحساس بالمسئولية التي تنتظرني.

قالت فاطمة:

ـ الحرارة انخفضت.. لكنه لايكاد يأكل شيئا، وذاك ما يقلقني.

وتناسيت أمر الوشاية وطمأنتها بأن فقدان الشهية حالة طبيعية في بداية النقاهة ستزول بزوال أعراض المرض.

ظللت جنب محمود وتركته يلعب بخيوط طربوشي تارة وبشاربي ثانية وبالمجلة

ثالثة، وتمثلت السيد أحمد عبدالجواد وهو يمازح أحفاده الستة، وأكبرت فيه قدرته على مسايرة عددهم الكبير، ومن فرط الجذوة السعيدة التى أججها محمود فى أعماقى تمنيت لو أهب ماتبقى من عمرى الغالى مقابل أن أظل ضحية عناده وشغبه، وتناسيت تحذيراتى المستمرة لفاطمة من تدليل الولد. وفى لحظة استسلامى حدست مرة أخرى أن محمودا سيكون امتدادا لى وسيكمل الطريق الذى قد أعجز عن الوصول إلى نهايته.

كان محمود أول حفدتى، ولد قبل نعيمة بنت كمال بسنتين، ومنذ أن بدأ يعى ظهر أنه يميل إلىّ أكثر من ميله إلى أبيه المسجون يوميا وراء مكاتب البنك، أو أمه الحائرة فى تقسيم وقتها بين العناية بابنها وبين أضابير المحافظة العقارية حيث تشتغل، وعللت هذا الوجود الحميم بينى وبين الصغير بوظيف والديه، لذلك كثيرا ما قضى معنا محمود أياما وليالى قبل أن ينتظم ذهابه إلى الحضانة، ولقد تعمدت بتأثير حوافز غامضة أن أقحمه فى حياتى وأسهم بقدر واضح فى تربيته، وعندما اصطحبه فى نزهات إلى «رياض العشاق» أو «الشلال» يساورنى حلم بأن أعدى الصغير بالمضى فى الطريق نفسه الذى لم أستطع بلوغ نهايته، ولقد اعتبرت نفسى فاشلا فى هذا المضمار لما أن تقاعست عن إرسال كمال ونجيب إلى المشرق، وإن عوضنى كمال عن بعض ذلك الفشل بتخرجه مهندسا، فى حين جعل منا نجيب أضحوكة بين العائلات، وفى لحظات اليأس كثيرا ما ضربت صفحا عن هذا الحلم الشرقى مشفقا على محمود من أن يعانى فى كبره ما عانيت إن هو ظل مثلى فى منتصف الطريق.

وغادرت دار فاطمة وأبطأت المشى بين الدروب وفى يقينى أن علة محمود لاتدعو إلى القلق مثل حالاتى المستعصية، القرحة والضغط والروماتيزم، وعلى إثر المفارقة سرت فى بدنى مسحة توجس أوحت إلى بأن مقدمات الوداع تظهر بالتدريج، أما محمود فأمامه عمر مديد يمكن خلاله أن يتلذذ بأحلامه الوردية، ستتيح له الدنيا طوال ركام من السنين إن شاء الله فرصا لارتكاب الأخطاء

وتصحيحها، أما أنا فقد تكون أمامي أيام معدودة لن أتمكن خلالها من أن أمسك بالأمل الزائغ كالسراب.. مع ذلك لابد من العمل على تنفيذ ماهو مقرر.

- ٣٤ -

أعددت عدتي من النعوت والأوصاف المحتمل استعمالها، قطعت تيار الفكر هنيهة وأغمضت عيني كما لو أني أمارس اليوغا، وشحذت القريحة ثم ملأت خياشيمي بروائح المدق والعباسية والحسين وخان الخليلي والغورية والسيدة زينب، واستحضرت صور المقاهي القاهرية التي تردد عليها نجيب محفوظ أو كانت له بها صلة، وأصبحت محفورة في الذاكرة مقهى عرابي، والفيشاوي، وكازينو صفية حلمي بالأوبرا، وسفنكس، وريش، ولاباس، وجنروبي، وعلي بابا، وقشتمر، والفردوس، ومقهى السيد عبده، وركس، ولونابارك، والمقهى الصغير في سوق الحمزاوي، ومقهى السي علي بالصنادقية، ومقهى المغلم كرشة بزقاق المدق، ومقهى بترو بالإسكندرية.

توكلت على الله وقصدت مقهى صغيرا محشورا بين جنبات «الطرانكات» والحق أن هذا المقهى كان مرصودا لدي قبل خطة ليلة «الفدان». كنت قد جمعت عنه انطباعات منجمة، وحفظت ألوان جدرانه وكراسيه الخشبية المتضعضعة وسحنات رواده غير الحليقة وإن لم أجلس فيه ولو مرة واحدة، وإنما كانت تكفيني نظرة جائعة مسروقة أمسح بها الحيز الضيق كلما مررت في طريقي من «النقيبة» نحو الكازينو أو الإعدادية، وكنت أشبه في ذلك الطائر الصغير الذي يبني عشه في أمد طويل، قشة قشة، وتبنة تبنة، وريشة ريشة، اجتزت قوس «السوق الفوقي» فهبت على روائح وأصوات وسمات «حومة الطرانكات» المتميزة، على يساري زنقة «الحدادين» المفعمة بروائح رؤوس وأكارع الماشية المشوية، والأعواد المحترقة في

فرن الحمام، والإسفنج المقلى فى الزيت، وأصوات الباعة ودقات طرق الحديد، ثم شارع «الشهيد عبداللطيف المدورى» المتأجج دوما بالحركة والزحام، وعلى يمينى زنقة «النيارين» وهى تحتضن فى وداعة بائعى الأوانى الطينية، وتقطر حيطانها بذكرى أنغام منحنية وموسيقى معذبة قريحة كانت تصدر من المقهى المواجه لدرب «سيدى أحمد بن عمر» عبدالوهاب وأم كلثوم وزكريا أحمد ورياض السنباطى والقصبجى، كأن الموسيقى الشجية مزجت بتراب البناء الرطب وحجارته وخلطت بالجير الذى بيضت به الجدران وتسربت إلى شحوب الوجوه ورافقت شرود العيون وتموجت معذبة إزاء انطباق الشفاه الصامتة، موسيقى معتقة ذات طعم كئيب وحليم يستحيل أن تسمعها فى موضع آخر بنفس طريقة سماعك إياها هنا، الجندول والكرنك وليالى الشرق ومضناك تتردد بين منعرجات «النيارين» بانسياب حزين لايسرى إلا هنا، وفى شوارع أخرى تستدعى مسامعى أنغام فريد الأطرش وعبدالحليم والحسين السلاوى، أما زوايا «النيارين» وشقوقها ومنحنياتها ودخان كيفها وعطر شايها فتعيد صياغة ألحان وكلمات عبدالوهاب وأم كلثوم وزكريا صياغة لا مثيل لها فى كل الدنيا.

اقتربت من المقهى المرشح للتصوير وتسللت إليه خافض الرأس دونما سلام كى لا أثير الانتباه وجلست على كرسى منزو، وكما هى العادة فى مثل هذا الموقف الجديد فقد هجمت جيوش التفاصيل الوصفية على المخ طفرة واحدة، كنت واثقا من أنى مقبل على عمل إنسانى سام، ورفعت بصرى فى أناة للشروع فى التنفيذ، مقهى ضيق مكتظ لا لافتة له شأن المقاهى الشعبية فى المدينة، حيز أوسع قليلا من دكان، ألوان بنية ورمادية وأخرى لا أجد لها أفضل من نعت الكآبة، لم تكن ثمة ألوان ناصعة على الإطلاق، باب مشرع دوما ونافذة مربعة صغيرة يتسرب منها الدخان والهمهمة وأنغام الراديو، ومن خلال الباب والنافذة تتراءى حركة المرور الكثيف، وفى الواجهة الداخلية وجاق ضيق ذو رخام غميق اللون يقف خلفه رجل بطربوش تركى يعد كؤوس القهوة والشاى المنعنع فى الزيزوة، أما أبناء

المقهى فقد تجمعوا حول موائد دائرية، متكاتفين ملتصقين بعضهم ببعض كأنهم أسرة آدمية واحدة ذات هموم وأحلام مشتركة.

من أين سأبدأ؟.. الجلابيب والطاقيات والملابس المكسورة والأذقان غير الحليقة، الضحك الهستيرى ورائحة الكيف النفاذة، الدخان موضوع لافت، هو سيد هذه العلبة المكدسة، وماذا عن النشوة المتلألئة فى وجوه لاعبى الدومينو والبارشى والورق؟، كل شىء فى الحقيقة لافت ومغر وليس الدخان أو النشوة وحدهما، والصياح؟، والكلمات البذيئة؟.. وصندوق الراديو؟، وماذا عن الجدل الملتهب الذى يحتد بين لاعبين خصمين، تسمعه يعلو ويعلو حتى تتيقن بأنه سينتهى لا محالة إلى صراع بالأيدى والرؤوس والخناجر، فتهتز له أحشاؤك ولكنه يتراجع رويدا رويدا كما تتراجع الموجة فى أمسيات الصيف، ثم يتلاشى الجدل ويتحول إلى ما يشبه الوئام، لا ، الوئام ليست كلمة مناسبة، المشادة الكلامية بين الخصمين تدخل فى عرف اللعبة ولوازمها، وكذلك لحظة الوفاق البارد التى تعقب المشادة، بيد أن الوفاق لايدوم طويلا، لذا كانت كلمة الوئام غير مناسبة لاتنطبق حتى على اللاعبين المتحدين ضدا على الخصمين، تملل المقهى كله من الزيارة الغريبة، ولم يلبث القهوجى طويلا حتى وقف أمامى بعينيه الناعستين من دون أن ينبس بكلمة، إنه يعرف مسبقا أن من هم فى مثل هيئتى سيطلبون شايا أخضر بالنعنع، وطلبت شايا خفيفا بالنعنع، وانصرف بلا مبالاة، كان الرجل يقوم فى آن واحد بمهمتى إعداد الشاى وتقديمه، وتساءلت:

ـ ماذا بعد النادل والكيف وخصام اللاعبين؟، أين هو الحدث القصصى فى كل ذلك وكيف الوصول إليه؟ هل أغامر واحتك باللاعبين وأنساق مع المغامرة وإن أفضت إلى سب وعراك بالأيدى؟، ثم هل يمكن من خلال هذا السبيل المغامر أن أكون فى مستوى عتاقة المدينة؟.

وتواردت فى الخاطر حكايات مقاهى «الفدان» القديم، مقهى الدحمان، ومقهى غطيس حيث كان يجلس البطل التركى وصحبه من هواة الدراجات الهوائية،

بالشوي الذي كان يحتله السي مفضل ليلعب الورق دونما احترام لقانون اللعبة وهو يغمغم ولا يبالي بالمارة. واختلطت بتلك الحكايات صورة المعلم كرشة وقد وقف عند باب مقهاه «بزقاق المدق» يلتفت في قلق يمينا ويسارا منتظرا فتى أحلامه، ثم حل محل المعلم نجيب محفوظ نفسه وهو يضع رجلا فوق رجل ويدخن النارجيلة على رصيف مقهى الفيشاوي، واستدعت النارجيلة صور فرج إبراهيم والحرافيش عاشور الناجي وقد جلس كل منهما جلسة مغبرة تنطق بالهوى أو المغامرة. تلك هي العبقرية الحقة متمثلة في القدرة على استخلاص الحدث المنسجم مع موقعه القصصي المخصوص بدل الاعتماد على الحكايات الجاهزة أو اللوحات الوصفية الجامدة.

ومع مرور الوقت اكتسبت عيون اللاعبين المناعة والألفة الكافيتين لإطالة النظر نحوي ثم العودة من جديد للاهتمام بخدع اللعبة، هي نظرات شعبية غنية الدلالة، تمرح وتذبح تعطي وتتآمر، تجرح وتداوي وتقول كل شيء، هل نسيت لحظة التقاء أشهر نظرتين شعبيتين في تطوان؟، نظرة السي مفضل ونظرة أزرع كون؟، يومها استخلصت درسا عميقا من دروس لغة العيون. كنت واقفا أمام واجهة «مكتبة الكرفطي» بـ «الساقية الفوقية»، السي مفضل الحافي القدمين يهبط الطريق بتؤدة، يدير رأسه المثير هنا وهناك كأنه لايرى وهو يرى، الجلباب القذر وآثار السعوط والمخاط على الوجه و... التي تسبق الخطوات، أما أزرع كون فقد كان صاعدا الطريق يمشي في أبهة الطاووس، وجه شديد السمرة، فم واسع فوقه شارب رقيق، قامة قصيرة فيها قدر من القزمية، وملابس مكسورة لكنها ملابس ضابط عسكري. القبعة الدائرية، والجاكتة الكاكية المحملة بالنياشين الزائفة، والقميص البيج، وربطة العنق المرتبكة، والجزمتان الطويلتان السوداوان، وتتويجا للفخامة العسكرية أمسك الرجل بيمناه سوطا رقيقا وأسنده عموديا على صدره، في حين مشت الكلبة الصغيرة المسالمة بين رجليه كأنها تقوده. كلبة قريبة من الأرض، خفيفة الظل والحركة، ذات شعر كثيف أغبر يكاد يحجب عينيها عن

الرؤية، تخطو أربع أو خمس خطوات ثم تلتفت نحوه كأنها تؤكد الاتفاق الضمنى المبرم بينها وبينه، لاتديم نحوه النظر ومع ذلك فالانسجام حاصل بينهما، واقترب الرجلان من بعضهما فأوليت المكتبة ظهرك لالتقاط لحظة تاريخية لن يجود بمثلها الدهر، السي مفضل هابط نحو المدينة العتيقة وازرع كون صاعد نحو شوارع المعمار الأوربى، والتقت النظرتان فتوقف التاريخ، هل يعرفان بعضهما؟، من المؤكد أن أزرع كون الارستقراطى السمات يعرف السى مفضل الأهبل، فى نظرته الأنيقة احتقار لقذارة الرجل، لكن الأهم من ذلك هو استشراف البريق الغامض فى عينيه وقد عكس موقفه من هالة الكرامة التى يضفيها بعض العامة على السى مفضل، ذاك البريق الغامض هو بعض الدرس المستفاد، أما البعض الآخر فتعكسه نظرة السى مفضل التى لاتدخل فى اعتبارها أى أحد: هل تكون هى الأخرى قد أدركت أنها أمام مخلوق غير عادى؟، نظرة الشرود فى دنيا الخوارق والمتناقضات والسخط والرحمة والعجائب والكرامات فى مقابل نظرة الأنفة والاعتداد بالنفس والإيمان بالأصل والاعتزاز بالذات حتى وإن كانت الذات تكابد هول السقوط فى الهاوية، نظرة السى مفضل الشيخ الفحل الواسع الرقبة تتكلم فى وسط المدينة العتيقة بلغة البداوة والجبال والسواقى والأحراش وتغلف كل ذلك بسمات الجذبة اللامبالية، فى مقابل نظرة أزرع كون الأنيقة، الرقيقة والمدنية، وتحققت المواجهة بين الرجلين وهما يمشيان فى اتجاهين معاكسين، وكاد أن يحصل الاصطدام بين القامة العريضة والرجل القليل لولا أن تجنب أزرع كون وأخلى السبيل للآخر ثم التفت نحوه متأففا ومسحه بنظرة استعلاء وتنكر من الأسفل نحو الأعلى، فى حين مضى السى مفضل ينحدر رافعا رأسه نحو عنان السماء كأنه سيد الدنيا باحثا عن مكان فى قارعة الطريق ليتغوط فيه.

آنذاك تعلمت بعض أبجدية العين الشعبية وقلت: إن الحقيقة تبدو فى أنصع تجلياتها عندما تلتقى نظرة أهبل بأهبل.

ثم عدت إلى عيون اللاعبين فاكتشفت أن جو المقهى قد تسرب إليه تغير

واضح، فتور فى إيقاع اللعب وانخفاض متدرج فى نسبة الكلمات البذيئة وتوارى أدوات الكيف تواريا كليا، وحلت روائح السجائر محل الرائحة النفاذة، ولم يكن التغير الطارئ فى صالحى فاضطررت إلى تمثيل دور الزبون السوى الذى لايترك عينه تستقر على شيء، ثم بادرت إلى تحفيز النفس:

ـ كيف كان سيتصرف نجيب محفوظ لو قدر له أن يرفع من مقهاه القاهرى وينزل وسط مقهى الطرانكات؟.

الحق أن مثل هذا السؤال كان يتردد فى الأعماق مرات كل نهار إزاء أى مظهر عتيق من غير أن يفضى إلى جواب ناجع، لكن الضجر التام لم يعرف طريقه إلى النفس وإنما اعتبرت السؤال امتيازا ينير خطواتى التائهة فى غياهب المهمة التى أغرقت فيها نفسى بنفسى.

قدم لى الرجل المطربش كأس الشاى دونما بشاشة، والواقع أن المقهى كله لم يستسغ حضور وافد غريب ولم يبد أى مظهر من مظاهر الترحاب، فالوجه الحليق والعينان المختفيتان وراء النظارتين الذهبيتين والصدغان الأبيضان والجلباب النظيف والصمت المريب قد أضفى علىّ هالة من الوقار غير المنسجم مع عبوس المقهى، أضف إلى ذلك كله نظراتى الزائغة التى أثقب بها الوجوه وأتابع بها حركات الأيدى، وأكيد أن رواد المقهى ظنوا أن الزيارة ستكون عابرة لا محالة إذ ليس من عادة رجل وقور أن يقتل وقته بمثل الطريقة التى يقتلونه بها، وبدت على محياى رغبة جامحة فى التقاط الكلمات، وكان رد الفعل غضب خفى سرى بين اللاعبين، كما لو أنى مخبر لشركة التبغ.

وظلت حرقة السؤال القصصى تستثيرنى وأنا فى موقفى المشبوه، وانطلق أصحاب المقهى يلعبون ويراوغون حسب هواهم ورأيت فيهم مادة خام تمتنع عن أن تسجن ضمن نطاق الفصل الروائى المتربص بهم، وتمنيت لو أن اللاعبين ساعدونى فى مهمتى الصعبة بتوضيح بعض مخارج الحروف وعدم السرعة فى الكلام والإقلال من نفث سحب الدخان فى سقف المقهى الضيق، وخاطبت نفسى كما لو كنت أخاطب أشباحا وهمية.

ـ هذا العبد الضعيف بصدد إنجاز مهمة ثقافية من شأنها أن تفيد الإنسانية قاطبة.. نعم الإنسانية قاطبة مادامت اليونسكو نفسها قد اعتبرت تطوان العتيقة تراثا ثقافيا وإنسانيا، ومن أجل ذلك هلا تفضلتم بالتنازل عن فتوتكم وبحتم ببعض أسراركم الشخصية؟، ماهي هويتكم الحقيقية؟، هل أنتم أخيار أم أشرار؟، لماذا يبدو من المستحيل أن أذوب في جوكم وأغدو واحدا لاينفصل عنكم؟.

وكما كان منتظرا لم يعمل الرواد على تلبية رغبتي وإنما صدرت عنهم أفعال وأقوال ممعنة في الاستفزاز، كانت أعواد السبسي قد اختفت منذ أن استقررت في مجلسي، لكني أصبحت الآن أشم الكيف وقد امتزج بروائح السجائر من غير أن تكون ثمة أعواد، تلك طريقتهم الخاصة في تدخين الكيف وقطع الهاش المضمن في اللفائف، ودخل بائع اليانصيب الأعمى فاستقبلوه بتعيير أمه بكلمات لوطية ورد عليهم بكل هدوء بما هو أفظع منها، وبعد تحية الاستقبال سألوه عن أرقام بعينها فرد عليهم بذكر الرموز الإسمية للأرقام الموجودة لديه:

ـ السكيري....

ـ الشرفا......

ـ الموت .....

ـ المخزن .....

وصاح أحدهم في وجه الأعمى ثم التفت إلى ناحيتي:

ـ عندك الواحد والسبعون؟.

وقهقه الجميع، كان الرقم المذكور يقابل في لغة اليانصيب العميان رمز «الأستاذ الصغير» في حين يقابل رقم مئة وواحد وسبعين رمز «الأستاذ الكبير»، من المؤكد أن الصائح قد عرفني وعرف رتبتي الوظيفية ثم أفشى السر فانكشف خواء سوقي، بعد ذلك مباشرة عادت أدوات الكيف إلى الظهور من جديد ونشط شره التدخين وتعمدوا أن ينفثوا إلى ناحيتي سحبا متتالية كادت أن تحيل الحيز الصغير إلى حمام تركي، ودمعت عيناي واختنقت لكني ظللت صامدا ملتصقا

بكرسى آملا أن يجود المشهد بحادثة طريفة توازى فى طرافتها إحدى درر «زقاق المدق». بل إن الاختناق وانكشاف الهوية لم يمنعانى من أن أستمر فى الاستمتاع بتلك الغبطة السعيدة التى تسبق دوما عملية الخلق، فليس ثمة إبداع من دون مكابدة. ذاك ما باح به البحترى ونجيب محفوظ نفسه حينما طالب الكاتب بأن يتسلح بعناد الثيران. وانساقت بى الغبطة وغدا ذهنى كالمرق الخاثر وحلق بى بين الحين والحين فى سماوات لم يكن لى بها عهد. كان الإحساس البوهيمى بالطيران ينبت في كيانى دفقة دفقة حتى خيل الى أنى على مشارف الحكايات الألفية، وأنى قاب قوسين أو أدنى من تحقيق الانتصار القصصى الذى طالما راودنى . وقالت لى حكمة السنين إن مثل هذه الأحاسيس لا يعرفها المرء كل يوم، وإنما هى عتبة الإبداع يجود بها القدر فى أوقات مخصوصة من العمر ويمن بها على أناس محظوظين. ولاشك أن نجيب محفوظ قد أنعشته مثل هذه الأهواء قبل أن يكتب روائعه. أما بالنسبة إلى فتعنى هذه الغبطة أن الانتصار قريب لا محالة وأن الحدث الطريف محبوس بين جدران المقهى الضيق. إن الإمساك به ممكن، ممكن جدا، ربما من خلال طربوش صاحب المقهى، لا .. لا .. ليس من هناك، وإنما من موضع آخر يخص الرجل فى نفسه وهمومه ووقائعه الخاصة التى لا أدرى عنها شيئا، قد يكون حاله شبيها بحال المعلم كرشة القهوجى المصرى الذى أكاد أعرف عنه كل شىء بينما يقف على بعد مترين منى قهوجى «الطرانكات» غامضا مجهولا كما لو كان من زوار المريخ.

وسدت صورة المعلم كرشة كل منافذ الاحتمال وكادت مخالب الهزيمة أن تظهر من جديد. ونقلت الفكر الى اللاعب الغض الذى يرمى الورق على الطاولة برشاقة غزال وينطق بألفاظ نابية لا تتسق ونضارة شبابه وشقرة شعره. فما السر فى شعوره العميق بالانشراح فى هذا الفضاء المضغوط؟ واذا كان قد طرد من الثانوية فهل حاول جاداً العثور على عمل؟. إن قصص المطرودين والعاطلين والمهاجرين والمدمنين كثيرة لا تمثل فى ذاتها أية طرافة فنية. بل إن مرارتها تفوق

أية طرافة. ولكن لم لا يكون وجود الفتى هنا شبيها بوجود الفتى الجميل فى مقهى زقاق المدق؟. استغفر الله العظيم، وإن بعض الظن إثم. ووجدتنى أقاوم التفكير فى شذوذ المعلم كرشة وموبقاته وما جرى له مع زوجته أم حسين بسبب الفتى الوسيم.

وجعلنى انحراف فتى «المدق» أفكر فى مأساة ابن أخى. إننى لم أدرك أبدا سر التحول الحقيقى الذى حدث لابراهيم. ومن المؤكد أن رقية لم تطلعنى على كل ما تعرفه عن هذا الموضوع. ومع ذلك فقد شاع بين الجميع أن ابراهيم يدمن الخمرة، فقد زادت فترات صمته وشروده حينما يكون فى الدار. شحب وجهه الى حد الزرقة، وفقدت شفتاه نضارتهما فبدا شاربه الأسود فوقهما غير منسجم مع الوجه الشاحب. كما أضحى عنيدا ملحاحا فى طلب مزيد من المصروف المالى الى درجة أن أباه البشوش غدا كثير الانزعاج مترقبا حصول كارثة اقتصادية بسبب الطلب المتزايد.

وبدأت آثار الغبطة السعيدة تتلاشى بالتدريج. فانحراف ابراهيم كدر الصفو وأكد لى اننى شيخ بالفعل وأن عديدا من الأسباب والمستجدات أضحت تغيب عنى. بنعيسى ورضا يحدثانى عن هموم أخرى لا أجد صعوبة فى استيعابها. أما هموم وأحلام شباب اليوم فلا أكاد أعرف حقيقتها بسبب الحصار الإعلامى المضروب علىّ وسط العائلة. لقد شخت حقا وخسارتى فيك يا إبراهيم كبيرة. وللأسف خاب الرجاء فى الاعتماد عليكما أنت ونجيب لتوطيد مجد العائلة وتحقيق الحلم المشرقى.

وأفقت من أحلام يقظتى على إثر الصياح المتعالى. صاحب المقهى رفع عقيرة الراديو ، واللاعبون أضافوا الى الدخان الكثيف لغطا يكاد يخترق طبلة أذنى. ولم تكن حواسى فى كامل قوتها حيث تستطيع أن تتحمل كل ذلك الضجيج. وحتى قبل أن أصل الى سن التقاعد مثل الصمت بالنسبة الىّ قاعدة، فى حين كان الصخب استثناء أبغضه وأفر منه كلما استطعت الى ذلك سبيلا. بيد أنى لم أكن

الآن فى موقف الرجل الذى يلزمه مراعاة شروط صحة البدن: فالمقام مقام شغل وتنفيذ رسالة ولا داعى للشكوى. غير أن اللاعبين كانوا جماعة وأنا فرد أعزل. كنت أروم غاية شريفة حلمت بها منذ سنوات وعزمت اليوم على انجازها. أما هم فقد انطلقوا على سجيتهم يحيون لحظتهم الآنية ولا يبغون عنها بديلا. ومن المؤكد أنى أمثل اليهم منغصا ثقيلا لم ينجح الصياح ولا الدخان فى ازاحته فكان لزاما أن ينتقلوا الى الخطوة القادمة حيث أمعنوا فى سب بعضهم بعضا وفى تبادل الكلمات الجنسية والصور الكلامية الفاحشة. ثم انهم لم يكتفوا بذلك وانما أضحوا يتكلمون ويلحون على أن تلتقى نظراتهم الوقحة بنظراتى المتعبة بقصد الإحراج، الى أن أفلحوا فى جعلى أتململ فى مجلسى وأفلت الخيط القصصى من بين أصابعى. هكذا هبط من سماء الإلهام الى مستنقع الدخان فاستسلمت.

كانت كأس الشاى قد خثرت حينما قرأت فى وجوه اللاعبين خططاً أخرى تجاوزت الصخب والحشيش والبذاءة. ثم أديت ثمن الشاى وأيقنت أنهم القادرون وأنا الضعيف.

– ٣٥ –

وصلت الى الدار تتعاورنى أحاسيس النشوة والإحباط. كنت فى عجلة من أمرى أطلب الخلوة لكي أمتص الفورة الداخلية التى أججها المقهى العنيد. لكنى فوجئت بنجيب مستلقيا على المتربة يتابع صور التلفاز وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة الانشراح. ومنذ عهود غابرة لم أعد أعرف متى يظهر نجيب ومتى يختفى ولا أعلم كيف يصرف هذا القدر الهائل من الحرية التى غدا يستمتع بها بعد أن تخلص من كل التزاماته تجاهنا.

كان نجيب قد كرر البكالوريا سنتين متتاليتين وأضحى بعد رسوبه فتى

عاطلا. وجربت أن أشغله بأمور البيت وجبي أكرية العائلة وتوزيعها وتسوية مسائل الضرائب والعمليات البنكية بعد أن تنازل عبدالصمد عن هذه المهمات عن طيب خاطر. في تلك الأثناء تعرف نجيب الى كريمة عندما كان يقصد سكناها «بالباريو» لتحصيل واجب الكراء. وحسب رواية رقية فقد كانت البنت تفتح له الباب في نهاية كل شهر وتستقبله بزيها المدرسي ورشاقتها الجذابة لتسلمه الأجرة أو لتخبره بغياب الوالدين. ولقد تمكن نجيب بحكم موهبته في مطاردة البنات من معرفة الاعدادية التي تتابع بها دراستها وضبط أوقات دخولها وخروجها فأفلح في توطيد علاقته بها. وعندما احتدت المعركة بين والد كريمة وعائلتنا حول متأخر الكراء ووصلت القضية الى المحاكم والمحامين كانت العلاقة بين الفتى والفتاة قد دخلت مرحلة الحب العنيف الذي لا يعترف بالحدود بله أن توقفه خلافات الكراء والمرافعات القضائية. وذات يوم رأيتهما في «الحي المدرسي» من دون أن يرياني. كانت كريمة تمشي في رشاقة جنب نجيب تحرك يديها ورأسها حركات تنم على ذكاء وثقة. فتاة ممشوقة تميل الى القصر، ذات شعر أسود مقصوص بعناية مدروسة فوق الجبهة ووراء العنق. وبسمة لا تفارق الشفتين. ولدت وترعرت في حارة «الباريو» فتشربت انفتاحها وخفتها. وأنبأتني حركاتها بأنها قد ورثت عن أبيها قدرا من سمات المواجهة والتحدي. وحيث إني لم أسمعها تتكلم فقد ظلت بالنسبة الى مخلوقا غامضا شأنها شأن أمها. لكني كنت أعلم أن نجيب قد تمرس بعديد من أصناف العواطف النسائية فعرف كيف يتعامل مع هذا النمط من الغموض المختبئ وراء البسمة والرغبة في المواجهة .

انتفض نجيب واقفا وقبل يدي. وجلست على نفس المتربة قريبا منه وأنا أسترد أنفاسي. ولم تكن لدى أدنى رغبة في أن أنبش في الرماد الحامي. ومسحت عرق الجبين وقلت :

«– لقد عزموا على الذهاب الى مرتين مساء السبت وقيل لي انك سترافقهم».

ابتسم نجيب ورد في فتور :

«– اذا كان ذلك يرضى الوالدة سأذهب..».

وأقبلت رقية نحونا بتؤدة كأنها تحذر من أن تجعل الطائر ينزعج عن عش فراخه. وجلست على حافة السرير متحفزة.

فى البداية عندما علمنا بعلاقة نجيب بكريمة تشجعلت ووجهت له كلمات محذرة لكنها لم تكن أبدا قاسية. قلت له إن أصولنا العائلية تقتضى أن يحافظ كل منا على التقاليد وأن نبذل قصارى جهدنا لكى نظل متماسكين . ولم أدخل معه فى التفاصيل وتركتها لرقية التى انبرت له مستغلة كل فرصة لتصده عن تلك الفتاة. بل أنها لم تتقاعس وذهبت بنفسها ذات يوم الى «الباريو» صحبة هنية وأغلظت القول لأم كريمة. لكن هذه الخطوة زادت الحب تأججا بين العاشقين فهدد نجيب بمغادرة الدار الى الأبد لو أمعنت أمه فى التدخل فى أموره الشخصية.

ظل نجيب محتفظا ببشاته وهو يتابع صور الشاشة الصغيرة. ونظرت الى رقية كأنها تستحثنى بعينيها لكى نحاصره معا. وبدأت مداعبة.:

«– هاهو الغزال قد عاد بعد طول الغيبة» .

وأمنت على قولها :

«– عاد ليبقى جنبك ويصاحبك الى مرتين ويجلس معك على الرمل ساعة الغروب» .

وابتسم نجيب ثم أردف متأخرا :

«– أنا رهن اشارتك ياماما، لا أبغى الا رضاك ولن أعصى لك أمرا» .

واغترت المرأة بالجواب وبدا كأن ماضى الطاعة على وشك الرجوع .

كان نجيب قد أضحى يعيش فى استقلال بعد أن استعنت ببعض معارفى وألحقته موظفا متدربا فى البنك. لم أكن قد قطعت اليأس بعد أن يتابع الفتى

دراسته، لكني رضخت فى نهاية الأمر وقمت بتلك الخطوة بإيعاز من رقية قصد تضييق الخناق عليه وجعله يشغل معظم وقته بعمله البنكى المنهك. لكن كانت ثمة الأمسيات وفترات الغداء وعطل نهاية الأسبوع. بل إن الوظيفة شجعته على اكتراء غرفة فوق سطح عمارة بحارة «سيد طلحة» فغدا بذلك قريبا من كريمة وراحا يفكران فى الزواج.

قالت رقية :

«- لا تنسيا أننا مدعوون جميعا الى زفاف بنت التهامى مساء السبت القادم. حتى أنت مدعو يانجيب. قالوا انهم سيقيمون العرس هذه المرة فى قاعة للحفلات».

وفيما كانت رقية تتحدث بجدية وشجاعة راح نجيب يمعن فى سخريته:

«- وماذا بعد ذلك؟» .

ردت رقية متوترة :

«ذلك يعنى أن تظل الى جنبنا وتفرح معنا وتبقى ولد الناس كما هو منتظر منك».

«والآن ألست ابن الناس؟. ألم أقل لك قبل إنى لا أبغى الا رضاك؟...».

وأتمت المرأة ما بدأه ابنها :

«شرط أن تقطع صلتك بالهجيج وتعود الى الأصول».

وكما توقعت فقد أثار نعت الهجيج الفتى. لكنه كان قد تمرس بمثل هذا الهجوم من أمه فكظم الغيظ واحتفظ بابتسامته :

- «اذا شئت أن تعود الأمور الى وضعها القديم أولى بك ألا تتدخلى فى شئونى الخاصة. ظننت أن غيبتى قد علمتك الدرس، لكن الظاهر أن أمى العزيزة لن تتبدل أبدا.

وتململت رقية فى مجلسها وبدا لى كأنها قد اشتاقت الى تأجيج النار من جديد . كان موضوعها الموالى كريمة وأبوها. لكن نجيب بادر الى الحلبة مسرعا :

«- الناس يا أمى فى هذه الأيام وحتى فى تاريخ البشرية كله أصناف معلومة، صنف يسعى فى طلب الخير، وصنف ثان خبيث شرير، وصنف ثالث يعبد الرفاهية والكماليات. أما أنت فلست دون خلق الله لا من هؤلاء ولا من أولائك، وإنما تخصصك الكامل فى تشويه صورة بنت الباريو..».

«- بل بنت البراريك كما هو الاسم الصحيح لتلك الحارة. ثم إن من حقى الدفاع عن شرف العائلة وأنت تدنسه. من حقى الدفاع عن الأصول التى تركها لنا آباؤنا وأجدادنا. أين سأخفى وجهى عندما أسمع الناس يقولون إن ابن الساحلى يسكن غرفة مهجورة فوق سطح وأسرته تملك منازل فى كل أرجاء المدينة؟..».

«- دعيهم يقولون يا أمى العزيزة. ثم لماذا يغضبك سلوكى بهذه الصورة أنت بالذات. انظرى الى أبى المثقف المسالم كيف يتفهم الأمور ويدعنى أتصرف كرجل. لماذا لا تفعلين مثله وتبالين بأعراسك وملابسك وحلوياتك؟».

واحتدت رقية كما كان منتظرا. ثم التفتت نحوى وقد فشلت فى أن تستميلنى إلى صفها ضدا على نجيب :

«- لا تتكلم عن بركة ربى. ما ثم غير الناس ويده. دع الرجل فى همومه. دعه يرتاح فى تقاعده ولا تخلق له مشاكل إضافية. ابوك مشغول بصمته كأنه متزوج جنية. ابوك ليس منا .. أليس كذلك يا السى أحمد..؟».

وتمتمت :

«من الوردة شوكة ومن الشوكة وردة..».

وأحمى المثل الذى ضربته الوطيس، ووقع ما كان متظرا. أصبحنا على مشارف معركة ثلاثية أو على الأصح ثنائية. لقد كرهت المواقف التى تجعل رقية

تنسى صوابها وبهجتها وتتحامل عليّ كأنى مخلوق آخر لا تعرفه. لم يكن عهدى بها هكذا الى أن قدح نجيب الزناد. ولا أظن أن التاريخ قد عرف امرأة كرهت أخرى مثلما كرهت رقية كريمة. ذاك هو السر الكئيب لثورتها عليّ وعلى ابنها .

وأحس نجيب بحرجي. هو يعرف أنى لن أثور مثلها ولن أرد على تحاملها. وظل محتفظا بابتسامته الغامضة. وتساءلت: «من أين تعلم ابنى الدروس الجديدة فى المواجهة الباردة والنظر البعيد الذى يتجاوز سقوف «النقيبة»؟. فى الثانوية؟. فى البنك؟. فى «الباريو»؟ . هل تكون كريمة قد علمته مالم يكن يعلمه؟. أم هى تجربة الاحباط المر الذى أعقب رسوبه؟ الحق أنى شعرت ببعض الغبطة تسرى فى دمى لما رأيت أمامى مشروع رجل يتوسط فسولتى وتقلبات رقية. وقلت هذا زمن غير زماننا، مدارسه جديدة ومفتوحة، لا أبواب لها ولا نوافذ، مدرسة لا عهد لى بها ولا أقدر على ولوج فصولها. أنا رجل متعب أطلب السلة من دون عنب. قد تكون ساعاتى الأخيرة وشيكة، ولن يكون من اللائق أن أشغل بالى بأى هم غير الرواية والمصير. أما رقية فلن أستطيع مطاوعتها إلا فى الظاهر.

وفى لحظة انصرف نجيب عن التلفاز ومد يده الى مجلة ثم التفت نحو أمه هازئا :

«ساقرأ عليك ما يقوله برجك..».

وصمتت رقية غير مبالية بهذا السلوك الصبيانى:

– العمل : مع انك تفكرين فى الماضى فسوف تشعرين بالتقدم فتجدين دعما كبيرا من الآخرين حاولى الاستفادة منه .

الأسرة : نصيحة الفلك بأن تساعدى أفراد العائلة على حل مشاكلهم لكى يتأكدوا من اخلاصحك ومحبتك .

القلب : حياتك العاطفية تتجه الى الأمام ، وهذا الأسبوع هو الوقت المناسب لنسيان الأمور التى كان تزعجك فى الماضى.

يوم السعد : الأربعاء .

ونهضت قاصدا الدرجات فالتفتت رقية نحوى وقالت آمرة :

«اجلس لنحل المشكل..!!».

لكنى أجبتها ببرودة :

«أريد أن ارتاح .. إنى متعب ..».

«– قلت لك اجلس يارجل ..».

وقال نجيب :

«– دعيه في سبيله.. فالمعركة بينى وبينك.. دعيه يرتاح ..».

وصعدت الى الغرفة وكلمات نجيب ترن فى أذنى :

«– دعيه يرتاح .. دعيه يرتاح..».

– ٣٦ –

ركبت الشريط فخاطبتنى أم كلثوم «بدليلى احتار» وتساءلت : « هل سأتمكن بعد كل هذا الضنى من الجلوس الى المكتب؟ ، تجربة اليوم فى مقهى الطرانكات كانت دسمة تغرى بالكتابة، مقاهى المدينة القديمة كنز قصصى. والصور التى التقطتها اليوم دليل عملى على ذلك. لكن ما علاقة كل ذلك بلقطات السوق الفوقى والغرسة الكبيرة وصفحاتى القديمة؟ الى متى سأظل التقط الصور واراكمها بعضها فوق بعض؟. منذ الصغر وأنا التقط صور العتاقة واحتفظ بها فى دمى وفى ذاكرتى ، حتى اذا ما كنت فى مدرسة المعلمين فكرت فى كتابة رواية عن مدينتى، لكن مشروع مأساة زبيدة أقبر إلى أن بدأ شرخ القطيعة يكبر بينى وبين عبدالكريم فاقبر ثانية مشبروع من درب ابن المفتى الى قرية سمسمة. لكنى اليوم

شيخ يريد قصة مترابطة، متسلسلة وعريقة.. ذاك هو التحدى الذى يقهرنى فى هذا الأسبوع. التحدى الذى لم أكن للأسف الشديد قد تهيأت له طوال عقود التهيئة الكافية».

ومضت أم كلثوم تردد:

«دليلى احتار وحيرنى

ياريتك فجر فى عيونى

انام والقاك واعيش وياك

وآخر طيف اشوفه انت

ياريتك فجر فى عيونى

انام واصحي على فرحة

اول صورة اشوفها انت

وبين صورتك وبين طيفك

اعيش والقلب متهنى..»

وأغوانى الصوت الدافىء المشبع نضجا وتجربة فغفوت .

حوالى الثانية صباحا جاءت رقية تطلبنى للنزول الى فراشنا .

لم يمنع قيظ يوليوز من هبوب عاصفة رياح شرقية على تطوان. وربما بسبب ذلك لم استطع الخروج الى مغامرات «السويقة» حسبما كان مقررا. ولاشك أن جو الشرقى عمل عمله بعد غياب غير طويل، كما قد تكون تجربة دخان أمس قد

أسهمت هي الأخرى في ذلك. فقد استيقظت بليد الذهن منهك الأطراف خاصة ساقي كأني قضيت الليلة اضرب بالسوط. أتثاءب باستمرار ولا أقدر على تخيل صورة واحد.

مكثت في الفراش أبحلق في نحاس الناموسية والمرآة الكبيرة وأدوات زينة رقية المنضدة فوق الطاولة الصغيرة. في مثل هذا الجو لا أجد أفضل من البحلقة. أما الولية فتفلح في غالب الأحيان في القفز من الفراش وتحدى ميوعة الشرقي. وأعترف أني أتمنى لو تظل رقية الى جنبي حينما يخيم الضباب أو تثور العاصفة وأبيح لها عن طيب خاطر الاسترسال في كلامها كالوادي الهرهوري. كانت قد طوت الى حين صفحة الكمد التي أججها نجيب منتظرة عم سيسفر عنه مساء السبت ثم قالت وهي تمسد شعرها نحو الخلف : .

– منذ أن تقاعدت وأنت عابس كأنك تخبيء عني سرا. أم تكرر دوما أنك ستبدأ حياة جديدة بمجرد ماستحال على المعاش؟.

قلت وكأنني أنتظر هذا السؤال منذ قرون :

«– أليس ثمة غير كابوس الشرقي وهموم الأولاد...».

وردت بسؤال آخر يشي بالغضب :

«– أولا تدري أن انقباضك المستمر يوحش الدار ويقتل عروقي؟. من المؤكد أنك تخفي عني أمرا له صلة بتقاعدك أو بمرضك أو ربما بأمر آخر أخطر .. كية نجيب تكفيني...».

جلست رقية على حافة السرير تنظر الى الأرض في انكسار كأنها مقبلة على البكاء، التفت نحوها وحدقت فيها كما لم أحدق منذ أن توصلت بقرار التقاعد. وخفت من أن تشك في وجود امرأة أخرى في حياتي . ثم استرجعت كل العلل الغامضة التي منعتني عن مصارحتها بالحقيقة، لكني اكتفيت بأن أعيدها الى ذكرى ليست غريبة عنها :

«– لا تنس أن صورة عبدالكريم حاضرة في البال صباح مساء..».

التفتت رقية كأنها تود أن تصدقني القول. ثم رفعت نحوى وجهها وقد عادت اليه بعض امارات البهجة.

«– لكن لا تنس أننا مازلنا أحياء.. الواجب يقتضى منك أن تساعدنى على تقويم سلوك نجيب وابعاده عن تلك الصعلوكة والا فاننا سنندم. اسقامك ليست خطيرة ولله الحمد، وأنا لا أقصر من جهدى من أجل تبييض أيامك. فلماذا هذا الوجوم الأبدى؟. حرقة المرحوم لن تزول أبدا. شيء لقلبى وشى لربى..» .

وفكرت لو اعترف للولية بسريرتى ، لكنى كنت خبيرا ببواطن رقية ومحتملا ان تهزأ بى وبأوهامى التى لا سند، فاكتفيت بالقول :

«– أنا مازلت فى بداية التقاعد، ومن يدرى فقد تتبدل الأحوال حينما ينقضى الأسبوع الأول .. ربما أمكننى أن أعود بعده الى سابق عهدى..».

ولم ترد المرأة فصمتت كأن قدرها الشقاء الذى لا مفر منه. وحتى لا أمعن فى التكدير عليها نقلت الحديث الى موعد الجمعة والى «مرتين» . وعندما لاحظت بوادر رجوعى الى الدنيا انغمست فى رواية بحر من التفاصيل وأنا اسمع وابحلق ولا أغى. فى البداية تحدثت عن خفة دم نعيمة وشبهها الكبير بأمها، ثم ابدت اعجابها بنباهة محمود فى الكتاب وتأسفت لانقطاعه عنه مدة مرضه واحتمال عودته اليه بعد ثلاثة أو أربعة أيام. ثم تكلمت باسهاب عن عائلة الوردى وكيف أن أم العروس أظهرت بهجتها بخطيبة ابنها . قالت :

«– ذات يوم دعت الخطيبة للغداء معها فى دارها بالجنوى وفى ساعة انصرافها ردتها بسوارين غليظين من الذهب الخالص وخاتمين وساعة معصم من النوع الرفيع».

ثم تابعت مستفسرة :

«– من أين يحصل الناس اليوم على هذه الأموال الطائلة؟». ثم استطردت

لتتلذذ بغيبة ابراهيم وتهول حكاية ادمانه. وكدت آمرها بأن تصمت وتكف عن أكل لحم ابن أخي لكني لم أجد مرة أخرى الشجاعة الكافية فتركتها تتكلم وانصرفت عنها لأتقاسم مع الفتى الغامض التهم المتتالية .

عندما ازداد ابراهيم ظهر أن والديه لم يبديا أي تشنج في تربيته ومتابعة تعليمه. وترعرع الصبي بصورة طبيعية تحت رعاية أمه على وجه الخصوص لأن عبدالصمد كان دوما رجل الأعصاب الباردة الذي لا يلح في طلب الجزئيات. وحصل ابراهيم على الباكالوريا والتحق بكلية العلوم طالبا منتظما ليس بالمتفوق ولا بالخامل. لكن في سنته الجامعية الثانية حصلت له أمور غريبة لم يستطع أحد من عائلتنا معرفة حقيقتها. أصبح ابراهيم يميل الى النوم ويتغيب عن المحاضرات. يطيل الوقوف أمام السور القصير في الكورنيش المطل على شارع النخيل ويعاشر ثلة من الفتيان لايبدو أنهم طلبة. وهناك ضبطته جارة فاطمة في موقف مشبوه انتشر خبره في كل الأرجاء .

لم يكن ابراهيم منذ صباه يحب أن يلفت اليه الأنظار وسط العائلة أو خارجها. ولم نعرف بالضبط هل هو متفائل أو متشائم، وإنما عاش أيامه من غير تبرم ولا شكوى، يسأم في بزار أبيه ولايطيق قضاء أوقاته في منعطفات «الخرازين». وفي فترة من حياته انسجم مع نجيب على الرغم من فارق السن بينهما وواظبا على الخروج معا الى السينما والشواطىء والمقاهي. لكني لم أعرف بعد ذلك لماذا تسربت البرودة الى علاقتهما رويدا رويدا وأصبحا لا يلتقيان الا في المناسبات كموعد الجمعة والأعياد .

انطرحت فوق مترية الغرفة العريضة وتابعت صورا من مسلسل مكسيكي ثم

برنامجا للمسابقات . وطال أمد الجلسة حتى خيم القرف. وتسلط على شبح الأيام الأربعة المتبقية. وكان لابد أن يأتى رد فعل القرحة فتوجست من أن يتطور التفكير فى الأعراض الى ألم. كانت رقية قد انصرفت الى المطبخ. وصعدت الى غرفتى وفسحت المجال لصوت السيدة لعلها تخفف ضيقة الشرقى ..

«أعطنى حريتى أطلق يديا

اننى اعطيت ما استبقيت شيا

آه من قيدك أدمى معصمى

لم أبقيه وما أبقى عليا

م احتفاظى بعهود لم تصنها

والام الاسر والدنيا لديا

وفى الفراش تدبرت لحظات الصفاء الغريب الذى شحننى به دخان الحشيش أمس. تذكرت ما قاله نجيب محفوظ من أن خياله يصبح نشيطا جدا أثناء تدخين الشيشة فى مقهى الفيشاوى. ومددت يدى الى مجلد من بين مجلدات تضم مجلات شرقية «الأداب». «المجلة» «الكاتب» «العربى» «منبر الاسلام» «العلوم». لم تكن لدى رغبة فى القراءة لأن الجو الشرقى ضد القراءة والتفكير. وألفيت أصابعى تقلب بنوع من الترقب الغامض صفحات مجلة «العلوم» طبعت فيها صورة فوتوغرافية لنجيب محفوظ وقد جلس على كرسى واضعا رجلا فوق رجل وهو يدخن النارجيلة. ومن فرط ما سحرتنى الصورة كنت اعود اليها كلما تملكنى احساس الانطماس. وانا فى هذا الصباح الشرقى منطمس بالفعل. تأملت الصورة مليا فانفجرت مجرة النجوم. ليالى القاهرة ودخانها ومشربياتها وأسرار أركانها. لقد ظننت دوما أن ثمة علاقة شيطانية لا تنقصم بين نارجيلة نجيب والالهام القصصى. آمنت بذلك منذ أن كنت تلميذا وقبل أن أقرأ اعتراف الكاتب المصرى. ثم عدت الى وضعيتى الأدبية المستعصية وحسبت ثانية ما تبقى من

الزمن المحتمل. ثلاثة أيام ونصف يوم على وجه التحديد ثم تنتهى مهلة التحدى، لكن الكلمة الأخيرة تبقى لعلام الغيوب.

ووسوس لى هاجس كأنه الشيطان :

«- انجاز المشروع الروائى واصطياد الصور الخيالية يقتضيان البحث عن وسيلة ناجعة لشحذ القريحة وتجاوز المنغصات..».

من هنا نبعت فكرة تدخين الكيف .

أتذكر أنى عندما كنت مراهقا أدرس فى «المعهد الرسمى» عشت تجربة تدخين لم أنس عواقبها طوال عمرى. كان عديد من التلاميذ يدخون السجائر بانتظام. بل ان أحدهم اشتهر بادمانه الكيف واتيانه القسم مسطولا ضاحكا مسود الأسنان. يحكى بعيون مخطوفة الأعاجيب عن تلك النبتة وتأثيرها السحرى وطرق اعدادها، ثم يستطرد الى الحديث عن عوالم جنسية ومغامرات خارقة تسرق البابنا الصغيرة. والتقطت اذنى بعضا من أعجابيه وقررت خوض التجربة ذات مساء. حصلت على عود صغير من أعواد الدفلى وثقبته ثقبا نفذ من طرفيه واشتريت شقفا. ولقد فهمت من أحاديث التلميذ المسطول أن الخليط كلما كان غريبا متنوعا كانت التحشيشة أشد تأثيرا. وخرجت الى ضواحى «باب السفلى» واصطدت بعض النحل والزنابير وصعدت إلى سطح منزلنا «النقيبة» متخفيا من أمى وأخوتى. وعجنت الحشرات ومزجتها بأعقاب السجائر وحشوت الشقف بالخليط وأوقدته بعود ثقاب. فى البداية جذبت نفسا خفيفا. ثم تشجعت فى المرة الثانية فجذبت نفسا عميقا تسرب الى جمجمتى ورئتى كالسم الناقع. طعم الدفلى والسجائر والحشرات المحترقة. ولم يمر وقت طويل حتى انتابنى الدوار والغثيان. وجلست على الأرض ومددت أطرافى المرتخية، وخفت من أن يغمى على فأنسى فى السطح، ثم استجمعت ما تبقى من قواى وهبطت الدركات مرتعش الركبتين. وحينما التقيت أمى تفاديت من النظر فى عينيها. قلت لها ان الشمس قد دوختنى ولكنها لم تقتنع فقربت أنفها من فمى فشمت ثم أبعدت وجهها عنى مقززة . قالت باستنكار :

«– ماذا دخنت؟. الويل لك عندما سيأتى ابوك....».

وعمل الغثيان عمله فتقيأت من فمي وأنفي وسقطت ومترنحا فوق المتربة. ثم تكرر التقيؤ الى أن أحسست بمعدتي كأنها ستخرج من فمي. وتمايلت الجدران ودرات بى الدنيا، ثم انتابنى صداع الرأس ولفنى الخوف، لكنى لم أجد الشجاعة الكافية لأحكى لأمى عن مخاوفى فبكيت. كنت فى مرحلة قريبة من المراهقة مازلت أخشى فيها بطش الوالدين. ورجوت من أمى ألا تقول لأبى الا أنها هددت بالقول واستعنت فى ذلك بعبدالصمد الذى انصرف لا مباليا وهو يضحك .

وقضيت بقية النهار فى الفراش ومخى يتراقص كالأرجوحة ، وعصرت لى أمى اليمون ورطبت جبهنى بخرق مبللة. وعندما جاء أبى ليلا لم أدر إن كانت قد حكت له أم لا. الا أننى مازلت أتذكر أنه اقترب من سريرى ووضع يده فوق جبهتى. ثم حدق فى مليا الى أن ذابت نظرتى الصغيرة فى نظرته المتعبة التى قالت لى بصمت متكلم :

«– لا تعد الى فعل هذا..!!».

اتفقت مع رقية على عيادة محمود بالتناوب ، اذهب انا قبل الزوال وهى بعد الغداء. وعندما مررت ببيت فاطمة فى «الفران المسلس» وجدت محمودا يلعب قريبا من سريره. كانت صحته تتحسن باطراد فلم امكث معه طويلا. فى البداية ابدى بعض العناد والح فى الخروج معى لكن امه صدته عن غايته بأفانين من الدلال .

عرجت على مكتب بنعيسى فلم اجده وظللت انتظر عودته من المحكمة . ثم هل بابتسامته المرحبة ومحفظته الجلدية فاختليت به فى مكتبه الصغير. وأطلعته على قرار تدخين الكيف فى هذا المساء. كان لدى الحماس الكافى للاسترسال فى

خطبة متواترة دافعت خلالها عن علاقة الالهام بالنبتة الشيطانية وعن أهمية التجريب ولو مرة واحدة في العمر. وتوارت خلف ذلك الحماس نشوة مقهى «الطرانكات» واعترافات نجيب محفوظ وحلمي بتحرير الذهن في اسرع وقت ممكن .

ولم يفاجأ بنعيسى بالقرار وانما شجعنى على المشروع كأنه كان ينتظره منى منذ العصر الحجرى. هو الرجل الذى لا يعارض كل خطوة قد تفضى الى الانفتاح والتمرد. كنت أسمى بنعيسى ابو الظلام لأنى لا أدرى أين يمضى ولا أين يقضى لياله بعد توديعه عشاء. كل ما أحدسه أن صلاته بالعوامل السفلى قوية من غير أن تتشوه سمعته. والحقيقة أن مهنته أتاحت له أن يتعرف العالى والهابط وجعلته يكتسب معرفة عميقة بالناس وصروف الدهر .

وطلبت منه أن ييسر لى السبسى والكيف فارتجل ساخرا :

«– المومياء الفرعونية تنهض من قبرها!!..»

ثم أردفت :

«– صعب على أن أقف أمام بائعى النيارين..».

فعقب بنعيسى :

«– لن يقف هناك لا أنت ولا أنا.. أعرف من سيقوم بهذه المهمة الدنيئة».

وغاب عنى بعض الوقت ثم عاد لنكمل الحديث. وبعد أقل من ساعة حصلت على ما طلبت .

أفقنا من القيلولة. خرجت رقية وهنية وأصداء العصر لا تزال تتردد فى آفاق «المطمر».

بقيت وحدى فى الدار. صعدت الى السطح فتراءت الأسطح البيضاء والمآذن على يمينى ويسارى. تأملت المشهد باستغراق كأنى ازاء بحر من البنايات

المتلاحقة الصاعدة والهابطة، المرعبة والطويلة والمعوجة. لكنى تشنجت لأن ذهنى وقف عاجزا عن استلهام كل هذا التنوع الطبيعى والمعمارى. ومن دون تردد ملأت الشقف بالكيف ذى الخضرة الباهتة وقد خلط بالتبغ المسحوق. أشعلت الوقيدة وجعلت رأس السبسى فى فمى. وأخذت نفسا طويلا اعقبته بنفس ثان اطول فنفس ثالث. وحملقت من جديد فى الأسطح المتلاصقة فلم توح الى بشىء أو هى أوحت بكل شىء الا بالطريقة التى يمكن أن أكتب بها. وعاودنى الغيظ ثانية فأحسست بالكيف فى تجويفى كالطعام المسيخ وقد نفذ دخانه اليجبهنى فشق رأسى ثم هبط نحو الاسفل فهلهل صدرى. سعلت، وجحظت عيناى وأحسست كأن بهما غبشا. ومع ذلك لم أقطع الأمل فى أن تبتهج الدنيا أمامى وتنثال على الصور الغزيرة. وأكد لى الشيطان :

«- الإلهام لا يتخذ دائما هيئة البهجة وانما قد يأتى بواسطة المعاناة والتقزز».

وتذكرت حالتى هوكسلي وسارتر وهوسهما بعد تجربة المخدر. اما نجيب محفوظ فقد كان رجلا قوى البنية. عريض الجسم، واسع المحيا، له وقفة ثابتة ونظرة تنبئ عن شخصية متمكنة من ذاتها. مارس كرة القدم فى فتوته، وهيهات بعد ذلك أن تهزمه النارجيلة أو تستثير سعاله.

صعدت الى الغرفة وأمسكت بالقلم وجلست جلسة الكاتب. وشحذت القريحة المضطربة بالكيف فلم تجد على. كان مخى جامدا كالحمار الذى وقف بالشيخ فى العقبة. أو كالمحراث المغروس تحت صخرة. لن تكون هناك خطوة الى الأمام حتى لو انشقت الدنيا الى نصفين. وقلت هذه حالة طبيعية مادامت البداية من الصفر أمرا مستحيلا. وحتى العباقرة لابد أن يعودوا إلى سند سابق. ومددت يدى إلى الأوراق القديمة وفرشتها قبالتى. «مأساة زبيدة». «من درب ابن المفتى الى قرية سمسمة». قصتان مبتورتان تحتاجان الى تتمة. ثم استحضرت دخان مقهى «الطرانكات» والقهوجى والفتى المطرود والآخرين الذين لا هوية لهم. وصرخ فى وجهى هذا الخليط أن لابد من رابط جامع يشمل زبيدة وصراع الصديقين

وأصحاب المقهى وفتيان «السوق الفوقى» وتاجره القصير وسماسرة «الغرسة الكبيرة». وجزمت بأن الرابط هو دروب تطوان وحيطانها الندية. لكن مثل هذا الكلام ميسور قوله صعب تفصيله كتابة. وشككت ان كانت تنقصنى التفاصيل حقا أم انى غرق فى تخمتها، إنما المهم أن أجعل الشخصيات تتصارع فيما بينها كما الأبطال والعمالقة فى ملاحم اليونان. ولكن هل استطعت أن اكتب رواية ،حتى ادعى القدرة على كتابة ملحمة؟. لا اقنع بالجزئى المحدود فأطور حكاية التاجر القصير فى «السوق الفوقى» مع زوجاته الأربع، أو أبحث عن صنعة قصصية لتقديم «لعبة الحليب» وابراز سماتها المحلية؟. الموضوعات والسمات كثيرة.. متداخلة .. غنية .. لكن العيب عيبى أنا الذى أتعسف فى كتابة الرواية قسرا. من الواضح أن موهبتى ضحلة من الأصل، أو انها قد خرفت . أو أن شرقى تطوان قد بلد ذهنى الى أبد الآبدين. لماذا لا أعلن استسلامى وأنسى وهم الأسبوغ المصيرى؟ لماذا لا أتخلص من التحدى وانغمس فى عوالم رقية والجيران وبنعيسى ورواد الكازينو؟. لماذا لا أحمل مسئوليتى التربوية والعائلية فاكسر شوكة نجيب واشجع محمودا على لعب كرة القدم من الآن؟. رأسى ينتفخ وآثار الكيف تزيد فى حدة الانطماس. قد أجن إذا ظللت أكابد وحدى. كيف لى أن أكتب برواية عن بحر لا ساحل له؟. أن أكتب عن تطوان بعد الستين ولم استطع الكتابة عنها وأنا فى شرخ الصبا؟. أو لم يقل نجيب محفوظ نفسه انه كتب الثلاثية فى جلد وهو فى عنفوانه وأن عملا كهذا يحتاج الى صبر وصحة؟. لقد تعبت حقا، وأنا شيخ يجدر به أن يتقاعد تقاعدا تاما ..

هبطت الى المطبخ وأعددت كأس ليمون. كانت جنائزية العصر المتبقية فى الجو تكبس على أنفاسى وأنا فى وحدتى الغميقة. وظهر لى أنى أمضى فى طريق ضيق منحدر انحدار درب «النقيبة». وانتبهت الى اقتراب اذان المغرب فقمت لأتضوأ. وأتلفت ادوات التدخين والدار الواسعة تردد صوتى المنكسر :

«اعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

السـويقـة

- ٤٠ -

كانت «السويقة» وجهتي الثالثة. حومة المتناقضات الجامعة بين ضجيج «المصدع» وسكينة الدروب الخلفية. الاكتظاظ الكثيف والسحر البارد. وتنحشر «السويقة» كالعروس الخجول بين «باب العقلة» و«باب الرموز» و«زاوية البقالين»، وما تحت قوس «الزاوية الناصرية». هي حارة أمي ولا يزال بها إلى اليوم عدد من أقربائي. اعتبرتها دوما ملاذي الثاني بعد «المطمر». وكنت على يقين بأن «السويقة» لن تخيب أملي. ستسلس لي قيادها وستسعفني على مواجهة التحدي. إن الكتابة عنها مهمة ميسورة. يكفيني أن ألتقط بعض العناصر القصصية للاستناد إليها في الانجاز. كذلك رسخ لدي.

- ٤١ -

انفتحت عيوني قبل أن ينبلج ضوء الفجر وأن قر لدي بأن جفوني لم تغمض طوال الليل القصير. وفي لحظات الغبش الحائر بين الضوء والظلمة ارتسمت أمامي صورة محمود وهو سادر في غيبوبة الحمى دون سواها من صور الكدر. ولزمني مدة لكي أدرك أن حالة الحفيد بخير طبقاً لزيارة أمس، مثلما لزمني مدة أخرى لكي أعلم بأني أحيا صباحاً آخر من أصباح التقاعد. أما على وجه التحديد هو الصباح الرابع من أسبوع التحدي.

تسرب الضوء الناعم من خلال حلقة الدار. ولم أوقظ رقية لإعداد الفطور، فالرغبة خاملة. لكن الولية استجمعت أطرافها المتناثرة بمجرد ما أحست بتمللى فى الفراش وقفزت نحو المرآة حذرة أن أباغتها وهى فى أرتباكها الصباحى. وبادرت إلى مشط ما تبقى من شعرها المتراخى المصبوغ بعناية وعصبت رأسها بسبنية حريرية وردية اللون، وتركت جدلتين من الشعر اللطيف تطلان من تحت السبنية وتتدليان فى إغراء حذو الأذنين مثل صنيع جداتها الأندلسيات. ثم ارتدت قميصها الطويل الوردى هو الآخر. وتمنطقت الحزام الصقلى كما لو كانت بنت السادسة عشرة. كانت أمارات الزمن والشرقى الفاتك تحفر رويدا رويدا فى سرائرها، ومع ذلك شدت أزرها من غير أن تشكو وقد ألفت جنوحى إلى الصمت فتعمدت تدشين نهارنا بغبطة متقنة الصنع:

- «الله يعاونا».

وقمت أعد عدة الخروج والنية معقودة على تخصيص صباح الخميس للتيه فى «السويقة» لامتصاص رحيق برودتها قبل أن تتلظى الشمس. وأخذت منى العدة حوالى الساعتين كما هى العادة. وخلال ذلك وسوس لى الشيطان ثانية بأن حالة محمود ربما تكون قد ساءت من جديد مثلما تراءى لى فى غبش الفجر. ووجدتنى أنساق مع الوسواس وأنسى نسيانا كليا المهمة المقدسة. وحرت فى أمرى؛ هل ألعن نفسى أم أشفق عليها؟. وعلى كل حال لفنى إحساس المهانة وتؤكد لى مرة أخرى أنى أتفنن فى اختلاق الأعذار لأفر من مواجهة المسئولية.

ومن دون أن أخبر رقية مررت ببيت فاطمة فثار نخوى محمود وتعلق بعنقى كما لو كان يبغى بذلك تجديد حيويته. ووضح لدى بما لا يدع مجالا للشك أن الحفيد يتماثل للشفاء السريع. ومع ذلك قضيت معه ما تبقى من ساعات الصباح كأننى أود بذلك أن أقنع نفسى بأن المنغص غير وارد من هذه الناحية على الإطلاق .

صليت العصر فى «الجامع الكبير». وفى فناء المسجد الفسيح أنعشنى الظل

الندى في وقد يوليوز. لكن ما أن تجاوزت عتبة المسجد وتلقفتني حيطان الشوارع حتى شملني رداء العصر واستدرجني نحو الطقوس الجنائزية التي لا ترى ولا تمس وإنما تستشعر بالمسام الداخلية في مثل هذا الوقت من كل نهار. وفي سانحة متسلطة انضاف إلى الجنائزية إحساس التمزق. وتوقفت قبالة «درب أحفير» نادما على التفريط في الخطة. وحرت هل أعود القهقرى إلى «المطامر» أم أنغمس في «أحفير» أم أمضي قدماً حيث «فندق النجار» الواسع. وحركت القدمين في ارتباك من دون أن أكون قد اخترت الاتجاه الذي يجب أن أمضي فيه. أما نتيجة مشية الحيرة فقد تجلت في التواء رسغ قدمي الأيسر التواء حاداً تأوهت على إثره. وتنحيت جانباً أمسك برسغي وأمسده. وأثارت وقفتي المارة والمتسولة التي كانت تراقب حركاتي وهي جالسة في درج «سيدي مرزوق». لكن سائحين عبرا أمامي فلم يلفتهما وضعي؛ في حين مرت امرأة في عجلة فأشفقت لحالي وقالت من دون أن تلوي:

– «الله يحد الباس».

وأودى بي الخطو إلى «الساقية الفوقية» فـ«الطرافين». أما التريث في «المصدع» فليؤجل مادام المارة قليلين في هذه الساعة القائظة وبائعو السمك معدودين مقارنة بساعة الغروب. وقالت لي ساعة معصمي إن «المصدع» لن يكتظ وتقوم قيامته الأزلية قبل ساعتين أو أكثر . فكرت في العودة ثانية إلى بيت فاطمة أو البحث عن رضا وبنعيسى. لكنني خفت من أن تمعن مغامراتي المرتجة في صرفي كليا عن القصد الجليل. ومع ذلك وبخني الضمير لأني لم أستغل ساعات الصباح في التسكع في شوارع «السويقة» الوارفة، لكنه فتح من ناحية أخرى باب الأمل وقال لي إن التسكع الآن ممكن انتظاراً لاكتظاظ «المصدع». وبذك قر القرار على إتيان «السويقة» من الخلف لعل الدائرة تتسع بذلك وينصرم أكبر قدر ممكن من الوقت.

اخترقت «الفدان» الشاعري نحو «المصلى». خلفت ورائي بناية «المسرح

الوطنى» تئن فى صمت جريح. وعلى يمينى «سيدى مصباح» ملفوف بين الجدران والشجر والأزقة الضيقة. وفى الأسفل تراءت «باب الرموز» وحيدة كنخلة عبدالرحمن الداخل. ومن خلال «الباب» برز جزء من سور «رياض العشاق». و«باب الرموز» قوس عاطل من الزخرف تنطق حجارته وترابه وجيره بالعزلة فى هذا الموضع القريب البعيد عن مركز المدينة العتيقة. كان قوساً استراتيجياً بالنسبة إلى إسبانى الحماية. وقفت أمامه متصنعاً التأمل، متخيلا قواد الجنود الإسبان يهرولون من تحته قاصدين مركز المدينة، صامتين أو متكلمين مع بعضهم، لكنهم فى الحالتين معا كانوا منتصرين ومطمئنين فى غير بلدهم. ويمر بين الحين والحين رجل أو امرأة أمامي فأبادر إلى استنطاق صورته. التأمل والاستنطاق واستجداء المبانى والجدران وظائف ذهنية لا أفتر عنها لكنها قلما تجود بعطاء. وأمرنى آمر:

– «غص فى الدروب المستكينة خلف السويقة لأنها هى الأخرى لها عليك حق. ألست معنيا ومسئولا بالبحث عن التوازن بين أحياء المدينة مهما صغرت أو نأت أو اختبأت فى الظل؟».

شارع «سيدى مسعود» المتميز فى وقت واحد بضيقه وانفتاحه. أقول عنه إنه شارع متميز لأنى لست مجرد عابر سبيل وإنما أنا طالب لحقيقة الدروب والفضاءات إن لم أكن عائشا فى الحقيقة على حد تعبير نجيب محفوظ. على يمينى بعض قمم جبل غرغيز وقد جللتها زرقة الصيف المموهة بأمارات الغروب. ثم ملت نحو اليسار فإذا ببعض النسوة قد تجمعن أمام باب مفتوح يطلبن البرودة المنعشة ويتحدثن بلهجة جبلية ليست فى مخارجها انكسارات ولا نتوءات وإنما انسابت حروفها فى انحناءات تميل نحو اللثغة. والتقطت أذنى كلاما عن الموضة، وسؤالا عن الساعة التى يبث فيها المسلسل التلفزى المصرى. وتقدمت نحو الجهة الخلفية «للسويقة» متطلعا كالصياد المتأهب ببندقيته وهو يقطع الأحراش فى حذر منتظراً ظهور الطريدة في كل حين. تابعت المشى البطىء كأنى أفصل الدروب

وأخيط الأزقة بغرزة متمهلة: «درب للافريجة» والزاوية والمسجد. وعند «درب سباط الدايز» توقفت. الطريق إلى حد هذا الموضع لا يزال عاريا. ذلك يعنى أنى إذا مضيت قدما سأصل بسرعة إلى «المصدع» وذاك ما لا أريده فى هذه السويعة. وتريثت أمام حانوت خياط قبالة درب منحن فدخلت فى حرب ضروس ضد بلادة الذهن. هل تعنى الجولة المرتجلة فى خلفية «السويقة» حتمية رجوعى خالى الوفاض؟. فى الحقيقة إن تطوان كلها مباحة لى فى كل وقت، والتيه فى دروبها ممكن إبان توقيت محدد أو خارجه. فلماذا وبخنى الضمير حينما اتخذت قرار القيام بهذه الجولة المرتجلة؟. هل ستصمت الحيطان وتمعن فى كتم أسرارها لأننى حدت قليلاً عن الخطة؟. العمق مطلوب فى كل وقت. وعبور هذه الدروب عشرات السنين من المستحيل ألا يكون وراءها طائل. والحق أن شرر الحرب جعل المعدة تتلوى فركزت فيها انتباهى مادمت لا أملك القدرة على التركيز فيما يحيط بى. كأنى أنتقم من ذاتى اللامجدية. ومادام المرء لا يتقن عملا فمن الأجدى أن يجرب غيره. ثم أسأل روحك على من تريد أن تكذب؟. أو على من تود أن تتباهى؟. كن صريحا مرة أخرى وقل إنك لا تجد بديلا عن متعة الشطرنج، وإن أعماقك تنشرح حينما تنصت إلى رقية وهى تتكلم على هواها وأنت مسترخ أمام التلفاز كالجمل المذبوح.

وغادرت موضعى مراوغا الالتواء لكى لا يتحول إلى ألم. لم أتقدم إلى الأمام وإنما رَجعت من نفس الطريق: «السباط الدايز». «للافريجة». «درب الفقاى». «سيدى مسعود» «الجامع الخضرة». حتى إذا ما وصلت ثانية إلى «باب الرموز» قهرت التواءات المعدة وفتحت كل حواسى كما لو كانت راداراً وقررت الرجوع للمرة الثالثة. لن أخرج خالى الوفاض من الجولة المرتجلة حتى لو سقطت على وجهى من فرط المشى، أو أثرت انتباه الصبيان وطاردونى بالهتاف والحجارة وجذبونى من جلبابى بالقاذورات. ومن خلل الالتواءات والبلادة سمعت صوتا ينادينى من بعيد كأنه آت من جزيرة مهجورة. وفى جزء صغير من الثانية هبت

عليّ نسمة خفيفة من تلك الغبطة التى تسبق انفتاح القريحة. هل أبادر إلى الدفتر والقلم أم أكتفى بالاستماع؟. وفضلت فى تلك اللحظة الدقيقة أن أصيخ السمع مخافة أن يضيع الصوت لو انشغلت بالتسجيل. ورفعت عينى فإذا بالصوت الذى يكلمنى صادر عن قوس عار؛ يستقر فى استكانة بين «للافريجة» و«سباط الدايز». قوس هرم فى شكل نصف حذوة، مبيض بالجير والنيلة. متآكل عتيق، ليس كأقواس الروم أو الإغريق، لكنه قوس عربى كئيب صامت ناطق بربط بين جدارين متقاربين مفعمين رطوبة. من فوقه تبدو بعض قطع السماء الزرقاء وقد بدأت تتسرب إليها مخايل الغروب ومن تحته أرض ملساء رمادية. نحيل كجسمى . طاعن فى السن مثلى. جللته خضرة أعشاب فطرية قصيرة تشهد بقدمه فى تاريخ الطبيعة الجامدة، لكنه قادر فى نفس الوقت على الكلام بلغة الماضى والحاضر:

- «أنت الذى تبحث عن عمق العتاقة كيف لم تنتبه إليّ وقد بحت حنجرتى من فرط ما ناديتك؟. مررت تحتى منذ كنت صغيراً تقبض على يد أمك مرتعباً. وراقبت يفاعتك الشاردة، ثم غبت عنى زمناً. وهاأنت اليوم تستجدى العمق وتطلب المستحيل. ومع ذلك أشفقت عليك وأثرت انتباهك وإلا كنت قد تركتك تمشى غاديا رائحاً كما مشى السى مفضل من دون أن تقترب من مرادك. تظن أنك واجد ضالتك فى التحديق في الأبواب والجدران والتقاط أحاديث النساء؟. إنك مخطىء في ذلك كل الخطأ؛ بل إنك على ضلال مبين. لابد أن أصارحك القول أنت الذى تبحث عن الحقيقة قبيل نهاية أسبوعك المصيرى. أقول لك إن العتاقة لا تسلم نفسها إلا للرجل الأصيل الصادق الطوية صدقا تاما. مهما عشقت الدروب التى تربيت فيها واستعنت بالرواة وكتب التاريخ فلن تتمكن أبدا من وضع يدك على ما تريد. العتاقة ياأستاذ الطور الأول المتقاعد كعذراء الأساطير لا تستسلم إن هى أحبت إلا للبطل الحقيقى الذى لا تشوبه شائبة. أقول البطل الحقيقى وليس المخلوف المزيف المدعى البهرج الكاذب. وأنت لو كنت عقدت صداقة حقيقية منذ نعومة أظافرك مع الرطوبة والظلال والأصوات الصامتة لكانت المدينة كلها قد

سلمت لك مقاليدها كأنك الفاتح الغازى. لكنك لم تكن فى يوم من الأيام صادقا فى مطلبك مهما فتكت بك جنازات العصر. ولعل قمة زيفك وانتهازيتك تنجلى فى رغبتك المفاجئة فى الاستحواذ على المدينة كلها فى أسبوع يتيم وتجمعها فى قمقم الرواية. أحمق، والله إنك لأحمق، وسيكون من الأليق بك أن تمعن فى الاختلاط بالناس وقد بلغت هذا الحد من العمر حتى لا يخذلك تقاعدك الإدارى.. وأن تكثر من التسبيح وتفيض بما فضل لك من عطف على أولادك وحفيديك. أما مطلب العتاقة فغاية فات أوانها. وكذلك مطلب الرواية. أنسيت الحكمة التى رواها المجرب ماركيث حينما قال إن مهنة الكاتب وتقنياته ووسائله وحتى الأشياء الحرفية الدقيقة الخفية يجب أن يتعلمها فى شبابه. فنحن الكتاب نشبه الببغاوات لا نتعلم الكلام بعد الشيخوخة»؟.

كان القوس فاغراً فاه كشدق مفتوح. خذلتنى كلماته وأشعرتنى بضآلة جسدى الملفوف فى الجلبات الصيفى. وتربصت بى من جديد نذر الشؤم والإحباط: القرحة وقرب نهاية الأسبوع ولا جدوى ما أبتغيه. وبدا لى كأن وقت «المصدع» قد حان أو يجب أن يحين حتى وإن غدا الطريق إليه محفوفا بسمات الاستسلام. لكننى أبيت أن أتسلل نحوه خالى الوفاض. وابتعدت عن القوس ثم التفت نحوه فبدا لى الاستماع إلى حديثه علامة ظفر. ثم إنى أبيت أن أصدق كل عتابه، فمن ينكر أن بعض دمى ليس من بعض رطوبة الجدران؟. كما أن الشيخوخة صنو العتاقة، ونضج الكبر يفتح من الأبواب ما لا تفتحه ميعة الصبا. ثم ألم يقل ماركيث نفسه إن الرواية الحقة هى التى تكتب بعد الأربعين؟. وحتى إذا كنت فى بعض أيامى الخوالى قد أوليت المدينة القديمة ظهرى فما ذلك عن عمد. إن التركيز والتقاط الملاحظات وتفتيح الحواس لابد أن يسعف.. لابد.. لابد.

دقت طبول المساء معلنة اكتظاظ «المصدع». فضلت أن آتى السويقة من

الأسفل؛ من «زاوية الخلنجى». بائعو الخضر والأحذية والخبز والزيتون والفواكه اليابسة والقطانى يصطفون إلى جانبى الطريق. وفى موضع مغطى عالى السقف حيث يهب تيار عليل لا يضمخه أبدا ضوء الشمس يحلو لى دوما أن أتمهل فى مشيتى لأسترق النظر إلى عيون البائعين والبائعات لعلنى أكتشف من خلالها إن كانوا يقشعرون مثلى من برودة مابعد العصر المعشعشة فى ثنايا الجدران الظليلة.

فى البداية اخترقت «المصدع» فى جولة استطلاعية شاملة من أسفله إلى حيث تبدأ «السويقة العليا». كنت أبحث عن موقع مناسب يتيح لى زاوية نظر حية وموفقة. ولابد أن يكون الموقع المختار شديد الازدحام أتمكن من خلاله تسجيل أصدق الملاحظات والتقاط أدق الأوصاف عن المارة والبائعين والجدران والمنازل المغروسة فى جوانبها، ورائحة السمك الطرى والعفن. كانت ثمة صناديق الشطون والشرال والبسكاديا والغرونك والراية والسردين والكمبرى والحبار يصب عليها البائعون الماء فتزداد لمعانا وإغراء. ثم يسيل الماء من تحت الصناديق نحو المنحدر فتبتل أرض «المصدع» التى لا تكاد تعرف اليبوسة.

وقفت أمام بائع الكمبرى فى موقع تقارب جداراه كأنهما أخوان. رجل خشن الوجه بذقن غير حليق. فوق رأسه طاقية سوداء كتلك التى يلبسها البحارة الإنكليز. فتوة حقيقى فى حوالى الأربعين من عمره، يبدو منهكا خائر القوى، بادى العروق ، ومع ذلك كان جهورى الصوت، سريع الاستثارة. أما نظرته المؤذية فتلسع كالزنبور كل من التقت عيناه بعينيه.

كان الازدحام يشتد بعد كل دقيقة تمر. وتسمرت ملتصقا بالجدار مغتبطاً بحيوية المشهد وتباين ألوانه وتداخل عناصره. وكالسارق الذى يحذر من أن يفتضح أمره أخرجت من تحت جلبابى الدفتر وقلم الرصاص وتهيأت لتدوين السمات اللافتة التى لن تثير غيرى من الناس، أنا صاحب القضية وأنا المسئول عن هذا الثراء من العواطف والصخب المتدفق كالبحر المتلاطم . وإزاء حالة الغبطة الفوارة نسيت أن وقفتى بالقلم والدفتر تثير الشبهات حقا . وقلت:

– «لابد أن أكون فى هذه اللحظة التاريخية جديراً بالاعتبار فى عين نجيب محفوظ». تذكرت إميل زولا الذى كتب روائعه بفضل الملاحظات الواقعية التى لفتت نظره فالتقطها من الشوارع والأماكن الحقيقية. وشجعتنى صورة نجيب وذكرى زولا على إضفاء القيمة على عملى. إنها نشوة التلميذ المجتهد الذى يتأهب للإجابة عن سؤال يعرفه حق المعرفة. وحينما أصادف أحداً من الذين أعرفهم وهم كثر ويرمقنى فى موقفى المشبوه أغض الطرف بسرعة كالبرق لكى لا يصرفنى أى متهم عن مهمتى التاريخية. لابد أن أشحذ الذهن وأجعل النظرة متقدة. قبالتى باب دار مغلق يخيل أنه لا يفتح أبداً إزاء هذا الضجيج والزحام والبلل. أما سكانه كيف أمكنهم أن يعايشوا الصخب عقوداً وعقوداً؟. وتسرب خيالى إلى درجات المنزل الملتوية وغرفه الضيقة كالصناديق ونوافذه الصغيرة المفتوحة بشح على هواء الدنيا. لكن رغم الضيق والرطوبة وشدة الاختناق تمثلتهم يتعشون السمك فى كل ليلة ويتابعون برامج التلفاز الصغير مغتبطين هادئين. وأغرتنى تخيلات الدار وشطحاتها القصصية فشرعت أسجل عناصرها بالقلم. ليس ثمة فرص طويلة من العمر للعب وضياع الوقت. عين فى الدفتر الصغير وأخرى على بائع الكمبرى وقد أقبل عليه عدد وافر من المستفسرين عن الثمن من دون أن يشتروا. وفى لحظة خاطفة أثارت انتباهنا معا كثرة المستفسرين فالتقت عينى عين الفتوة. من المؤكد أن الجلباب والطربوش والنظارتين أثبتت له أنى لست من رجال السلطة. ومع ذلك كشفت لى نظرته الملتهبة وفمه المقبوض أنه قد استشعر بعض الضيق من وجودى هناك منحشراً فطلب منى فى شىء من الجفوة أن أبتعد عنه. وكان لابد من بعض المروءة والجرأة فى سبيل الوصول إلى الغاية الجليلة. لذلك تلكأت وأوهمت الرجل بأننى بصدد إخفاء الدفتر. وتساءلت إن كان خائفا منى وهل ظن أن إدارة الحسبة بعثتنى لأراقبه إن كان يتلاعب بالأثمان أو يبيع سمكاً فاسداً؟. لكنى طالعت فى عينى الرجل شرراً متزايداً فتنحيت قليلاً وغمغمت بكلمات لم أفهمها أنا بنفسى ولا سمعها هو جيداً فما كان منه إلا أن مد رأسه نحوى حتى بدت عروق عنقه نافرة وزفر كالثعبان:

– «ماذا تقول؟.. سر الله يلعن...».

ولم يكتف بالقذف وإنما دفعني بيده المبللة فوسخ جلبابي ورفع يده الأخرى استعداداً لصفعي. ووجلت حقا لكني تباطأت في الانصراف حفاظاً على وقاري. آنذاك انتشل الرجل عياراً حديدياً وكاد يهوى به على رأسي. كان التهديد حقيقياً فخفق قلبي. وفي لحظات الارتباك سقط مني القلم والدفتر فحاولت التقاطهما فاستغل الوحش وضعي المتخاذل وتهيأ لركلي. وعاينت الحذاء المطاطي الأسود مصوباً نحو وجهي فأغمضت عيني واتقيت رأسي بذراعي. وتأججت في داخلي نار الاحتقار لأنى كنت أبهدل قريباً من مملكة طفولتي حيث الأمان والسند والعزة. وتدخل بعض المارة ونحوني عن الغول المهتاج وأنحوا عليه باللائمة. لكنه تحدانا جميعا بصراخه ومديته الطويلة كالسيف. وجرني أحدهم صعدا جهة «الساقية الفوقية». وفي هنيهة قصيرة لكنها نافذة كالأزل ارتبت في مهمتي الشاذة التي تطوعت لحمل عبئها دون سائر خلق الله. وتوجبست خيفة من أني لو مضيت في هذا السبيل الثقافي فقد أكابد فيما تبقى من أيامي مهانة إثر مهانة.

– ٤٣ –

تماسكت وأنا أدخل الكازينو. ارتميت على كنبة كخرقة بالية. كنت لا أزال واقعا تحت تأثير الصدمة. ومرت في الخاطر فصول الحادثة مضطربة متداخلة. قريبا مني تصاعدت غمغمة بعض المتحدثين لم أميز منها كلمة كأني في قاع بئر. حتى رضا نفسه لم أسع لانفراد به. ثم وقفت كمن به مس وقصدت المرحاض. غسلت وجهي.. وعلى المرآة انعكست ملامحي الخائبة:

– «هل أنت في عمر البهدلة؟. ماذا تريد من نفسك بالضبط؟. لماذا لا تجلس الآن أمام التلفاز تتابع بشهية مراحل الفيلم أو المباراة، أو تصعد إلى فوق تنسى ذاتك مع لاعبي الدومينو والورق؟. المصير غميق مجهول مرتبك، وحقيقتك غامضة

حائرة، والمتاعب التى تسببها لك محاولة الكتابة لن يفهمها أحد ولن تفلح أبدا فى وصف تفاصيلها. فلماذا لا تزيد فى الاهتمام بأعمال الآخرة وتمضى فى النهج القويم؟».

وخزني الضمير فابتعدت عن المرآة. وتسلطت على المخيلة وحشة القبر من دون أنيس. وضاق بى قفص الكازينو فلم أستطب أى ركن من أركانه. وعندما تجاوزت الباب الزجاجي تحاشيت من زيارة بنعيسي كى لا يعمق إحساسى بالخزى. كأنه زرقاء اليمامة يملك فراشة خارقة تسعفه على اكتشاف تخاذلي عن بعد ألف كيلو متر. كنا نقترب من ساعة الغروب لكن رسخ لدى أن رماد العصر لا يزال يتناثر إلى الآن فى دماغي. وتساءلت:

– «هل لغروب المتقاعدين طعم خاص يخالف غروب سائر الناس؟».

واكتشفت رقية سمات الوجوم السافرة فاستفسرت واستفسرت من غير أن تحصل على جواب. ومع ذلك راوغت لتعيدنى إلى عالمها فاستعانت بترتيب مائدة الطعام وإخبارى باطراد تحسن صحة محمود. وبعد الغروب وتمكن الليل من الدنيا أفلحت الولية إلى حد بعيد فى أن تنسينى. أضاءت المصابيح وجعلتنى أجلس إزاء بهجة ألوان الشاشة الصغيرة. كنت كالمسطول الذى أفاق من خدر ومازال يحتاج إلى مزيد من الوقت لاسترداد كل وضوحه. وفى متاهة الغبش الذى حاصرته أضواء رقية انبثق قرار عنيد كالشيطان:

– «لابد أن آلف هذه الحالة وأتعود المهانات وإلا لن أكون جديراً بتحمل المسئولية».

كنت متعباً فلم أقدر على الكتابة.

أسفى على المهمة التى لا تريد أن تكتمل. لكن ذلك لا يجب أن يمنع من

احترام الثوابت. ومن الثوابت الراسخة التردد على «حمام أمحلى» فى الصباح الباكر من كل جمعة. لم أكن على جنب وإنما هى عادة الاغتسال المتوارثة فى مثل الوقت. الطريق من «النقيبة» إلى «فندق النجار» يكاد يكون خالياً من المارة؛ وإن صادفت جاراً مجلببا يتجه مثلى إلى الحمام، وآخر ربما بائع خضر ذاهباً إلى سوق الجملة.

الدروب فى هذه الساعة من الصباح تتكلم لغة الطراوة والندى لكنها تتمنع دائماً عن البوح بالأسرار. أما الحمام نفسه فيتكون من مدخلين مسقوفين غطاؤه منحن تظهر السماء من بعض كواته المفتوحة. نصف جداره بالزليج التقليدى، الباب الخارجى الأخضر فوقه قوس، أما الباب الداخلى المفضى مباشرة إلى الحمام لونه أزرق. حمام عمره ينيف على مئتى سنة. بناه تاجر فاسى استوطن تطوان. شرعت فى التردد عليه منذ أن يفعت وطلبت الاستقلال عن الوالد الذى ظل وفيا «لحمام سيدى المنظرى» أقدم حمام فى المدينة. وربما ملت غريزيا إلى «حمام أمحلى» بسبب السحر الذى أستشعره كلما مررت من «درب أمحلى» نفسه، أو بسبب وميض تينك العينين اللتين أغريتانى هناك ذات يوم.

كنت أصطحب أبى إلى «حمام سيدى المنظرى» منذ نعومة أظافرى صباح الجمعة فيخيفنى الضباب الغامض وتقهرنى حرارة بهوه الساخن، أما والدى ومن معه فقد كانوا يصبرون على كل ذلك ويتلذذون به ويثبتون من خلاله رجولتهم، حتى إذا ما خرجوا من لظى «الساخن» إلى «الجلسة» راحوا يستمتعون بأكل البرتقال أو تناول المشروبات الغازية؛ «كيست» و«كوثر» و«فرات».

فى الدار كان الفطور ينتظرنى. البغرير والعسل والماء بالنعنع ورقية البهيجة. الاغتسال خفف من وطأة ثقل الرأس. استلقيت فوق المترية لأسترد الأنفاس. هنية تقوم بكل شىء ورقية تأمر وتراقب. واستحليت الاسترخاء، وكدت أغفو. لكن متى اجتمع الاسترخاء وعذاب الكتابة؟. ولسعنى السؤال فقمت لأعد عدة الخروج ورقية تستغرب:

- «تهدن.. خذ راحتك».

وودت لو أجبتها:

- «لا هدنة مع المسئولية».

لكني كنت أعرف أنها لن تفهمني فاضطررت إلى الكذب:

- «سأرتاح في الكازينو».

- ٤٥ -

عرجت على اليسار وأنا حذر من الدخول في أية مغامرة مع أحد. وبالطبع كنت مزوداً بالدفتر والقلم لكن تحت الجلباب. تكفيني متاعب «الطرانكات» و«المصدع». ثم إنه يمكن للمرء أن يمارس مغامرة من نوع آخر من قبيل الاستماع إلى الصمت أو الأصوات الناعمة: أصوات النوافذ الضيقة وأبواب الدور والأضرحة والمساجد والمنحنيات والأقواس وخرير الحنفية وصدى الأحجار الصغيرة التي كانت في السابق مغروسة في الطرقات. هي مغامرة السكينة وليست مغامرة الصخب. قريباً من «درب زيوزيو» التقيت عبدالقادر الشريف زميل الصبا في «المطمر». استفسرت عن حال أبيه الذي لا يغادر الدار من فرط العجز والمريض، وتحدثنا عن قرحتي، ثم فاجأني بالسؤال:

- «أمر غريب ما سمعته أمس.. ماذا وقع لك مع بائع السمك؟».

وأسقط في يدي. هل أعترف له بالحقيقة وأقول له أنا المسئول عما حصل؟. هل أكلمه عن الأسبوع المصيري والرغبة في كتابة الرواية؟. حتماً سيضحك علي وسيظن أني هربت من «مستشفى الأمراض العقلية بمابوركا». ثم إن الشريف رجل بيع وشراء وإشفاق على النفس والجسد. يحسن الحوار الاجتماعي بصوته الرخيم الذي يسعفه إلى حد بعيد على إضفاء هالة من الصدق المقنع حينما

يستفسر عن أحوال العافية. أما شئون الكتب والكتابة فلا قبل له بها. ورأيت أن أتعامل مع السؤال بخطة التعميمات فقلت:

– «أنت تعرف بائعى السمك بالمصدع وتعرف طبيعتهم. ثم إن الأمر انتهى بسلام ولله الحمد».

– «ولكن قالوا لى إن الصعلوك قد هم بضربك».

– «قد هم بالفعل لولا أن تدخل فاعلو الخير وأوقفوه عند حده».

وحدس الرجل بفراسة أبناء المدينة العتيقة أنى أتحاشى من ذكر سبب الحادثة فلم يتعمد الإلحاح وانساق هو الآخر مع نهج التعميم:

«– لقد اختلطت الدنيا حقا ولم يعد أحد يميز بين الأفاقين وأولاد الأصول.. مد يدك فلن تراه من شدة الظلام».

اقتربت الساعة من الحادية عشرة والحركة قليلة. الناس يدخلون الدروب ويخرجون منها كالنمل المنشغل بهمومه وأحلامه. أمشى الهوينا لعلنى أستعيد طعم «السويقة» الخاص. والطريف فى الأمر أنها حارة أمى، واعتبرتها دوما كما لو كانت مسقط رأسى الحقيقى قبل «المطمر». ومع ذلك يستعصى الإمساك بطعم هذا الحى الصغير المنطوى على ذاته.

سرقتنى الأقواس وتراب الجدران والأحجار وبعض الآجر الغميق فبدت كل تلك العلامات ناطقة بأسرار الدهر الغابر. وتذكرت حديث الأمس الذى عاتبنى فيه القوس العارى؛ وتساءلت إن كنت قد انهزمت حقا مادمت أطلب بصفة كلية الانغماس فى الماضى فأتفادى بسببه من التحديق فى عيون بائعى الحلويات والمأكولات والفحم والأثاث القديم وصانعى المتارب. النفاذ إلى الماضى هو الغاية، ولكن ألم يكن قصدى قبل ذلك الحاضر الشجى والعامات الماثلة أمامى الآن؟. قد أكون انهزمت حقا. أما الجو الشرقى المخيم على المدينة وعلى الصدور فيمعن فى توكيد هزيمتى. إنه يهيؤنى للانصات إلى الأعماق الداخلية حيث يفترض أن يتكلم

الماضى. لكن من يفعل ذلك؛ هل الهواء الشرقى أم رهبة الجمعة وجلالها أم هو نداء الموت الخفى؟. طلب الماضى يعنى التأمل مليا فى الأسقام المزمنة. الروماتيزم خامل هذه الأيام وضغط الدم لم أقسه منذ شهور. أما وخز المعدة فيظهر ويختفى كشمس تطوان فى يوم شرقى. ولكن هل تتكلم «السويقة» لغة واحدة أم عدة لغات؟. لغة الماضى أم الحاضر؟. أسأل ذلك لأنه يخيل إلى حينما أصيخ السمع أنى أستمع فى وقت واحد إلى أصوات متباينة المشارب تضج فى مخى الهرم إلى حد الجنون. إنى الآن منهزم إزاء هذا التعدد الصوتى بينما تقتضى المسئولية بعض الحزم وإلا جرفنى تيار العتاقة.

توقفت فى «درب الاسقالة» إزاء جدار كبير عمه الجير المموه بالنيلة. على مرأى عينى «الجامع الجديدة» وقبالتى درب قصير مسقوف بأعمدة التاريخ الندى يفضى هو الآخر إلى «للافرنجة». فى منتصف الدرب صنبور ناتىء فى قطعة إسمنت منحنية ملتصقة بالجدار. التف حول الصنبور أطفال يلعبون. التصقت بالجدار المقابل للدرب. من الواضح جدا أن موقفى يثير الشبهات. لكن من حسن حظى أن الأطفال كانوا منشغلين. وعنفنى صوت آمر:

– «اخترق عالم هؤلاء الصغار وتجاوزهم إلى حيث عراقة الكرامات ووقائع التاريخ. أنت لست مطالبا بكتابة مقال عن الأطفال وإنما مسئوليتك الوصول إلى الأعماق».

ثم أردف الصوت الآخر من جديد:

– «الأعماق هى مطلبك.. وسيان عندك عتاقة الأساطير والكرامات أو بشاعة الحاضر.. الأساس هو الأعماق».

انعطفت أنظر إلى داخلى، وأغمضت عينى فرأيت ظلاماً تكتنفه بقع بيضاء ذات أشكال مضطربة. ثم فتحت عينى مخافة أن أثير الانتباه. وعوض أن يسعفى الخيال بصورة قصصية إذا بمعلوماتى المدرسية تنهال علىّ لتظهر لى الإسبان

وهم يقتحمون المدينة فى الحرب الستينية خلال القرن التاسع عشر. لكنى مطالب باستشراف تاريخ آخر مكتوب فوق صفحة الأديم وعلى الحيطان المتآكلة وأعمدة الأسقف المنخورة. بل إنه مكتوب حتى فى الدم المتوارث. ذاك هو العمق المبتغى، وذاك هو جوهر العتاقة. فهل يمكن لحركات الأطفال ونظراتهم البريئة أن تحدثنى عن كل ذلك؟. إن ثمة فجوة بين الأمرين أعلم جيداً أنى لن أستطيع سدها إلا بالخيال. ولكن الخيال لا يسعف دوماً كما الحال الآن حيث أبدو كأنى أغازل المستحيل.. ومع ذلك صموداً ياأحمد.. صموداً حتى آخر رمق.

أذن المؤذن الأول لمسجد «للافرنجة» «بالسويقة» وفضلت فسحة من الزمن لالتقاط مزيد من الملاحظات. وعاودت النظر من جديد نحو الموضع الظليل الآمن. الماء يتدفق من الصنبور فيتطاير شرارة فى هذا النهار الصيفى الملتهب. يتدفق ويتدفق ثم يتوقف حسب هوى الطفل الذى يتحكم فى مفتاح الصنبور. ولم يجد على الماء بالصور التى أريدها فألححت ثانية أستنطق الجدار المطلى بالجير والنيلة الزرقاء. تحدث أيها الحجر وأيتها السوارى الممدودة فى السقف. أعلم علم اليقين أنكم على بينة مما حدث فى الغابر ومما يحدث الآن. إنكم تقدرون موقفى الصعب.. فلماذا الإعراض والصمت؟. أنا ابن تربتكم وسيل نداكم فهلا جدتم عليّ ببعض السر بعد أن شبعتم ظلاً وبللاً وفيئا.. ستون سنة وخمسة أيام من الوفاء. فهل كان وفاءً من طرف واحد؟. أأكون وحدى سخيا بينما تكتفون بالاستلام الواجم؟. حرام عليكم أن تتركونى كالمجنون أستجدى الحقيقة من حركات الأطفال العبثية. أم أنكم جاحدون كرواد مقهى «الطرانكات»؟.

دار مخى فى الفراغ. ولم أدر كم من الوقت استغرق ذلك، بيد أنى أحسست فى تلك اللحظات بأن مهمتى قد انتهت إلى فشل ذريع.

أذن مؤذن الصلاة فدخت مسجد «للافريجة» واتجهت نحو الجدار وجلست متكئا كما هى عادتى مواجها فى وقت واحد المنبر والباب. وتوافد المصلون. ورأيت رجلا ينزل من كرسى ذى عجلتين ويدخل المسجد قافزا برجل واحدة. جلس واتكأ

على سارية ثم ذاب فى خشوع العبادة. المسجد فسيح وارف الظل تجتنب بساطته الروح. ورفعت رأسى إلى السقف كأننى أطمئن إلى استمرار وجود الألواح الخشبية. وقبل أن أسلم نفسى للخطبة والصلاة ناجيت درب الصنبور:

- «لابد أن أعود إليك. أنا رجل مهزوم لكنى عنيد».

- ٤٦ -

لم أنس موعد الجمعة. فبعد الصلاة مررت على رقية وهنية ورافقتهما إلى دار عبدالصمد «بساحة مولاى المهدى». رحبت بنا زوجته وسلم علينا إبراهيم. وحضرت أختى السعدية وزوجها، وحشر أيضا كمال وزوجته والصغيرة نعيمة. وغاب نجيب كما كان منتظراً، فى حين اعتذرت فاطمة متعللة بضيق الوقت الإدارى ونقاهة محمود.

وأخذنا الحديث قبل الغداء وبعده. الكسكس بالدجاج والسمن والزبيب والبصل. أما أنا فقد اكتفيت بالخضر والفواكه بسبب القرحة. وجرنا الكلام إلى عتاقة المدينة موضوعنا الأزلى فقال كمال متأسفا:

- «تعبيد الدروب القديمة بالرمل والاسمنت بدل الأحكار الصغيرة المغروسة أسهم فى تشويه سحر المدينة».

وعاكسه عبدالصمد:

- «السكان تكاثروا والحياة الاجتماعية ازدادت تعقداً، وربما لذلك أضحى التبليط الاسمنتى عملياً أكثر من الحجارة».

ورد كمال من جديد:

- «أنا أتكلم من المنظورين المعمارى والعملى فى وقت واحد. الأحجار

المغروسة لن تعوق الإصلاحات في حالة إصابة المرافق الأساسية للمدينة. الواد الحار وأنابيب المياه وقواديس ماء السكوندو.. كل ذلك يمكن إصلاحه مع وجود الحجارة».

وقلت من موقع المسئولية التي أكتوي بنيرانها:

- «أنا من أصحاب الإبقاء على كل المعالم الأثرية في وضعها القديم.. الأقواس والسقايات والطرق الحجرية وقواديس السكوندو.. وإذا كان ثمة ضرورة للإصلاح فلابد أن تنجز من أجلها دراسات دقيقة ومناسبة على أساس حفظ المعالم كما هي.. وإلا ما أهمية هندسة الطرق وترميم الآثار إن لم تجمع بين الحسنيين؟».

ووافقني كمال لكنه أردف:

- «المشكلة أن الناس ليسوا كلهم على رأي واحد. هناك نقص في درجة الوعي إن لم أقل بالجهل. تصوروا أني ركبت في المدة الأخيرة سيارة أجرة ورحنا نخوض أنا والسائق الشاب في مسألة الاكتظاظ وضرورة توسيع الطرق فإذا به يتحمس لفكرة فتح طريق فسيح وسط المدينة العتيقة يفضي إلى باب العقلة. وعندما استغربت هذه الفكرة وقلت للسائق إن الأمر يتعلق بآثار قيمة وفريدة من نوعها في العالم بحسب عمرها بمئات السنين، وأن اليونسكو اعتبرتها تراثا إنسانياً، لم يبال بكلامي واكتشفت أن الجيل الجديد لا يملك أية معلومات عن مدينته ولا يقدر أهميتها».

ثم عاودني الحنين إلى نقطة البداية . قلت متحسرا :

«أسفي على الحجارة التي كانت مرصوصة بعضها إلى بعض في انتظام جمالي مدروس . حجارة الجانب الأيمن من الطريق ثم حجارة الجانب الأيسر .. مكورة الرأس .. رمادية .. ملساء .. متلاحمة .. وفي الوسط أحجار مغروسة في خطوط طويلة قد يستدل المارة بعددها ورموزها لمعرفة إن كان الطريق يفضي أو

ينتهي إلى مأزق .. أسفي على الأبواب العتيقة برموزها الأندلسية ومساميرها المحدودبة ، ودقاقاتها الحديدية المتقنة الصنع .. لقد غدت تقتلع وتباع أو تكسر من غير أن تشفع لها قرونها الطويلة ...» .

ولم يقابل عبدالصمد التحسر بالتحسر وإنما مضى يردد أفكاره المحفوظة لدينا :

« – إذا كنتم من أصحاب الإبقاء على الآثار كما هي فأنا معكم ، ولكن لابد أن تبحثوا لنا عن حلول عملية لترويج الصناعة التقليدية والإسهام في نقلها وإيصالها إلى الناس وإلا سنحكم عليها بالموت . المدينة كبرت والإقبال خجول والمرافق ضيقة . إنكم لاتقدرون مدى العذاب الذى نقاسيه فى كل مرة نتلقى فيها بضاعة أو طلبا خارجيا : فسيارات الهوندا لا تستطيع الوصول إلى الخرازين وإنما تتوقف قريبا من باب المقابر فنضطر إلى حمل البضاعة بالعربات اليدوية من البزار إلى الحدود الخارجية للمدينة ...» .

كان عبدالصمد يتحدث على سجيته دونما تشنج . يتكلم وهو يبتسم حتى غدا من الصعب أن نأخذ كلماته مأخذ الشكوى . وفى أثناء ذلك كان إبراهيم ينظر إليه في صمت بعينين غائرتين وشفتين مزمومتين . كأن لا رابطة تجمع بين الأب وابنه . وضايقنى المشهد المختل فتعمدت إشراك الولد فى الحديث . قلت :

« – منذ متى لم تر نجيب ..؟» .

من المؤكد أن إبراهيم يحترمنى فى أعماقه . الماضى انتهى ورابطة الدم لم تعد تعنى شيئا . هو فى واد ونجيب فى واد آخر . لذا أجابنى موحيا إلى عدم رغبته فى أن يمضى بعيدا فى هذا الموضوع .

« – التقيته منذ وقت قريبا خارجا من البنك ..» .

أدركت إيحاء إبراهيم فسايرته فى مرماه . وتأكد لى مرة أخرى أنى شيخ وأن حبل التواصل قد انقطع بينى وبين أبناء الجيل منذ قرون .من الواضح أن للفتى

وصحبه معجما خاصا وغناء خاصا ومدارك خاصة . ولم يبق ثمة أى مجال للوعظ وإسداء النصيحة . لكن زوجة عبدالصمد لم تكن من صنف البشر الذى يحلق عاليا ، لذا أبت إلا أن تنزل بنا إلى الحضيض :

« - لو كان إبراهيم مسعفا للزم بزار أبيه وأشرف على البيع والشراء بدل أن نضطر إلى الاستعانة برجل أجنبى .. إبراهيم لايسمع ..» .

وكما يفعل نجيب مع أمه كذلك تصرف إبراهيم .فمن الثابت أن الفتى قد سئم الرد المعاند وعلمته الأيام أن يختار سبيلا آخر للتنغيص على أمه من غير أن يبدد كثيرا من طاقته فى الخصام . وابتسم فى شماتة ثم أجاب فى هدوء :

« - لو كررت من جديد نفس الأزلية سأختفى شهرا آخر !!» .

ويكمت المرأة وبادر عبدالصمد ساخرا إلى تدارك الموقف :

« - ما رأيكم لو بدلنا الهم بالهم ؟» .

وفهمت رقية المراد فانتفضت مسرعة للإمساك بطرف الخيط :

« - عليهم اللعنة إلى يوم الدين . سرقوا منا ابننا وطمعوا فى سرقة الدار .. لقد آن الأوان لكى تتحركوا أيها الرجال .. وضعية العائلة فى هبوط ولا من أحد يحد البأس .. ها أنتم ترون الصعلوكة بنت موظف الباريو تمضى جادة لتشتيت شملنا .. أين أنتم أيها الرجال .؟ الظاهر أن أحمد وحده لن يقدر على شىء ...».

كنت أعلم فى يقينى بأن صرخة رقية ذائبة لا محالة فى السديم من دون أن يكون لها صدى عملى . أنا وهى لم تعد لنا أية سلطة حقيقية على نجيب فبالأحرى أن يصده أخوه أو عمه . بل إن المسكينة لم تكن تعلم أن الأمور قد مضت بعيدا وأن نجيب يعد عدة الزواج فى استقلال تام عنا . لقد عرفنا أنا وعبدالصمد أنه ذهب فى وفد من أصدقائه وخطب كريمة .. وفى خضم الانشغال بقضايا العتاقة والأعماق والرواية حرت كيف أبلغ كل ذلك لرقية وتركت الأمور بيد الله .

ثم مضى بنا الحديث فى متاهات الضرائب والحسابات البنكية وقيمة الفوائد .

عـدت ثانيـة إلى مـاء «السـويقـة» وقـد تناثرت أصـداء العـصـر فى الأفق والمنعرجات.

وصرفتنى قضية نجيب عن الأسئلة المصبرية فلعنت نفسى لأنى نسيت الرسالة المقدسة بمثل هذه السهولة . ومشيت من دون أن أدرى على وجه التحديد ماهو مقصودى ؛ التاريخ الصامت أم ربط الحكايات المنفصلة ببعضها أم العتاقة أم الوصول إلى الأعماق . لقد أنفلت الزمام فوجب الرجوع إلى البداية ...

أمام الصنبور رمقت صبية تملأ سطلها متلكئة لاهيه ثم تعود إلى إفراغه على قدميها وساقيها ، حتى إذا ما ملت اللعب بالسطل عمدت إلى غراف بلاستيكى وكررت من جديد عمليتى الملء والإفراغ . بنت فى حوالى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها ، ترتدى قميصا ورديا قصير الكمين وتنورة الموضة مكسورة ، من المؤكد أنها اشتريت مع القميص بثمن زهيد من «الفرسة الكبيرة» . أما نظرتها فعصرية للغاية تلمع ذكاء وتمكنا .

وجاء أفاق وطلب جرعة فسقته الصبية بالغراف ونظر إليها نظرة غامضة فلم ترتعب ولم تغض بصرها. وتعجبت من آين تستمد هذه البنت اللعوب جرأتها . واضح أنها لم تستقها من رطوبة الجدران ولا من عتاقة التاريخ ولا من سكناها القريبة من الدرب المفتوح . آه على صبايا زمانك يا أحمد . آه على السحر الجميل الذى كان يتبخر كلما استشعر عن بعد نظرة غريبة . هل يمكن أن تنسى ذاك الوجه الملائكى الفاتن لما أطل عليك ذات صباح من وراء باب بنى فى درب «حمام أمحلى» ثم ذاب فجأة قبل أن ترتوى ؟ وكم كررت المرور من الدرب لعلك تسرق نظرة كاملة فى المحيا المضىء ، لكنك شخت من دون أن تظفر بما تريد ...

خفض الأفاق بصره والتفت إلى ناحية الجدار المقابل فوجدنى أرقبه . كان

مخلوقا مغبرا لم أفلح في معرفة إن كان شابا أم رجلا . ملابس بالية داكنة اللون، وطاقية متسخة وملامح لا طعم بها . وتباطأت حركاته وهو منحن يتفحصني . ثم طلب أن يغسل وجهه فصبت له الصبية مبتسمة ماء فاض من بين يديه السمراوين ففرك زغبيات سوداء نابتة في ذقنه . من المستحيل التكهن من أين أتي وإلى أين يمضي ، فالمدينة أضحت مباحة . وصدرت عنه إيماءات تنبيء بأنه عازم على قضاء المساء أمام الماء والوجه الحسن . وقالت لي نظراته إن وقوفي هناك كالتمثال المراقب يؤذيه ويتدخل في شؤونه لذا فأنا مطالب بالابتعاد . أما الصبية فقد مضت في الاستمتاع بالماء المتطاير من دون أن تبالي بالمعركة المحتدة بين نظراتي ونظرات الأفاق . ثم صدرت عنه حركة دس خلالها يده في جيب سترته كأنه يبحث عن أداة أو مايشبهها . ثم تقدم خطوة ورجع إلى الوراء ، ثم تقدم ثانية فخفت من أن يفاجئني بضربة آلة حادة يخبئها . وبدأت أمشي بصورة تلقائية . اخترقت الدرب المائي القصير فتبعني الأفاق .

انعطفت يمينا لأن يسار الدرب كان مسيجا بباب حديدي فانعطف هو الآخر على يمينه . أكيد أنه يتبعني . تلكأت عند بائع علف فتلكأ . كل سماتي توحي بأني لست من سكان هذا الحي ويا للعجب : فهل أضحيت غريبا إلى هذه الدرجة في حومة أمي وأجدادي ؟. تابعت المشي من جديد فمشي الأفاق من جديد. توقفت لقراءة رخامة «درب للافريجة» فتوقف هو الآخر ورائي . وبدأ قلبي يخفق . هل يريد سرقتي ؟. أم يتعمد أذيتي لأني أفسدت عليه خلوته أم هو من كوكبة المجانين ؟. أين مني شوبيرا ، وسيدي عبدالسلام دالبحر ، المحزق . والسي مفضل ، وازرع كون المسالين ؟. وأسرعت الخطو فأسرع . بعض الدريب شبه فارغة في هذه الساعة المنحدرة نحو الغروب . وملت يمينا جهة «المصدع» فازداد الرجل اقترابا كما لو يود أن يلتصق بي . لقد أدرك جيدا أني لن أستطيع مصارعته ، فخطا ونظر وتصرف بكل وقاحة . هرولت صعدنا نحو «الساقية الفوقية» وولجت «مكتبة ابن خلدون» كالهارب . حييت بارتباك السي عبدالسلام فسلمني كرسيا

وجلست وعيني على الباب . ورأيت الأفاق ملتصقا بالجدار المقابل وقد انحشر بين بائع أثواب وبائع أدوات بلاستيكية . كان يرميني بنظرات نارية مجنونة ، نظرات لو صادفت عين غيري لانصرف نهائيا عن البحث عن مغامرات الدروب العتيقة . وأبديت انشغالي بحديث السي عبدالسلام وعناوين الرفوف . وانتقيت كتابا وشرعت في تقليب صفحاته بلهفة «حياة الرافعي» بقلم صديقه محمد سعيد العريان . وأثارت عيني أسطر تعمدت الانغماس بين حروفها لعلني أتخلص من شبح الأفاق :

«... إن الحب عند الناس هو حيلة الحياة لإيجاد النوع ، ولكنه عند الرافعي هو حيلة النفس إلى السمو والإشراق والوصول إلى الشاطىء المجهول ، هو نافذة تطل منها البشرية إلى غاياتها العليا ، وأهدافها البعيدة ، وآمالها في الإنسانية السامية ؛ هو مفتاح الروح إلى عالم غير منظور تتنور فيه الأفق المنير في جانب من النفس الإنسانية ، هو نبوة على قدر أنبيائها : فيها الوحي والإلهام ، وفيها الإسراء إلى الملأ الأعلى على جناحي ملك جميل ... هو مادة الشعر وجلاء الخاطر وصقال النفس وينبوع الرحمة وأداة البيان .

كذلك كان الحب عند الرافعي ، ولذلك كان يحب ... وسعى إلى الحب أول ماسعى على رجليه ، منطلقا بإرادته ليبحث في الحب عن ينبوع الشعر ، فلما بلغ أغلق الباب من دونه فظل يرسف في أغلاله سنين لايستطيع الفكاك من أسر الحب ...» .

ورفعت عيني نحو الجدار الخارجي . كان الرجل المطارد قد اختفى فتنفست الصعداء وأعربت للسي عبدالسلام عن انشراحي الطفولي للكتاب فاشتريته ثم رفعته نحو أنفي وشممت أوراقه وقلت كالواثق :

« - الطبعة المصرية لها رائحة خاصة ..» .

فرد السي عبدالسلام :

« – حتى القرائن الأخرى لها طعم خاص : الورق والغلاف والخط والحروف ...» .

« – ولكن قبل ذلك .. الرائحة» .

وعندما هممت بالخروج أفتر فم السي عبدالسلام عن ضحكة وهو يقول :

« – بين السرة والحزام كما هي العادة ؟» .

وأجبته مستسلما :

« – هكذا حكمت الولية ..» .

– ٤٧ –

دلفت ناحية «الطرافين» وإذا بالأفاق ينتظرني عند «زاوية البقالين» فوجلت حقيقة . تدبرت أسوأ الاحتمالات وأجدى الحلول فتذكرت الحكمة التي توصي بعدم التحديق في عيني السكير والمجنون . وغضضت الطرف لكي لاينكشف انهزامي . هرولت نحو الكازينو عبر «باب الرواح» ودخلت من غير أن ألتفت ورائي ووجدت هناك بنعيسي ورضا في جلسة ما بعد عصر الجمعة . فكرت في أن أخبرهما بحكاية المطارد لكني خفت من أن يخرج إليه بنعيسي فتحصل مشادة قد تنتهي إلى مالا تحمد عقباه . وزاغ بصري بين دخان السجائر وكؤوس الشاي والماء فوق الطاولة ، وخطف بنعيسي من يدي الكتاب وراح يتصفحه . وسألني رضا باهتمام:

« هل قرأت الجرائد ؟» .

أجبت بالنفي ، فعاد يقول :

« تذكرتك وأنا أقرأ مقالا طريفا كتبه عبدالقادر الإدريسي عن لقائه بنجيب

محفوظ بالقاهرة ... ورد في المقال أن الأكلة المفضلة للمبدع المصري هي البيصارة والفول المدمس ...» .

قمت لأبحث عن الجريدة في القاعة فلم أعثر عليها . استفسرت صبي الكازينو فأكد لي وجود كل الجرائد ، ثم أشار خفية إلي بلحاج الجالس النائم فوق الكنبة وهو يشخر . كان الشيخ يحتضن الجريدة المربوطة إلى عود طويل مثلما تحتضن الأم وليدها . ولم يكن من اللائق أن أوقظ الرجل أو أستل من بين يديه الجريدة ففضلت الأنتظار .

ونفث بنعيسى دخان سيجارته ولطمتني كلماته :

« – الرافعي مرة أخرى ؟ ... أوصيك دائما بفرسان الفكر والقانون ..» .

« – والرافعي ؟...» .

« – لوذعي اللغة فحسب» .

« – بل قل إنه الرجل الشهم ذو القلم السيال الذي يصول في كل حدب وصوب» .

« – ستظل هدهدا إلى أن تقوم الساعة» .

وبالفعل كنت في تلك اللحظة مشتتا بين شبح الأفاق وهاجس الجريدة . وباغتني بنعيسى من جديد وهو يتفرس بدقة ملامح وجهي :

« – الله وحده يعلم أي نوع من الوساوس تدور في رأس رجل الأصول» .

وسكت قليلا ثم أردف :

« – وبم تشعر اليوم وقد تحررت من قيد الوظيفة وأضحيت ضائعا في لجة التقاعد ؟» .

واضطرني السؤال إلى معاندة التشتت الذهني فقلت :

« – أنا كالشحاذ الذي هددته عناصر الفناء من كل جهة إلا أنه ظل يتمسك في عناد وصبر بهاجس طلب الحقيقة ...» .

وأعجب بنعيسى بالجواب الذى كنت قد حبكته أثناء خلواتى التأملية الطويلة ، فابتسم وقال :

« – سيكفيك انتصارا أن التقاعد بدأ يجعل منك رجل حكمة . ولكن قل لى كيف حالك مع حلم الكتابة ؟» .

كانت المواجهة الحقيقية بينى وبين المحامى فى حين اكتفى رضا بالإنصات والابتسام بيد أن انقشاع أجواء الجدل لم يجعلنى أندفع فى الكلام حذرا من فضح أسرار الأسرة . قلت :

« – المعضلة تكمن فى العثور على الوقت والظرف المناسبين للكتابة . فى خضم تربية الأولاد والتزامات التعليم كنت أرجىء دائما .أما الآن وقد تقاعدت فقد ظهرت منغصات لم تكن فى الحسبان . إنى أفلح فى اقتناص الملاحظات والإمساك بالقلم والجلوس إلى الصفحة البيضاء ، لكن العملية لا تتجاوز فى الغالب الأعم ذلك الحد . بعدها يتبلد الذهن ويتعب الجسد الواهن فلا أدرى من أين أبدا ..» .

وأحجمت عن القول :

« – آنذاك تأتى رقية لينطلق شلال الهذر» .

لكن يبدو كأن بنعيسى قد حدس ما أحجمت عن ذكره فابتسم وتحفز كأنه سيطير :

« – هل تعلم أن وليام فولكنر قال ذات مرة إن الكاتب قد يضطر إلى سلب أمه من أجل عمله ، وأن جورج برنارد شو مضى أبعد من ذلك حينما ذكر أنه يجب على الكاتب أن يقتل أمه من أجل أن يكتب ؟... ولست أدرى أين قرأت بأن إنكليزيا آخر قال إن أفضل طريقة لتوفير جو الكتابة أن تخاصم زوجتك . فبعد الخصام ستقطع المرأة عنك الكلام وستترك لك متسعا من الوقت للتأمل وترتيب الأفكار ثم نقلها إلى الورق بكل هدوء واطمئنان» .

كان للنصيحة الإنكليزية صدى فى النفس ، لكنى لم أجد حرجا فى الاعتراف:

« – وماذا سيفعل من لايستطيع مخاصمته زوجته ..؟» .

وصمت بنعيسى هنيهة ثم برقت عيناه :

« – فى هذه الحال يلزمه أن يقنع بدفء الحب وألا يتطلع إلى الخلود» .

كان هذا الحوار يلبى نداءات همومى الباطنية وينير جوانب السبيل الذى انتهجته سرا ؛ فلم أشأ أن أزيغ به أو أوقفه وإنما بادرت إلى فتح منفذ جديد :

« – وإذا كان المرء أعزب أو مطلقا هل سيكون الوضع أفشل ؟» .

وحار بنعيسى جوابا وهو ينفث فى فضاء القاعة مزيدا من الدخان لكنه بادر سريعا إلى إطفاء بسمتى المزهوة :

« – لست أدرى ما الذى أفتى به الكاتب الإنكليزى فى هذه النازلة إلا أننى أنصحك إذا كنت فى مثل هذه الوضعية بأن تخاصم العالم كله من أجل أن تكتب، وإذا عييت أسالم أنقل الحجر !!» .

وقهقه بنعيسى بينما اكتفيت بابتسامة غامضة .

ولم يزل بلحاج يحتضن الجريدة وهو نائم . وظهر أنى لم أكن وحدى المنتظر ؛ فقد حام حول الرجل نفر من أعضاء الكازينو متطلعين بشوق إلى ما بين يديه كما لو حاموا حول كنز سليمان . إلا أنهم وهم العارفون بمزاجه المتقلب لم يجرأوا على إيقاظه أو انتشال الجريدة ..

وتضايق أستاذ الكازينو والقيلولة من حوارنا الثقافى المخصوص كما هو طبعه فتململ ينظر يمينا ويسارا وقد حرم فى هذا العصر من نومه اللذيذ . ثم تطاول بعينه كمن يبحث عن طريدة أفضل . قام وأنحنى قليلا ونظر فى عينى بلحاج المنسدلتين ثم غاب عنى ، واستغللت فرصة الخلوة فبحت لابنعيسى :

« – يقول مثلنا المغربى لا تتعلق فين تتفلق . وأنا لست أدرى ما الذى جعلنى

أتشبث فى هذه الأيام بطموح أدرك مسبقا أنى لن أستطيع تحقيقه . أنظر إلى أقراننا سادرين بين قطع الشطرنج بكل متعة ، والتفت نحو أولئك الذين يكبروننا سنا وهم يتلذذون بأحاديث الولائم والأسماك والسيارة الميسورة . ما الذى يصدنى لكى لا أكون مثلهم ؟ ما شأنى وشأن الكتابة ؟. تصور أن زوجتى وأولادى كانوا يغارون فى زمن من هيامى البليد بقصص نجيب محفوظ . ومع ذلك لم تعذبنى الغيرة لأنى كنت أسلو بالشطرنج وأحاديث السمك والتجوال . أما الآن وقد ركبنى هذا المس الجنونى ...»

وسطعت من تحت الشارب الكث ابتسامة ، وقال الرجل كمن يتطلع إلى أن يزيدنى حيرة وتشتتا:

« أولا لقد أستعملت كلمة «بليد» فى مكانها المناسب ، وثانيا إنك ستظل معذبا عذابا مبهما غير مألوف بين أهل عشيرتك . أعرف أنك تطواني من الصنف الذى لايحلو له الجمع بين الضرائر .. قدرك أن تمشى كالأعرج ...» .

وطالت غيبة رضا . ربما يكون قد استرخى أمام التليفاز . أما أنا فقد كنت أتحدث كالخاسر الأبدى الذى يراهن على يومين متبقين من أسبوع التحدى . هذا الحوار تاريخى بالنسبة إلىّ . من كان يقول إن الصويرى كان سيدفن فى يومه الثامن ؟ عبدالكريم الصويرى صديق الطفولة والعمر كله . ماذا لو تطابق مصير الصديقين الحميمين ؟... بنعيسى لايعرف هذه الحقيقة ولا تعرفها رقية ولا يعرفها أحد ... هاهو المحامى يكيل لى الضربات بكل جسارة ... أنا لست كالخاسر بل الخاسر نفسه الذى لم يبق له أى مبرر لكى يخجل من الكشف عن وجهه . وكدت أعترف له .

« – لقد تكاثرت على الأسئلة فى هذه الأيام كأن مخى يتهيأ للانفجار فى نهاية الأسبوع . المدينة العتيقة ... المسؤولية ... الوصول إلى الأعماق ... الكشف عن السر ... الرجوع إلى الماضى ... التمسك بالحاضر ... نجيب محفوظ ... أسئلة ثقيلة حقا ...» .

لكننى تراجعت عن تقديم مزيد من التنازلات، ومع ذلك يظهر أن بنعيسى حدس مرة أخرى مادار في خلدي . ورشف من كأس شايه رشفة جبلية دوى صوتها فى كل القاعة ثم قال :

« - إنى أشفق عليك لأنك لم تستعد بما فيه الكفاية لمواجهة الأسئلة الصعبة ... الشجاعة الكافية تنقصك للانعتاق من محيطك الضيق ... لكنك فى الوقت ذاته تود أن توهمنا بأنك تطمح إلى تجاوز ذلك المحيط ... لماذا لاتكتفى بالعشق ولا تتطلع إلى الممارسة ؟. لماذا لا تحذو حذوى ؟. قدرى أن أعشق الفكر العلمى الرصين وأستمتع بقراءة الروائع وألا أحلم بالكتابة لأنها فوق طاقتى . يكفينى أن أجيد كتابة المرافعات القضائية ...» . .

لم يخلق بنعيسى لكى يجامل . ثور هائج منطلق فى الروابى الفسيحة يطلب القضايا الشمولية ولا يكاد يبالى بالتفاصيل التى ترهق . وبقدر ما كنت أود أن أجره إلى الخوض فى تلك التفاصيل كان ينفر ويرعن . قلت فى مثل البوح :

« - تصور أنى أتحرق شوقا فى انتظار لو ينشر نجيب محفوظ مؤلفا شخصيا يطلعنا فيه على حيله الفنية ويقربنا من عوالمه الخفية . لكنه لم يفعل ذلك للأسف الشديد . هناك حوارات وذكريات ونصائح عامة فحسب ... وأخاف أن يموت الرجل أو أموت أنا من غير أن يظهر إلى الوجود مثل ذلك المؤلف العظيم» .

مد بنعيسى رجليه حتى لمستا الطاولة الموضوعة أمامنا . كأنه يريد أن يتثاءب ويتمطط ليعلن بذلك امتعاضه من ضيق أفق أسئلتى وأفكارى المنطمسة . قال وهو يتجشأ :

« - أولا تدرى ما الذى حصل لرضا ؟» .

ولما أجبت بالنفى قال :

« - كنت قد التقطت من درجات العمارة علبة أقراص ربما رمتها إحدى الجارات أو سقطت منها وفحصتها فإذا هى علبة أقراص منع الحمل . ثم جاء

رضـا وجلس وهو يشكو من صـداع في الرأس جـراء قـيلولة طويلة فـأعطيتـه الأقراص بعد أن أخفيت العلبة وقلت له إنها مستوردة من أسبانيا وهي فعالة ضد الصداع . وأوصيتـه بتناول حبة واحدة قبل النوم في كل ليلة . وفي اليوم الثالث جاءني الأستـاذ شـاحب الوجـه زائغ النظرة كمن نسي عنوان داره . قـال وهو يرتخي على الكنبة :

« – كنت سأهلك ...!!» .

وأستفسرته متجاهلا :

« – خيرا إن شاء الله !!» .

قال :

« – دواؤك كاد يقتلني ... بعد أن تناولت القرص الثالث تضورت معدتي ألما . تقيأت وغطى السواد عيني . وحارت الأسرة بين المناداة على الطبيب أو نقلي إلى المستشفى فسجوني وجهة القبلة ومددت رجلي حذو بعضهما كما سأمدهما ساعة موتي ... الله يلعنك ألمسوخ ...» .

وتمكن بنعيسى من أن ينتزع مني ضحكة عميقة لم أطلق مثلها منذ أن كان عبدالكريم حيا .

وأذن في الكازينو للمغرب فتذكرت بلحاج فإذا به يستيقظ من نومه ويتجه نحو المسجد ممسكا الجريدة بيده اليمنى . مشى ببطء فتبعته ببطء أشد . وأودع حذاءيه في الرف أما الجريدة فقد لفها حول العود الخشبي ووضعها أمامه من دون أن يبالي بأحد . ثم قمنا إلى الصلاة . ثم افترقنا من جديد من دون أن يغيب بلحـاج عن نظري . وارتمى الرجل على الكنبـة الوثيـرة واسـتـرد الأنفـاس وفـتح الجريدة في تثاقل وسكينة كمنه يتـهيأ للقراءة الأولى . وكنا قد اجتمعنا ثلاثتنا من جديد أنا وبنعيسى ورضا . وقلت لهما في خيبة :

« – سلام هي حتى مطلع الفجر» .

وقررت شراء الجريدة .

هدأ عجاج الرياح الشرقية فى الليلة الوديعة . قمنا كما هى العادة لنتمشى . وعند باب الكازينو تلكأت باحثا يمينا ويسارا عن الرجل المطارد فلم أجد له أثرا ، ومع ذلك لم أطمئن كل الأطمئنان . واستطرد رضا طويلا فى حديث عن مزايا قضاء عطلة الصيف فى البيت وعن الحيل التى يمكن اللجوء إليها لإقناع الأولاد بأهمية البقاء فى المدينة خلال القيظ . وبين الحين والحين كان بنعيسى يقاطعة بعنف ليشهر ببخله الصارخ . وذكرنى ذلك بالعدة التى تقوم بها رقية للأنتقال إلى «مرتين» غدا . كنت فى قرارة النفس أحلم بالاسترخاء وقضاء الأمسيات الناعمة على الشاطىء بين الأقارب والأصدقاء كما فى سالف الدهر . لكن ثمة غروراً صغيراً غامضاً ليس من طبع سلالتى إلا أنه تمكن من الذات كالقدر . غرور أتلذذ مرضيا بالتميز به عمن يحيطون بى . غير أنى أقول لو كان غرورا حقيقيا أصيلا لكنت قد أعلنته للجميع وقدمت لهم نفسى بصفتى شيخا تطوانيا يدعى احتراف الكتابة ويكابد من أجل الكشف عن أصداء المدينة العتيقة . وحيث إنى لا أملك الشجاعة اللازمة لأشهر ذلك فقد حكم على القدر بأن أحيا كالجريح بين الحياة والموت .

اشتريت الجريدة من «مكتبة الناصر» . ثم توادعنا وسط «الفدان» بعد أن أبديت للصالحين رغبتى فى أداء صلاة العشاء فى المنزل . فى الحقيقة كان أمامنا متسع من الوقت لنقوم بمزيد من المشى ونستطرد فى الحديث لولا أن شبح المطارد لم يكن قد غاب عن بالى . ولم أبح بذلك للرجلين وإنما أخذت طريق العودة متوجسا حذرا فى كل لحظة من أن ينبعث الأفاق من أحد الدروب المعتمة . كان كتاب العريان لايزال فى يدى ، وعندما دخلت قوس «النقيبة» أخفيته تحت الجلباب ودسسته بين الحزام والسرة حسبما كان يعرف السى عبدالسلام . كانت رقية تعاتبنى وترى فى شراء الكتب تبذيرا لمال الأولاد وتفويتا لفرص تجديد أثاث الدار.

وسلمت فى خفة على رقية وهنية اللتين كانتا ترتبان حلوى «مرتين» فى صناديق قصديرية وأسطال بلاستيكية . وتسللت إلى غرفتى وأخرجت البضاعة المهربة وخبأتها بين الكتب القديمة . وارتميت فوق السرير . ومددت يدى أبحث عن أم كلثوم . وانطلقت السيدة تغنى ..

«وما نيل المطالب بالتمنى ★ ولكن تؤخذ الدنيا غلابا»

ثم أرجعت الشريط إلى الوراء ..

«وما نيل المطالب بالتمنى ★ ولكن تؤخذ الدنيا غلابا» .

ثم أرجعته ثالثة ..

«وما نيل المطالب بالتمنى ★ولكن تؤخذ الدنيا غلابا» .

وامتلأت حماسا ونفضت عنى كل أتعاب النهار الطويل وجلست إلى طاولة الكتابة وضعت أمامى ملفات «السوق الفوقى» و«المصدع» و«الطرانكات» و«الغرسة الكبيرة» وظللت أرقبها صامتا كتمثال بوذى . قلت تلك موضوعات قديمة بينما أنا ملزم بتسجيل الجديد وتدوين مالاحظته اليوم فى «السويقة» التى تحتاج هى الأخرى إلى ملف جديد . لكن «السويقة» لم تجد فى هذا النهار بأى شىء ، بل إنها كانت ستغدو وبالا على . أما الصبية وصنبور الماء والأفاق فقد كانت لهم أصوات عصرية للغاية لم تثر فى أية قشعريرة إبداعية لها صلة بالعتاقة . وأنبت النفس فى حدة :

« – وهل نسيت أن نجيب محفوظ لم يكن يرى فى موضوع «الماضى» سوى طريق لتصوير الحاضر ؟. ألم تنطق الجمالية والسيدة زينب والحسين والمدق تحت قلمه بوقائع العصر ومشاكل المجتمع الآنية ؟. ثم أنت نفسك لو رجعت إلى ملف «السوق الفوقى» للاحظت أنك قد أهتممت بصبى الحليب وهو ابن هذا الزمان ومأساة من مآسيه ؟... فهلا أرعويت وتعلمت كيف تتعامل مع العتاقة ؟...» .

وأجبت مستسلما :

« – كيف لى أن أتعلم وأنا أستاذ متواضع درس فى الأبتدائى والإعدادى ثم تقاعد ؟. أنى لى أن أتعلم بينما تحاصرنى يوميا فروض التقاليد والمجاملات ؟. أنا لا أرى غير نفسى وغير الحجر المهترىء فى جدران «المطمر» . من سيكشف لى الأسرار التى يظهر أنها لا تلقن ولا تسجل في الكتب ؟. العمر قصير والتحدى كبير . فلماذا أكذب على النفس ؟. لأعترف أن جسدى الآن فى هذه اللحظة بالذات فى حاجة ماسة إلى الراحة . أنا شيخ متعب .. والشيخوخة لا تسمح لى بالجلوس إلى طاولة الكتابة سوى دقائق معدودة ... وادعاء القدرة على الكتابة فى هذا الوقت كذب وخداع للذات ...» .

ووصل إلى سمعى صوت رخيم كنت أنتظره فى أعماقى :

« – أحميدو .. أحميدو .. العشاء ...» .

ولم يكن من الممكن تجاهل النداء فلقد علمتنى رقية الامتثال كالكلب المطيع . وانتشلت نفسى من حمأة الاعترافات المستسلمة وهبطت الدركات ملبياً النداء .

العيـــون

صباح السبت والباقى من زمن التحدى يوم وبعض يوم . مشروع رواية تطوان لايريد أن يتشكل رغم الجهد والمغامرات وكثرة الملاحظات المدونة . لكن قرار اختراق الحومة الرابعة لايزال سارى المفعول . دروب «العيون هى وجهتى فى هذا النهار . انطلق إليها من «المطمر» عاصمة الدنيا الأبدية . فى الحادية عشرة والنصف غادرت الدار . عبرت «النيارين» وتوقفت أسفل السقف ذى القناطر الحديدية الفاصل بين «الطرانكات» و«العيون» . على يسارى «الزاوية القاسية» المقابلة «للقنا الكبير» . من هنا تبدأ حومة «العيون» المحصورة ما بين «بابا النوادر» و«دار البومسية» وسفح «درسة» . خطة العمل تكمن فى الانتباه إلى السمات التى يفرزها اختلاط الناس بالأمكنة . ذاك هو السبيل العملى للقبض على سحر المدنية . أما الهم الروائى فلا مجال للتفكير فيه الآن .

الحركة تزداد رويدا رويدا حتى تصل إلى أوجها وقت الظهر . الجبليون اتخذوا أماكنهم بين الدكاكين يعرضون التين والتين الشوكى والبصل والقزبر والبقدونس والنعنع والخس والثوم والفلفل الحار . يفرشون البضاعة على الأرض جنب قنينات بلاستيكية وزجاجية بها لبن خاثر . بين الباعة بدويات تأتزر بمناديل مخططة بالأبيض والأحمر وتلف الرأس بفوطة وتضع فوقه شاشية كبيرة . لم تعد أحذيتهن موحدة كما كانت فى السابق بل غدت اليوم رومية ومطاطية . وثمة أيضا بائعو الملابس القديمة والأدوات والأثاث المستعمل ، وهى ظاهرة طارئة فى «العيون» بل وفى جل المدينة وكأن البالى غدا يوحد بين دروبها . وبين البالى وبضاعة جبالة دكاكين ودكاكين ودكاكين يباع فيها كل شىء يلبى حاجيات البدويين وسكان «العيون» . الخبز والشاى والسكر والقطانى والحليب والتوابل والمصبرات وأدوات الفلاحة والمنزل .. سوق طويل رائج يغلى يوميا بالباعة

والمشترين ، بالنساء والرجال ، بالأطفال واللصوص وطالبي معاشهم . أما المساجد والزوايا فتتوزع بإيقاع على ضفتي الشارع الرئيس . لكل مسجد وزواية تاريخ وكرامات وسمات لاتكاد تختلف في خطوطها العامة عن سمات «العيون» ذاتها : الانفتاح والبساطة والقرب من الحد الغربي للمدينة .

يتحدث التاريخ عن دماء أريقت في «العيون» وعن الرعب الذي ضجت به جدرانها وقلوب سكانها . وأتذكر أن أبي رحمه الله كان يحدثني عن هذه الحارة وهي في بدايات القرن العشرين ثم تزايد أهلها مع وفود البدويين والمهاجرين وامتلاء دروبها بالاصطبلات ومخازن القوت . عائلات من بني حزمر وبني زروال وبني حسان وبني يدر والريف وطنجة استوطنت دورها الضيقة الواطئة أو المتسلقة «جبل درسة» . بها ولد العالم الفقيه أحمد الرهوني ودفن جنب عديد من أفراد عائلته ، وفيها سمع السي مفضل سخط الوالدة حسبما حكوا . مارس رجالها شتى المهن : البناء وبيع الخضر والجير والفحم ، اشتغلوا مع الأسبان . عبدوا الله وعمروا المساجد كما انزلق بعضهم نحو الخمر واليانصيب والموبقات . أما نساؤهم فقد اعتنين بالبيت وتربية الأولاد والخياطة وغزل الصوف وتحمل المشاق . واشتغل بعض بناتهن لدى النصارى أو في دور الأثرياء واحتككن بنساء البلد وتعلمن منهن «الصواب» و«التاويل» و«الأناقة» وفنون الطبخ وصناعة الحلويات . وفي عديد من الحالات كانت مجموعة من الأسر تتعايش في دار واحدة؛ غرفة واحدة لكل أسرة . المرحاض وساحة الدار وسطحها مرافق مشتركة .

تقدمت إلى الأمام أستطلع وأشم وأسمع . عار علي أن أتساءل عن نقطة البداية بعد ستين سنة من المعاينة وستة أيام من الملاحظة المركزة . الخطة تلزمني بالانتباه إلى سمات اجتماع الإنسان بالمكان . لكن هاجسا آخر لم يتركني أركن إلى مبدأ الخطة الوحيدة وإنما فتح لي بابا جديدا :

« – ألست أوصيك دوما بالملفات القديمة ؟. أنت الآن مطالب أكثر من أي وقت

مضى بالعودة إليها والبحث عن القواسم المشتركة بينها وبين ملفات الأسبوع المصيرى . اجمع كل ذلك واجعله منطلقك فى تشرب حومة العيون وفى الكتابة عنها إن استطعت الكتابة. البائعات هنا لافتات للنظر - ومن خلالهن ستلاحظ أن معظم الملفات القديمة والجديدة لها علاقة بالبيع : بيع البنت في مأساة زبيدة . البيع في السوق الفوقى لدى التاجر القصير وحتى فى لعبة صبى الحليب - البيع فى الغرسة الكبيرة وفى المصدع . البيع الغريب لدى صبية السويقية .. البيع .. البيع .. كل واحد يبيع .. كل شىء صالح للبيع ....» .

— ٥٠ —

توقفت قريبا من متسولة تتكىء على جدار مسجد «سيدى على بن مسعود الجعيدى» . اليد ممدودة والعين مطرقة . هل تبيع هى الأخرى ؟ . قد تكون محتاجة حقا . وقد تكون متسولة مزيفة تكتنز الأوراق والنقود فى الوسائد والمتارب والصرر .فى هذه الحال ستكون كاذبة بائعة لذمتها . لكن بعض الظن إثم . الجلباب الرمادى البالى واللثام المرتخى أسفل الذقن والوجه المتغضن بالفقر . التفتت المرأة ورمقتنى أقف محاذيا لها بملابسى الأنيقة :

الجلباب والطربوش والنظارتان الذهبيتان والحذاء الرومى . وأمعنت فى تغضين وجهها فتحولت الملامح إلى ألم حقيقى محفور . ودسست يدى فى جيبى الجلباب فأمعنت العجوز فى تمثيل دورها . ودعت لى حينما لاحظت أن كل القرائن تدل على أنى سأتصدق عليها . فى تلك اللحظة الدقيقة لزم أن أكون انتهازيا :

« — من أين تكونين ألمسكينة ؟» .

« — من الحوز أسيدى ...» .

« – وأين تقطنين ..؟» .

« – في السانية ...» .

وخضخضت يدي تحت الجلباب ثم تابعت :

« – الزمن صعيب أللا ... الله يكون في العون .. الظاهر عليك أنك امرأة وحيدة ...» .

« – أنا وحدي .. وما عندي غير الله .. لا أولاد ولا عائلة غير الله الكريم .. عود مرمي .. لا صحة ولا نظر ..» .

وحدقت في عينها فإذا بطبقة من الغبش تكاد تغطيهما . وتأثرت لأني ظننت بالمرأة الظنون .

« – جئت من الجبل إلى المدينة بعد موت زوجي . وأكتريت غرفة صغيرة مع الجيران . خدمت الناس في الأعراس والولائم والمآتم . وعندما خارت قواي وكدت أفقد بصري بصورة تامة اضطررت إلى مد يدي ... الله يكثر الجواد » .

« – ألم تكن لديك ذرية قط ؟» .

« – يسر الله لي ولدا احتضنته وأعتنيت به وغديته بطعام الولائم وخيرات ملجأ الوسعة . ونشأ قوي البدن ، وحينما كبر غاب عني إلى الأبد . سمعت أنه يعمل في الجنوب وأنه تزوج هناك ..» .

وفتشت داخل جيب سروالي وأخرجت درهما فسلمته للمرأة فتخفف وجهها من حدة التغضن . وتأجحت بي رغبة عارمة للاستماع إلى المزيد من التفاصيل وساعدتني الصدقة على الوصول إلى المرام :

« – هل الجارات بنات الناس ؟» .

« – أسكن في الأسفل مع جارتين ، وفي الفوقي ثلاث عائلات فيهن صاحبة الدار . امرأة وعرة مكروهة .. ويوم أداء الكراء الشهري هو يوم الصراط .. تنتظر

عودتى بعد الزوال وتدور علينا واحدة واحدة .. تنزل إلى معصوبة الرأس متمنطقة ومشدودة كصوطة لعبة الورق .. لا تبتسم أبدا بل تأمر :

« – الدراهم ..!!» .

ولا أجيبها وإنما أدس يدى تحت الجهة اليمنى للوسادة وألتقط الدراهم العشرة وأسلمها لها ثم أتباطأ لعلها تنسى .. ولكنها لاتنسى :

« – والضوء ؟!. جاءتك فى هذا الشهر خمسة دراهم !!».

ثم أنبرم نحو الزاوية اليسرى للوسادة وأستخرجة الدراهم وأسلمها .. ومن رحمة ربنا أن فى الدار بئراً وإلا كنت أؤدى دراهم الماء الإضافية . لكن الصوطة الوعرة لاتمضى إلى حال سبيلها بعد أن تقبض نقودها وإنما تظل واقفة كالعمود أمام باب غرفتى .. أعرف أنها طماعة .. وإلا ما كان زوجها قد عاقبها بالطلاق وترك لها الأولاد الأربعة والدار وتزوج من هى أجمل منها وأصغر .. بنت الأصول ذات القلب الكبير .. يمتدحها عبدالغنى باستمرار كلما وقفت عند باب متجره «باب التوت» .. الرجل الطيب لايقصر فى حقى .. يحدثنى عن خفة خديجة وبشاشتها .. لقد عرف السعادة لأول مرة فى حياته على يدها .. لها عرقوب الخير .. وإن شاء الله سيرزق منها ذرية حسنة .. أما الوعرة ذات حاجبى الجنية فلا أحد يستطيع العيش معها .. حتى أولادها يكرهونها .. لاتعطينى ظهرها بعد تسلم النقود وتبقى واقفة كالعود المشنج .. تقول لى بعينيها .. ونصيبى ؟.. فأعرف أنها تطمع فى حصتها من صدقاتى فأضطر إلى أن أعطيها سكرا وشايا وفواكة .. لاتريد الخبز، ويعجبها التفاح كثيرا .. يعجبها الزبيب كذلك .. وفى الشهر الذى لا أحصل فيه على زبيب أشتريه لها من «الطرانكات» .. زبيب «الملاح» غالى .. وإذا لم أعطها تهددنى بالإفرا غ ورمى قطعى فى الجبل .. دعوتها إلى الله .. لكن ربى أعطاها قدر ما فى قلبها من شر .. حتى رجل لم يقبل بها زوجة على الرغم من غناها . حدثت أكثر من واحد فى ذلك .. هى التى طلبت منى .. كلمت شابا يشتغل فى محلبة فضحك .. كلمت رجلا يبيع سلعة «سبتة» على الأرض لايجد أين

ينام فداخله الطمع أول الأمر تم تراجع عندما رأى الأولاد خصوصا الجنى عبدالعالى .. يخطف قراميد أبليس .. غرفتى ليس لها باب فأسترها بحجاب .. وعندما أخرج يتسلل إليها المسخوط ويسرق كسر الخبز وبعض الأوانى.. نقودى القليلة أحملها معى أخبؤها للكفن والموت.. وحينما أشكوه لأمه تقلب علىّ الدنيا وتعيرنى بأن أولادها مربون.. المسخوط ولد المسخوطة تعلم منذ صغره الخمر والحشيش الله يلطف بنا».

تحدثت العجوز بحشرجة. فمها يتكلم ويدها اليمنى ممدودة ونظرها الأغبش منصرف عنى نحو المارة. ورقت نفسى لحالها. وتخيلتها بحركاتها البطيئة تضطر إلى تحمل أعباء الحياة وحدها دونما سند أو دخل رسمى.. الخروج والوقوف الطويل وإراقة ماء الوجه.. ثم الصعود وأتعاب الوضوء وإعداد الطعام وترتيب مكان الاستلقاء.. والمرض؟.. ثم التفكير فى توفير نقود الكراء والضوء والكفن؟. وعن لى أن أعرض عليها خدمة تخفف عنها بعض متاعب الحياة.. خدمة لن تكلفنى كثيراً:

– «إذا شئت ألا سأتكلف بأداء تكاليف كرائك وضوئك كل شهر فى سبيل الله»..

وارتبكت حينما نطقت بلفظة الشهر. كأنى لن أموت. والتفتت العجوز نحوى تختبر صدق قولى. ودعت الله أن يرحم والدى وكررت الدعاء. ثم سألتها إن كانت تستجدى دائماً فى هذا الموضع فأجابت بالنفى وذكرت أنها تغيره بحسب الأوقات والمواسم . وقلت:

– «أبغى معرفة مقر سكناك حتى أسلمك البركة فى كل شهر».

ولم تتحمس للاقتراح كثيراً. قد تكون كذبت علىّ فى كل ما قالته من افتضاح أمرها. وحينما لاحظت إحجامها بادرت إلى القول من جديد:

– «من مصلحتك أن أعرف الدار.. فكرى جيداً فى المسألة».

وساد بيننا صمت ثقيل قررت على إثره أن أنصرف للانغماس فى أجواء «العيون». آنذاك قالت المرأة كأنها تعتذر:

- «الآن ساعة الاسترزاق الله يرحم الوالدين.. وإذا جاء على خاطرك مر من هنا بعد الزوال الله يرحم الوالدين».

وأدركت مرادها ووعدتها خيراً.

- ٥١ -

تركت موضعى بحثا عن الجديد. أشم وأعاين وأسمع. روائح «العيون» وألوانها متميزة لدىّ منذ الطفولة. رائحة المداشر الغربية القريبة يحملها البدويون إلى هنا: «سمسة» و«الزينات» واللوزيين» و«أمزال» و«دار بنقريش» و«منكال» و«بنى عمران». روائح اللبن الخاثر والزبدة والجبن البلديين تلتصق بملابس وأيدى ووجوه البدويات وتمتزج بالعرق فتغدو علامة مميزة لهن. وتسترجع حاسة شمى رائحة السمن والعسل من حانوت الحاج كريمو رحمه الله وأنا غض صغير. كان وقتها للعسل رائحة. وكان لصمت الحاج كريمو دلالات ناطقة. أما صمت «الزاوية العيساوية» فكان مثيراً للرهبة. وحكت لنا أمي أحلاماً ملفوفة بالعنكبوت والضباب لا تزال صورها عالقة بالذاكرة. كانت أمي ترى فى منامها امرأة سوداء معروفة بـ«للاعربية» تخرج إليها من الزاوية وتقصد فراشها حيث ينام أطفالها ملتفين حولها فى اطمئنان فتحاول سرقتهم منها. وتكرر لديها هذا الحلم مراراً. فظل شبح «للاعربية» مهيمنا على عقلى إلى أن تعرفت فى المدة الأخيرة امرأة شابة تسكن فى «العيون» اشتهرت بموت أولادها فى أشهرهم الأولى. مات الأول. ومات الثانى. ولم يفلح الطب فى شيء . كانت امرأة مؤمنة. وفى المرة الثالثة احتضرت ابنتها الصغيرة فنصحها بعض النسوة بالذهاب إلى «للاعربية» والتماس الشفاء

منها فلم تفعل على الرغم من شدة معاناتها. وتوفيت الطفلة ولم تعمل الأم بالنصيحة.

البدويات ينتشرن فى الأرجاء ومداخل الدروب. تراهن واقفات أو مقرفصات أو جالسات يتحدثن مع بعضهن أو يسرحن بخواطرهن نحو المجهول. يفكرن فى النقود؟. فى متاهات الروابى؟ فى شراء بقرة أو غنمة أو ديك؟. فى اقتناء قطعة أرضية وتوسيع بناء الدار لتزويج الابن؟. هناك أيضا البائعون الرجال بالجلابيب أو السراويل الطويلة، عراة الرأس، بالطاقية أو العمامة. فما شأنى إذن والبدويات؟. ما قصدى من ورائهن؟. هل يسهمن بنصيب أكبر من الرجال في تمييز «العيون»؟. قد يكون السؤال عين الجواب. إلا أننى أتابع استعراض النظر إليهن وهن على يمينى وعلى يسارى واقفات أو مستندات إلى الجدران. كأننى ضابط يفتش جنوده. أحياناً تلتقى عينى عينى جبلية شابة فنتكلم لغة أخرى ثم أبعد نظرى سريعاً كى لا تظن بى الظنون. والحقيقة أن موقفى حرج ومشبوه، لكنى مضطر. وفى سبيل الغاية أحتمل الحرج والشبهة والتعب بل وحتى الجنون. كيف لى أن أضع اليد على السمات التى تخص الجبليات البائعات فى «العيون» وتميزهن مثلاً عن الجبليات القابعات فى مفترق «السويقة» و«السويقة العليا» فوق «المصدع»، أو تحت «ضريح سيدى اليوسفى» أو فى «الطرانكات»؟. خمنت أنهن أدرى منى بخصائص الأمكنة ومميزاتها، لذا تراهن يفضلن هذا الموضع على ذاك. من أجل ذلك يلزم أن أستعين بهن للاهتداء إلى الخصائص المكانية مثلما يهتدى بعض خبراء الفلاحين إلى خلية النحل عن طريق تتبع سربها الطائر.

تحركت. «درب الزرهونى». «درب السكيرج». «الجامع الجديدة». «درب اليعقوبى». تابعت المشى البطيء نحو «باب النوادر». الدروب فاغرة شدوقها المنحية على يمينى وعلى يسارى تتحدانى بانفتاحها الأبدى. ثم أنتبه إلى أهمية البشر المشتتين بين الدكاكين وعند مداخل الدروب. وأتوقف حينما أرى أحداً

يساوم سطل تين أو يستفسر عن طراوة اللين الخاثر. وبعد أن ينصرف المساوم أظل وحدى مع البائعة وجها لوجه لا أساوم ولا أشترى. ثم يسود الصمت المريب. آنذاك لا يبقى إلا الانصراف.

ووصل المشى المتثاقل إلى «درب الفاسى» الحد الغربى «للعيون». أما النتيجة فقد كانت مخيبة. قفلت راجعاً من الطريق نفسه. «درب ابن الراضى». «درب الفندق». «روض بايصه». «درب أحماد». «زنقة الكورفى». «درب بنموسى». «درب بنعجيبة». أمشى ويدى وراء ظهرى وسط الزحام. أخجل من نفسى لأن بعض العيون قد تكون اكتشفت مشيى المجانى: لا أشترى ولا أبيع فماذا أفعل إذن؟. لكن فى سبيل الغاية المقدسة تهون كل التهم. وأسمع ورائى:

- «بالك.. بالك».

ألتفت فإذا بعربة يدوية محملة بقنانى المياه المعدنية صاحبها متعب يشق طريقه بالعرق والكلمات الطيبة وباللعنات أيضا. أتوقف عند بائعة تفتح كيساً كبيراً أزرق يحوى كمية قليلة من بقايا خضر مختلطة كالكشكول. أمامها امرأة غليظة تشترى: جلبات محترم وسبنية جديدة ووجه بين الملاحة والذمامة. يظهر أنها تعرف البائعة جيداً لأنها تدخل يديها فى الكيس وتخرجهما بكل حرية بينما البائعة تراقب. انحنت المشترية وعزلت بعض قطع الجزر وقالت بإنصاف:

- «عندى درهم».

ثم عزلت بعض البطاطس التى ابيضت أطرافها بسبب العقونة:

- «والآن عندى لك درهمان».

ثم التقطت رأس كرنب صغير وأضافت:

- «والآن عندى ما مجموعه ثلاثة دراهم».

وظلت البائعة صامتة ترقب: هل ستثور فى وجه المشترية التى تعرفها؟. هل ستبعد يدها بعنف عن بضاعتها؟. أم هى امرأة مسالمة متحكمة فى أعصابها إلى

آخر مدى؟. وفى لحظة انتبهت المرأتان إلى وجودى القريب وانصرفتا عن كل شيء سوى النظر إليّ. كنت أتجسس عليهما بكل بساطة. انصرفت كمن ضبط بذنب.

وتوقفت أمام جبلية ذات وجه منكمش. الرأس ملفوف فى فوطة والمنديل المخطط تبرز ذيوله تحت الجلباب الأحمر القانى. تبيع سطلا من التين وقليلا من الخيار الصغير بدا لى أنه غير صالح للأكل. ساوم رجل السطل ثم ذهب وبقينا معا. ثم تسللت بيننا قطة بطيئة الحركة ميرقعة بالأبيض والأسود راحت تشم قطع الخيار فى أمان تام. وأثار الأمان اهتمامى فانسقت متأملا: من أين انبعثت القطة وفى أى ركن دافىء تنام؟. من أين استمدت سمات الطمأنينة التى تتسربل بها؟ من عبق التاريخ أم من قرون الرطوبة؟ من سكينة الدروب أم من إدمان الاختلاط بالبدويات؟. ولم تبال المرأة بالقطة. وسألتنى إن كنت أريد شراء التين فأجبت بأنى أنظر ليس إلا. آنذاك نهرت القطة فى غضب:

– «هل ظننته سمكاً؟.. ابتعدى».

وابتعدت أنا أيضاً.

انعطفت نحو «الوطية». الزحام شديد. «زاوية ابن قريش» فى الوسط. «حمام القيرواني». «دار البومبة». ونبهنى صوت عال:

– «بالك.. بالك».

التفت ورائى فإذا بعربة يدوية محملة بصندوق من السردين تتوقف وسط الطريق الضيق ويسرع صاحبها إلى حمل الصندوق إلى مطعم شعبى. احتجاجات ولعنات وضجيج. وأذن للظهر فقفلت راجعاً إلى قلب «العيون». هاهو الزمن يطير. هاهو العمر ينسل. تركت «مسجد العيون» و«مسجد سيدى على بن مسعود» علىّ يمينى كى لا ترانى المتسولة، ورجوت الرحمة فى ظلال «الجامع الجديدة». بعد الصلاة قصدت المرأة. كانت لاتزال فى موضعها:

- «ماذا تقولين ألَّلا.. هل ستعرفينني دارك؟».

وتفرست في العجوز بما تبقى لديها من نظر تستقرىء نواياى الدفينة. التفتت يميناً ويساراً ويدها ممدودة. ثم أسقطت يدها وقالت بحزم:

- «اتبعني».

فتبعتها في مشيتها المتخاذلة. وأشفقت عليها كما أشفقت على نفسي التي رميت بها في متاهات لا عهد لي بها. ونفذنا من «درب ابن حليمة» وصعدنا العقبة ثم توقفت المرأة لترتاح. واستأنفنا الصعود. وحاولت أن أمسك بيدها فرفضت. وانعطفت يساراً فانعطفت. ثم انعطفت ثانية إلى اليسار فانعطفت وراءها. كانت تتكىء على عصاها وأنا أتبعها في صبر. وأخرجت المنديل المطوى ومسحت عرق وجهي. هي حسنة آمل أن يحتسبها الله في الميزان. ولكن:

- «كيف تسنى لك أن تنسى نهاية الأسبوع؟. أتعطى وعدا من دون أن تقول إن شاء الله»؟.

- «ليكن الأمر إذن وصية».

- «وهل ثمة وقت لإحضار العدلين وكتابة الوصية؟».

- «سأكتفي بكتابة ورقة أكلف فيها كمال بالمهمة، ثم.. هو وضميره».

حانوت خياط هنا ودكان مأكولات هناك. الطريق عقبة وتلافيف. ولا راحة مع العقبة. وبين الحين والحين يظهر طفل أو امرأة أو رجل. يحدق في. غريب حتما. وتوقفت المرأة لترتاح ثم تابعنا الصعود. «السانية السفلى». ثم انقطعت الدكاكين وانقطع ظهور الأطفال والنساء. الدروب ضيقة، خالية، لا تعدم سحراً وظلالاً وارفة. الأبواب متقاربة بعضها من بعض في غير ما تشابه لكن الجير حاضر في كل مكان. وكذلك النيلة ولوني المغرة الصفراء والخضراء. ووصلنا إلى درب صغير ساكن ووقفنا عند باب منحن مطلي بالأخضر. وقالت العجوز وأنفاسها تكاد تنقطع.

- «هنا أسيدى».

واقتربت من الدار لأزداد معرفة بها. ونظرت خلفها فتراءت لى صخور وأتربة. ثمة درجات متآكلة تفضى نحو الأعلى المفتوح. وأطلت فإذا بجزء من بناء «القصبة» يبرز فى شموخ.. لقد حفظت الموقع. كانت المرأة تمسح جبينها بيدها المنكمشة وقد جلست على عتبة. ومددت يدى إلى محفظتى الصغيرة وأخرجت ورقة من فئة عشرة دراهم. كنت خائفا من أن يخرج إلىّ عبدالعالى فى ذلك السكون التام فيرى الورقة فى يدى فيطمع فى المزيد. وقلت على عجل:

- «هاك أللا.. لو طول الله فى العمر سآتيك فى نهاية كل شهر».

ودعت لى العجوز دعوات متتالية وأنا أوليها ظهرى. ولم أشأ العودة عبر الطريق نفسه وإنما سرت قدماً نحو «برج الأفعى» و«السانية العليا» وهبطت الدرب الذى يفضى إلى «باب النوادر».

- ٥٢ -

فى الطريق نحو «النقيبة» خفت من أن تنشط العلل بعد تعب يوم قائظ. طرقت الباب ففتحت هنية بوجه شاحب. وجدت رقية وسط الدار يشع الرعب من عينيها. وخفق قلبى بقوة حتى كان يطير. وخمنت أن سوءً قد وقع:

- «ماذا حدث؟».

وتماسكت رقية لتبدو هادئة:

- «أخوك عبدالصمد.. ضربوه على رأسه.. هو الآن فى مستشفى سانية الرمل.. حاله بخير.. لا تقلق.. أخبرنا إبراهيم فى الهاتف فى الحادية عشرة.. بحثنا عنك فى الكازينو والفدان فلم نجدك».

وعدت ثانية إلى التعب. الانحدار نحو «باب العقلة». الدروب والجدران والبشر يرددون الأصداد الجنائزية حتى قبل أذان العصر. المستشفى. وفى قسم المستعجلات وجدت عبدالصمد قد استيقظ من غيبوبته معصوب الرأس. لكنه لا يزال يترنح. وقبض المشهد قلبى. وقدم لى إبراهيم نتفا من التفاصيل. كان بوشعيب قد باغت صباحاً عبدالصمد فى البراز وأشبعه شتما ولعنا ثم أخذ كرسيا خشبيا وشج رأسه..

وأخبرنا أحد المرضين بأن الجرح غائر وهو فى جميع الأحوال يحتاج إلى مزيد من الفحوص وإلى مدة طويلة من الراحة. ومع توالى الساعات أخذ يتوافد على المستشفى عديد من أفراد العائلة والأحباب. زوجة عبدالصمد وباقى أولاده وأختنا السعدية وزوجها وكمال وفاطمة وزوجها. وقبل العصر حضر أخونا محمد. وحرر الطبيب المعالج شهادة طبية واصطحبنا الجريح إلى داره «بساحة مولاى المهدى» وتركناه يستريح.

وقفنا أنا ومحمد فى الشرفة المطلة على الساحة الدائرية. الكنيسة ذات المنارة المدجنة. النافورة والمقاهى والحركة التى لا تنقطع. الناس من هذا العلو يظهرون فى وضع غير مألوف. فى أزقة «المطمر» تعودت مقابلة البشر وجها لوجه أندادا متساوين فى الرؤيا، كانت أجواء العصر الصيفية تجلل المدينة. وفطنت إلى أن مسامى لا تتشرب العصر فى المدينة الجديدة مثلما تتشربه بين الأحياء العتيقة. واستحضرت مع محمد ماضى الساحة: «بلاثا بريمو» وقد أحاطت بها من جميع جهاتها الدائرية مصاطب الجلوس المنحوتة من الصخر الأملس. أعمدتها الرقيقة البيضاء ذات المصابيح وقد انتصبت عند مداخلها الأربعة. نخيلها . شجيراتها. شيوخها. أطفالها. مغاربة وإسبان. أغنياء وصعاليك. موقف مركز الهاتف. بنك أسبانيا. ومكتب بيع تذاكر القطار من تطوان إلى سبتة.

ثم نادى علينا إبراهيم.

كان عبدالصمد قد أفاق من هول الصدمة وإن لم يفارقه الألم، واختلينا به.

كان متكئا فى غرفة نومه على وسائد وفى عينيه تعب كبير. وماعت فى الجهة اليسرى للعصابة بقعة الدواء الأحمر. لم يكنّ عبدالصمد من هؤلاء الذين يستسلمون لليأس بسهولة، لذا لم تنمح من شفتيه آثار ابتسامته الدائمة.. وحكى ما جرى:

- «حوالى العاشرة صباحاً انبعث بوشعيب أمام البزار. كان العمال في الدار الملحقة بالمتجر منصرفين إلى المسح والترتيب والتعليق وأنا جالس بالباب. وظهر موظف «الباريو» كالشيطان بعينيه المخطوفتين وجسده النحيل كالمسمار. وتيقنت بأن الصباح لن يمر بخير. سلم فرددت السلام بأناة. واستأذن أن يتكلم فأذنت له. قال إنه جاء فى مهمة حبية. إنه لا يريد أن يعود إلى أحداث الماضي على الرغم من أننا ظلمناه. وحتى إن كنا ظلمناه فقد جاء الآن يطلب المعذرة. أما السبب الرئيس لزيارته أن يدعونا للتسليم بالأمر الواقع وبدء صفحة جديدة. قال إننا جميعا على علم بارتباط نجيب بكريمة. لقد عقد قرانهما في غيابكم. وهما مزمعان الآن على الزواج ولا نريد أن يتكرر الغياب ثانية .. ومن مصلحة الولدين أن تتفاهم العائلتان.. لقد اتصلت بك لتمهد لى الطريق للحديث إلى الأستاذ أحمد المعنى بالأمر أساسا.

وتحدث بوشعيب بارتباك وأنا صامت. وحينما بدا كأنه أفرغ مافى جعبته أجبته بأن لا علاقة لنا بكل ما قاله.. نحن لا نعترف بذلك الارتباط ولا بعقد القران ولا بالزواج. وذكرته بالدار التى أذاقنا بسببها الأمرين، وهاهى ابنته اليوم تزيدنا مرارة. ووجهت له كلاما حاسما: لم تعد تربطنا بكم أية رابطة.. ابتعد وابنتك عن طريقنا إلى الأبد.

وانتفض بوشعيب كالمسعور. وكرر ثانية أنه جاء فى مهمة صلح وأن لا داعى للصدود. الفتيان أحبا بعضهما وكلنا مطالبون بالتسليم بذلك. ثم ألح فى انتزاع موعد ليناقش معك تفاصيل الزواج.. آنذاك ثار فى داخلى تهييج بركانى. كان الرجل يتحدث عن الزواج كأنه أمر لا مناص منه، كأننا المنهزمون المطالبون

بتوقيع شروط الاستسلام. وقمت واقفا وطلبت منه أن يبتعد عن متجرى. وحينما لاحظت أنه لم يتحرك وأنه مصمم على البقاء وإطالة الحديث دفعته بيدى على صدره ليتنحى لكنه لم يفعل فأرغى وأزبد وظهرت حقيقته الشرسة التى عهدناها فيه. ثم بدأ يسب، وحينما وصل به الأمر إلى لعن الوالدين دفعته ثانية دفعة قوية حتى كاد أن يسقط، ولكنه لم يسقط وإنما استغل فرصة تمايله فوق كرسى خشبى اختطفه فى رمشة عين وهوى به على رأسى.

وتتالت الوقائع سريعاً من دون أن ينتبه العمال. وحينما حضروا كنت طريح الأرض وقد بدأ يغمى علىّ. أما ولد السوق فقد ولى هاربا قبل أن يدرك الشبان حقيقة ما حصل وإلا لكانوا قد مزقوه».

وناقشنا مع عبدالصمد التبعات القانونية للحادثة. كان يتكلم بإجهاد فعز علىّ أن تفضحنا الدنيا فى آخر أيامنا بمثل هذه الصورة الشنيعة. هاهى دائرة أخرى من المكاره تحوم حولنا. ولاحت فى الأفق المهام المعقدة التى تنتظر الأسرة. الإجراءات والمحامى والجرى ومواجهة الصعاب. ثم زواج الخزى. وفى أثناء كل ذلك سيتبخر مشروع الرواية وما يتصل به من بقايا زمن ضاغط ومدينة تنتظر ومصير معلق بيد الله.

- ٥٣ -

أثقلت علىّ سنواتى الستون كما لم تثقل فى أى من أيام الأسبوع الماضية. تعب الشيخوخة وعدم القدرة على الفعل وتفاقم التواءات المعدة. وفى الدار توضأت وصليت بصعوبة. وهيأت رقية ماء ساخناً ورطبت رجلى. لكن حينما ترتفع درجة التعب تنأى فرص الراحة ويغدو الجسم آلة لا تنتج سوى الشرود والأرق. ضربت صفحا عن التلفاز و«إذاعة لندن» وأم كلثوم. ولم أطمع فى الإمساك بالقلم. وشردت فوق المترية:

– «الأمور تزداد تعقيداً. العائلة مهددة بالفضيحة بسبب نجيب، وأنت ستعلن فشلك لا محالة بعد يوم واحد. فضيحة نجيب بدأت تفوح أما فضيحتك مع نفسك فستظل سراً. لست فى مستوى التحدى، ومن حسن الحظ أن هزيمتك لن يطلع عليها أحد سوى الله. من حسن حظك أنك لم تبح بحكاية الأسبوع لأحد. وبعد نصف يوم من اللهاث عرضت «العيون» أمام عينيك كل شىء، إلا أنك لم تعرف كيف تستخلص منها الرحيق.. ورغم الداء والأعداء كان يجب عليك أن تجلس إلى المكتب وتباشر العمل لأن المشاهدة وحدها وحتى جمع الملفات لا يكفيان. «العيون» فتحت لك قلبها فلم تحسن التصرف. قد تكون حادثة عبدالصمد أجهضت المهمة، ومع ذلك فالعيب فيك أنت القاصر. أنت القزم، وهاهى الحارة الأخيرة من حارات تطوان تلقنك الدرس العميق وتكشف قيمتك الحقيقية».

بعد العشاء زادت التواءات المعدة حدة فهيأت لى رقية الدواء. كانت المرأة واجمة تتحرك فى بطء وقد فتر حماسها عن مشروع «مرتين» ريثما تنقشع السحب. وتبادلنا كلمات قليلة قبل أن نستسلم للظلمة.

الغـــروب

تهيأت لاستقبال المجهول. تلففت بالبياض كما لو أني مكفن. الجلباب وطاقية الحج، عيون رقية تكتشف اليوم كل صغيرة. أهرب منها إلى حيث الخلوة. مامن شك في أن الولية قد حدست اليوم سلوكاً غير عادى في تصرفاتي لكنها لن تستطيع أبداً إدراك الحقيقة.. لا هي ولا غيرها.

تمددت على الفراش في غرفتي العليا. قلبي وسمعي وراء الباب على الرغم من طول المسافة بيني وبينها. وتحفزت لكل طرق. لابد أن أهرع سريعا لأفتح الباب قبل هنية ورقية. هي حالة نفسية غير مألوفة يصعب وصف تفاصيلها: ترقب وانتظار ملك الموت في نهار بعينه من دون أن تكون على يقين بأنه سيأتي. أستغفر الله العظيم وأجله عن التدخل في شئونه. ثم أعود بالفكر إلى أحوال الدنيا. تناولت ورقة بيضاء وكتبت فيها أسطراً لكمال أوصيه بمتسولة «العيون». لن أكتب وصايا رسمية بالمدخرات والعقارات. لا يروق لي ذلك. وخطرت صورة هاربة للأولاد وهم مجتمعون؛ فاطمة وكمال ونجيب ومحمود ونعيمة. قد يطرق الآن كمال ليملأ الدار دفئا وانشراحا.. أو قد تصعد رقية ممسكة بيد نعيمة أو محمود ليزرع الحبور في كل الأرجاء؛ يلعب بشاربي، يكتب بأقلامي ، يتسلق الرفوف. لكني أعترف بأن لنعيمة في هذه الأثناء موضعا حميما بين الضلوع. الصغيرة ليست عنيدة. وعادة ما تطيل النظر أكثر مما تتكلم. ولست أدرى إن كان العمر سيطول بي لإدراك حقيقة مواقفها مني. أما من ناحيتي فمن المؤكد أني ظلمتها لما فسحت القلب لمحمود أكثر مما فسحته لها.

ورن الهاتف فطار معه القلب. انتظرت أسوأ الاحتمالات فإذا بصوت رقيق يخاطبني في قلق:

- «أنا كريمة».

- «من؟».

- «كريمة بنت بوشعيب.. اسمع أسيدى أحمد.. ليس هناك وقت لنضيعه.. إنى الآن أعيش لحظات الحرج.. أطلب منك أن تلتحق بى على وجه السرعة.. عند مدخل الطويلع.. الأمر يتعلق بإبراهيم ونجيب».

فى البداية خمنت أن بوشعيب وابنته ينصبان لى كمينا. لكنى بمجرد ما سمعت اسمى إبراهيم ونجيب حتى تمكن منى الخوف عليهما وقررت المغامرة حتى وإن كانت العاقبة وخيمة.

وعاودت مستفسراً:

- «ماذا جرى؟.. هل حصل لهما مكروه؟».

وردت البنت بأنفاس متقطعة:

- «قد يحصل إذا تأخرت.. أرجو أن تسرع.. إنهما يتشاجران مع بعضهما.. أسرع إلىّ.. الطويلع.. عند موقف سيارات الأجرة».

لم أخبر رقية وطرت نحو «باب العقلة». ركبت سيارة أجرة وتضرعت إلى السائق بأن يسرع ما أمكنه لأن الخطر يتربص ببعض أفراد عائلتى. ومن بعيد تراءت لنا جوقة من البشر لاشك أنها تحيط بالولدين. وقفزت من السيارة فى خفة واخترقت الحلقة فإذا بثلاثة من الرجال يمسكون نجيباً وثلاثة أو أربعة يمسكون بإبراهيم. وكان ثمة دم وخدوش وملابس ممزقة. وخرجت عن أطوارى وأنا أعاين البهدلة. وذكر واحد من فاعلى الخير أن الجماعة فصلت بينهما أكثر من مرة ثم كانا يعودان إلى التلاحم والصراع. وتمنيت لو واتتنى الجرأة والقوة لأنهال عليهما لكما. ودفعتهما أمامى. وابتعدنا عن الجوقة فى مشهد بئيس وانحشرنا فى مدخل عمارة. ونهرت نجيب:

- «لماذا هذه الفضيحة؟».

وقال الولد وهو يلهث:

- «لقد حاولت صده عن الاعتداء على بوشعيب.. قلت له يكفى تقديم مقال الدعوة والشهادة الطبية إلى المحكمة .. وإذا اعتديت عليه فستنقلب الآية وستصبح أنت المعتدى.. لم أفعل شيئا آخر إلا أن أصده.. لكنه دفعنى ولطمنى كأنى عدو لدود.. كان قلبه عامراً بالحقد».

ثم انصرفت ناحية إبراهيم وسلمته منديلى ليمسح وجهه. كان يغض الطرف ويدارى غضبه بإيماءات اعتباطية. ورتبت ملابس الولدين ومسحت الخدوش. ووقفت عند باب العمارة فلم أجد لكريمة أثرا. وتصورت مصاعب الطريق بين «باب العقلة» و«النقيبة». وغمغمت: «الله على فضيحة.. الله على فضيحة». فكرت فى أن نقصد دار عبدالصمد لأن المسافة ستكون قصيرة بين نزولنا من السيارة وصعودنا إلى العمارة. لكنى أشفقت على أخى أن يرى منظر البهدلة فيزداد جرحه غوارا. نحو سيارة أجرة ونزلنا عند «رباب العقلة» وانعرجنا يمينا نحو «الجنوى». ومن حسن الحظ أن الطريق من هناك إلى «النقيبة» يكون باستمرار شبه خال.

كان إبراهيم يجترمنى منذ طفولته. أما فى هذه الساعة فقد شع فى عينيه قدر من الوقاحة ووجهه يكاد يقول لى: «إنك وابنك سبب كل ما حدث». ولم أبال بتخميناته. هو الآن خارج أطواره. ومع ذلك امتثل لأوامرى.

وفى الدار شهقت رقية عندما رأت منظر الشابين وآثار العراك لا تزال بادية عليهما.. وطفقت تبكى فى هستيريا:

«- أبنى.. أبنى .. وأنت يا ولدى إبراهيم .. أى شئ وقع.. ؟ أى شئ وقع؟ ».

واقتربت من الوالدين وتحسست أطرافهما. وقلت لها وأنا أرتخى على المترية:

- إلى الآن لم يحصل شئ والحمد لله .. ولكن يظهر آن أسرتنا نكبت بالفضيحة..

وهرعت هنيه تبكي هي الأخرى فنهرتها مثلما نهرت رقية وطلبت من الولدين أن يذهبا إلى الحمام ليغتسلا بالتناوب. كان كل منهما يتحاشى من النظر إلى الآخر. وقام إبراهيم فانفردت بتجيب:

«– أحك لى ماذا حدث بالضبط؟»

وخفض رأسه وقال:

«– فى الصباح خاطبتنى كريمة بالهاتف وطلبت منى أن آتى مسرعا إلى الطويلع حيث مقر سكناهم الجديد .. قالت لى إنها رأت إبراهيم منذ ساعة يقف قريبا من دارهم فأدركت أنه يتربص بأبيها وينتظر خروجه لينتقم. وطرت إلى الطويلع فإذا بإبراهيم يتطلع إلى رؤية بوشعيب وهو يبكي ويتميز غيظا. وخاطبته بالتى هى أحسن وذكرته بالعواقب لكنه أصر على البقاء . وعندما طال به أمد الانتظار أراد أن يهجم على دار بوشعيب فصددته عنها بالقوة .. واحتد الموقف وفقد كل منا أعصابه .. خاطبنى بكلام بذئ لم أسمعه منه قط .. حملنى مسؤولية ما حدث لأبيه ووصف كريمة بكلمة أخجل من قولها :

« – أنت الذى فضلت ال .. على عمك وابن عمك ...»

وقاطعته رقية فى حدة:

«– ولماذا تخجل من النطق بها؟ .. إبراهيم صائب فيما يقول .. ولا أحد من ذوى الأصول بإمكانه أن يتحمل هذه المذلة .. إبراهيم على صواب !!».

وكادت أن تحتدم معركة جديدة بين نجيب وأمه. وعاد إبراهيم وقد غسل وجهه واستبدل قميصه الممزق بآخر سلمته له هنية فبدا أكثر ارتياحا. ثم قام نجيب ليغتسل:

«– فى آخر الزمان ما تشترى بلاد، ما تتمنى أولاد!»..

واصطحبت إبراهيم إلى دارة وكما كان متوقعا ارتعب عبد الصمد مثلما ارتعبت زوجته وحينما هدأت العواطف خلوت إلى أخى. قال لى إبراهيم قضى

معظم الليلة السابقة يطل من الشرفة يدخن ويحدق فى النجوم والفراغ. وفى الصباح الباكر غادر الدار من غير أن يفطر وتوجسنا من أن يكون الخروج المبكر نذير شر فحاولت أمه أن تصده .. وتحقق ظننا ...

ـ ٥٥ ـ

هكذا انسحقت فى يومى السابع هكذا عاكستنى الظروف وأقعدتنى عن إتمام الرسالة مزاجى اليوم سقيم ثم تراه يزداد سقما حينما أفكر فى الكتابة والرواية والعتاقة. من الواضح أن بنعيسى قد ربح الرهان. سأكون الخاسر مثلما هى عادتى فى كل التحديات والمنافسات. لن أقدر على تحقيق التميز. أنا نسخة مثل سائر عباد الله وإذا أطال الله العمر سأعود مجدداً إلى مستنقع تفاهتى الآسن لكن عبد الكريم دفناه فى اليوم الثامن وعبد الكريم خل فيه الكثير منى .. إنه صنوى .. ولا يمكن بتاتا أن أتجاهل صوته الآن وهو ينادينى ويفتح لى ذراعيه..

ولم تعد رقية تتحدث عن رحلة «مرتين» الحقائب وصناديق الحلوى وأدوات الطبخ يتيمة فى ركن من البرطل. الولية تجهش بالبكاء تمسح عينيها ثم تعود لتبكى وهنية جالسة عند قدميها. وأنا فى حالة استقرار بل فى حالة انتظار لدى انطباع كما قال مفكر إسبانى بأن كل الأشياء إنما أقوم بها للمرة الأخيرة . فى معدتى ألم حقيقى أعرف أن «النورمو كاصطريل» لن ينفع معه.

صدمة الصباح حركت القرحة وبدأت أفكر فى الطبيب . أما نجيب فلن أستطيع حياله شيئا لن أستطيع شيئا حيال أى أحد، حيال أى مشروع بيد أن رقية لن تخسر المعركة من دون مقابل. كانت فاطمة المطلعة على كل الأخبار قد علمت بنبأ الزواج المنتظر ووشت به إلى أمها واجهشت الولية:

« – إذا تزوجها يجب أن نقطع كل صلة به .. لن تضيع الأصول بمثل هذه السهولة ..».

-لم أجبها أنا المنهزم على جبهتين. وصعدت إلى الغرفة التويت فى إزار ثم تمددت. ولويت عنقى نحو المكتب فإذا بملفات تطوان تنادينى فى سحر كنداء حورية البحر و «العيون» المسكينة أين ملفها؟ . وانتفضت الدروب والجدران والندى والظلال والأصوات والروائح والأقواس والجمال والأوساخ تنقض على فى وقت واحد . هل هو الجنون؟ بعض كبريائى يمنعنى من مصارحة رقية إلفى وعشيرى وحافظة أسرارى. وقد أعترف لها بكل شئ إلا بهذه الحالة المائعة التى ورطت فيها نفسى. حتى بنعيسى نفسه لن يطلع أبداً على التفاصيل .. عبد الكريم هو المخلوق الوحيد المرشح للاستماع وامتصاص الأسرار كالإسفنجة.

قمت نحو المكتبة وجلست على الكرسى. أمسكت بالقلم بين أناملى واتخذت هيئة الكاتب حدقت فى الصفحة البيضاء فحدثتنى بسلاطة. وضعت يدى اليسرى فوق معدتى ورحت أقلب بيمناى ملفات «السوق الفوقى» والغرسة الكبيرة» و«السويقة» و «الطرانكات» و«المصدع» أما «العيون» فيجب أن تنتظر ذهاب هذه الحزة. ولكن ماذا بعد تدوين الملاحظات وفتح الملفات؟ الدروب تقتضى مزيدا من التعصير واستخلاص الرحيق . والله يشهد انى أعتصرت ذاكرتى ونفسى فوق ما أطيق . ما جدوى كل ذلك؟ كريمو ينتظر، وسواه من البشر لن يفهمنى. بيد أن هناك حلا بديلا يتراءى فى الأفق إذا ما عرفت قدرى وصمت. حل سيضمن الراحة فيما تبقى من العمر .. ساعة واحدة أو أعوام طويلة. شغفت بمتع الدنيا ثم تطلعت فوق كل ذلك إلى غير ما تطلع إليه أقران «المطمر» والكازينو والإعدادية. لماذا نافقت روحى؟. لماذا حشرتها فى هذا التحدى الكئيب؟

وسمعتنى رقية أكلم نفسى بصوت عال فهرعت نحوى مستفسرة كنت أنظر فى الصفحة البيضاء وأنا أكاد أجهش. لن يهمنى الخزى الذى شوه العائلة قدر

ما يهمنى أن أكون مخلوقا سويا فى طموحى وتطلعاتى. ويبدو أننى ما استطعت إلي ذلك سبيلا ..

« – هل صرخت؟ .. القرحة ..؟»

رفعت نحوها عينى مستعطفا الرأفة. رقية لها دراية عميقة بمزاجى المستسلم العنيد لكن المفاجأة بدت ساطعة على محياها حينما سمعتنى أتمتم:

« – زيادة على القرحة .. لم يكن من المنتظر أن يحل الغروب قبل الأوان..»

وصمتت هنيهة . وعندما لم تفهم القصد استفسرت متعجبة:

« – عن أى شئ تتحدث ..؟»

« – عن الواحد والسبعين وراحة الغروب ...»

« – حد العجب سبعة أيام ...»

وألحت المرأة فى السؤال فنبهنى الإلحاح إلى ضرورة أن أبدو سويا .. ونظرت رقية إلى الأرض فى الانكسار ثم تمتمت:

« – والدار؟ .. و«النقيبة» نفسها؟ .. لقد ضقت بهما بدورى .. ولكن ما العمل .. هل نهجر «المطمر» كما هجرة أسيادنا؟»

وقلت بحزم:

« – سأخرج ..»

وأدركت أن لا سبيل إلى معاندتى في قرارى. وحامت برأسها الهواجس ثم أردفت باستسلام حاقد:

« – أنت تحل جميع المشاكل بالخروج .. كأنهم قطعوا سرتك هناك .. ولكن يموت الشطاح ولاينسى هز كتفه ...».

ـ ٥٦ ـ

دقت ساعة «الجامع الكبير» دقاتها التاريخية الحزينة، وبعيد الصلاة أحسست بفداحة لحظة التيه. ألم الحرقة يزداد وسمات الجنائز تندلق فى الدروب والأزقة تكتسحها وتكتسحنى فأنحرف معها منصاعا. ليس لديك الآن أصدقاء ولا أهل. وحتى الجدران والسحنات خانتك فلم تسلم لك مقاليدها فكان انهزامك إزاء العتاقة وطلب العمق. الأسبوع سينتهى بعد ساعات معدودات لم يبق لك سوى أن تتنازل عن عنادك الموروث عن سلالات غابرة وأن تفكر فى الطريقة المثلى للتنازل. هل تطمح إلى أن تكون أفضل من الأسر التطوانية التى لم تهجر بعد المدينة العتيقة؟ تريد أن تضيف إلى ثرواتك ميزة الإبداع التى لم تستطعها؟ يكفيك أنك وقفت عند مشارف الحقيقة فلا تتجاوز حدك واعترف بهزيمتك تطوان ستظل منتظرة فارسا آخر غيرك ليصوغها قصيدة جميلة أو رواية ساحرة أما أنت فهيهات لك أن تكذب على نفسك وتدعى أنك كاره لعبة الشطرنج ودفء الكازينو ودغدغة العقارات والمال المجموع. وهمست فى أذن عبد الكريم:

« – ثق بى أنى استجديت الدروب العتيقة بحب أبدى وحمت حولها كما النحلة بين ثقوب الخلية .. والآن لم يبق سوى المضى فى الطريق المفضية إليك .»

وواجهنى فى آن واحد «جامع الربطة» ببابه الأخضر الوديع و «درب ابن المفتى» بلوياته السبع. وأكبرت اليد الرحيمة المجهولة صاحبة المال الذى بنى به الجامع كما فى الأسطورة، يد رجل أو يد امرأة وقارنت فبدت لى يدى ونفسى بخيلتين وغير مجديتين آنذاك لم يكن ثمة بد من عبور «درب أبن المفتى» والتواء المعدة فى أوجه جرب ضيق القبر فى الدرب الضيق وتضور ألما مع التواءاته ثم اصطدم بآخر دور العتاقة ذاك حد المدينة ولأنك لن تستطيع اختراق الحدود والأزقة التى لا مخرج لها، تضطر إلى العودة عبر دروب أخرى منفتحة. هاهم الخرازون خلف «المارستان» هاهم السابكون فى «الصياغين» وهاهى رائحة

النجـارة تزكم أنفك من «درب النجـارين». ثم هاهى «باب المقـابر» بالأطفـال المتسولين ومرتلى القرآن وبائعات الريحـان. وتقاطرت جنازات العصر. الأولى . الثانية . الثالثة الرابعة .. وصليت على الموتى مع المصلين .. وتسللت إلى صفوف المعزين .. والتفت إلى ضريح «سيدى على المنظرى»:

« – ها هى أمانتك الوديعة أردها إليك .. لست فى مستوى الأمانة .. أنت بنيت المدينة وكان لك مجد البناء الخالد وأنا عجزت عن وصف ما بنيت .. وأقسم بالله العظيم أنى كنت مخلصا فى نيتى وتجوالى وسعيى .. وقبل هذا وذاك كنت مخلصا فى حبى .. أرجو المعذرة فأنا لست أول ولا آخر الفاشلين .. أحمد عاكف قد فشل .. عثمان بيومى نفسه فشل .. أما كمال عبد الجواد فهيهات أن أحذو حذوه ..».

ووخزتنى القرحة ثانية فخفت أن أموت بعيداً عن دارى، وداريت الوخز وأنا أتيه بين القبور والأحواش ومصطبة الجلوس. وخلال التيه بين القبور يصعب تفادى اللقاء بمعارف أهل «البلد» إنهم كثر أبادلهم التحية والمجاملة وأنقب فى عيونهم عن حقيقتى. إن النظر فى عيون الناس نهج عتيد لاستقراء حقيقة وضعيتنا كذلك قال برنارد شو «حين نتكلم مع الآخرين يجب أن نراقب أنفسنا فى عيونهم جيداً» أما أنا فكم أقرأ فى عيونهم سوى الانزعاج والزيغ، وفى جميع الحالات لم أطق إطالة أمد المجاملات .

بدأت «المقابر» تتخفف من روادها حتى كادت أن تخاو منهم استوحشت المكان وداخلنى الريب فى مسألة الأسبوع المصيرى على الرغم من الألم ووجودى بين أحضان الأموات .. قد لا يتشابه المصيران .. آنذاك سيكون كلام آخر وناديت عبد الكريم فلبى الخل النداء وصعدنا فى تلقائية بريئة عقبة «المعهد الحر» مدرسة الطفولة وتقطعت أنفاسنا ونحن نصعد الدرجات المغروسة بالأحجار الصغيرة إلى أن أنقطع البناء والتفقنا حوله . وأحسسنا بالتعب وجلسنا فوق صخرة واقعة خلف المدرسة . على يميننا مقابر المجاهدين الغرناطين الباكية أما المدينة فقد

بدت من موقعنا العالى منبسطــة، مشتتة وبيضـاء. وامتدت سلسلة جبل غرغيز على يميننا منكسرة تمضى فى انحدار نحو الشريط البحرى الرقيق الذى تتوقف عنده العين وتجلت تطوان و«مرتين» جمالا مسبوكا جعلنى أبتسم وأقول لعبد الكريم:

« – جمال ساحر وحقيقي لكنه صعب الترويض كم أنا تافه وضئيل إزاء تلاحم الدور ونتوء المآذن وإلحاح البياض والزرقة وأشهد الله أن السحر بدأ يغوينى من جديد»،

لكن عبد الكريم انتفض وقال :

« – لا تغتر، ففى ساعة الاحتضار تتوارد الصور على الخاطر بغزارة كما لو كانت وابلا من المطر ..»

قلت:

« – وكذلك فى ساعة الحمى».

قال:

« – صور الاحتضار من طينة أخرى ..»

قلت:

« – هى مضيئة وغامضة كالليزر أو الأشعة ما فوق البنفسجية ..».

قال :

« – ومن أدراك بذلك؟ .. أكنت يوما محتضراً مشرفا على العالم الآخر؟»

قلت :

« – منذ أن ولدت وأنا فى حالة أحتضار دائم .. يمكننى مثلك ،أن أرى ما لا يراه سائر البشر».

قال :

« – ومع ذلك لا يجب عليك أن تقارن صور الموت بالليزر والأشعة إنك قاصر في اقتحام المجهول .. أعترف بذلك .. زر الطبيب في الغد إن ظللت حيا .. وسلم الأمر للذى خلقك .. ».

رقم الإيداع : ١٨٥٩٤/ ٢٠٠٣
I. S. B. N
977 - 07 - 1007 - 5

أحـــــدث إصـــــدارات روايـات الهـــــلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن بالجنيه
٦٤٧	ليلة عرس	يوسف أبو ريه	نوفمبر ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٨	رجل أبله امرأة تافهة	محمد ناجى	ديسمبر ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٩	ريحانة	ميسون صقر	يناير ٢٠٠٣	٧,٠٠
٦٥٠	اغتيال	أميلى نوتومب	فبراير ٢٠٠٣	٥,٠٠
٦٥١	كائنات محتملة	محمد عزالدين التازى	مارس ٢٠٠٣	٥,٠٠
٦٥٢	سواقى الوقت	سلوى بكر	أبريل ٢٠٠٣	٥,٠٠
٦٥٣	ما ذكره رواة الأخبار	محمد جبريل	مايو ٢٠٠٣	٧,٠٠
٦٥٤	الدار الكبيرة	محمد ديب	يونيه ٢٠٠٣	٨,٠٠
٦٥٥	النـــول	محمد ديب	يوليه ٢٠٠٣	٦,٠٠
٦٥٦	خيال الظل	جورج سيمينون	أغسطس ٢٠٠٣	٥,٠٠
٦٥٧	أوراق العائلة	محمد البساطى	سبتمبر ٢٠٠٣	٥,٠٠
٦٥٨	شارع مصنع النسيج	صفوت عبدالمجيد	أكتوبر ٢٠٠٣	٥,٠٠

هذه الرواية

أى سحر نفثه الفراعنة فى بطل روايتنا «أحمد الساحلى» حتى جعلوا منه واحدا منهم ؟!

إنه يقرأ ما يقرؤه صديقه «عبدالكريم» من صفحات شرقية ، ويرتادان معا قسم الصحف والمجلات ، لكن من دون أن يصل به الوجد إلى أن يشم الورق ويميز من خلال الرائحة بين طبعة دار الهلال ودار الكتب وطبعة دار المعارف ، أو يفرق بين رسوم اللباد وجمال قطب وحسين بيكار وحلمى التونى ..

لم يتعذب عبدالكريم مثلما تعذب أحمد الساحلى من أجل أن يعيد حميدة فى «زقاق المدق» إلى الصواب ، ولم يحلم بقضاء ليلة واحدة فى أحضان نور والمخاطر تحفهما من كل جانب .

لقد كان عبدالكريم شرقى الهوى هو الآخر لكنه لم يتطلع أبدا إلى كتابة قصة طويلة عن تطوان بإيحاء مصرى . لكن أحمد الساحلى يجتهد فى تجميع مادته الروائية من المشاهد والأحداث والمواقف بين أهالى تطوان وخلال دروبها وأحيائها ، يسجل ويرصد ، وبإيحاءات مصرية تتداخل فى نسيج العمل ، لتكون فى النهاية رواية «المصرى» درة أعمال الروائى المغربى محمد أنقار .

محمد أنقار

- من مواليد مدينة تطوان (شمال المغرب) سنة ١٩٤٦ .
- درس بكليتى آداب فاس والرباط .
- حصل على الماجستير من كلية آداب فاس سنة ١٩٨٤ فى أدب الطفل، كما حصل على الدكتوراه من كلية آداب الرباط سنة ١٩٩٢ فى الأدب المقارن .
- حصل على جائزة المغرب فى الدراسات الأدبية والفنية سنة ١٩٩٨ .
- نشر عددا من المقالات النقدية والقصص القصيرة .
- يشغل حاليا منصب أستاذ التعليم العالى بكلية الآداب بتطوان .
- من أعماله : «بناء الصورة فى الرواية الاستعمارية، صورة المغرب فى الرواية الإسبانية» سنة ١٩٩٤ دراسة، «زمن عبدالحليم» سنة ١٩٩٤ قصص قصيرة ، «بلاغة النص المسرحى» سنة ١٩٩٦ دراسة، «قصص الأطفال بالمغرب» سنة ١٩٩٨ دراسة ، «التركى: الرجل الذى طار بالدراجة» سنة ٢٠٠٠ صورة حياة، وله تحت الطبع مجموعة قصص قصيرة بعنوان «مؤنس العليل» .

روايات الهلال تقدم

حياة وزمن مايكل ك

بقلم

ج.م كوتسيا
(الحائز على جائزة نوبل
فى الأدب لعام ٢٠٠٣)

تصدر : ١٥ ديسمبر ٢٠٠٣


المعلم أون لاين
www.elmoalemonline.com
07771555
مجاناً
إلعب و تعلم على الإنترنت من خلال الرقم ٠٧٧٧١٥٥٥
للمذاكرة و المراجعة
للألعاب و الترفية
PUZZLE
للاستفسار و مراسلة المدرسين
بضمان
سلاح التلميذ
المعلم اون لاين – بوابتك الإلكترونية إلى المستقبل
Bibliotheca Alexandrina
1062919